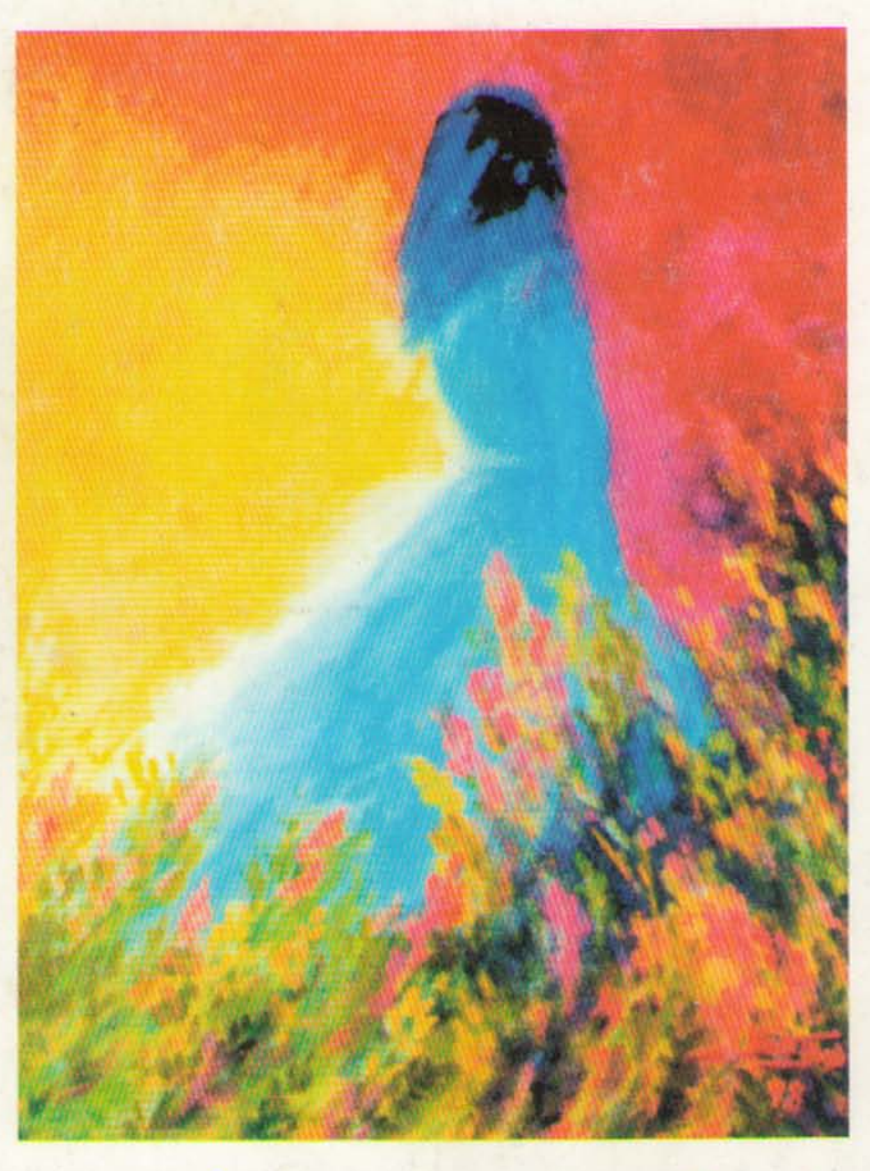




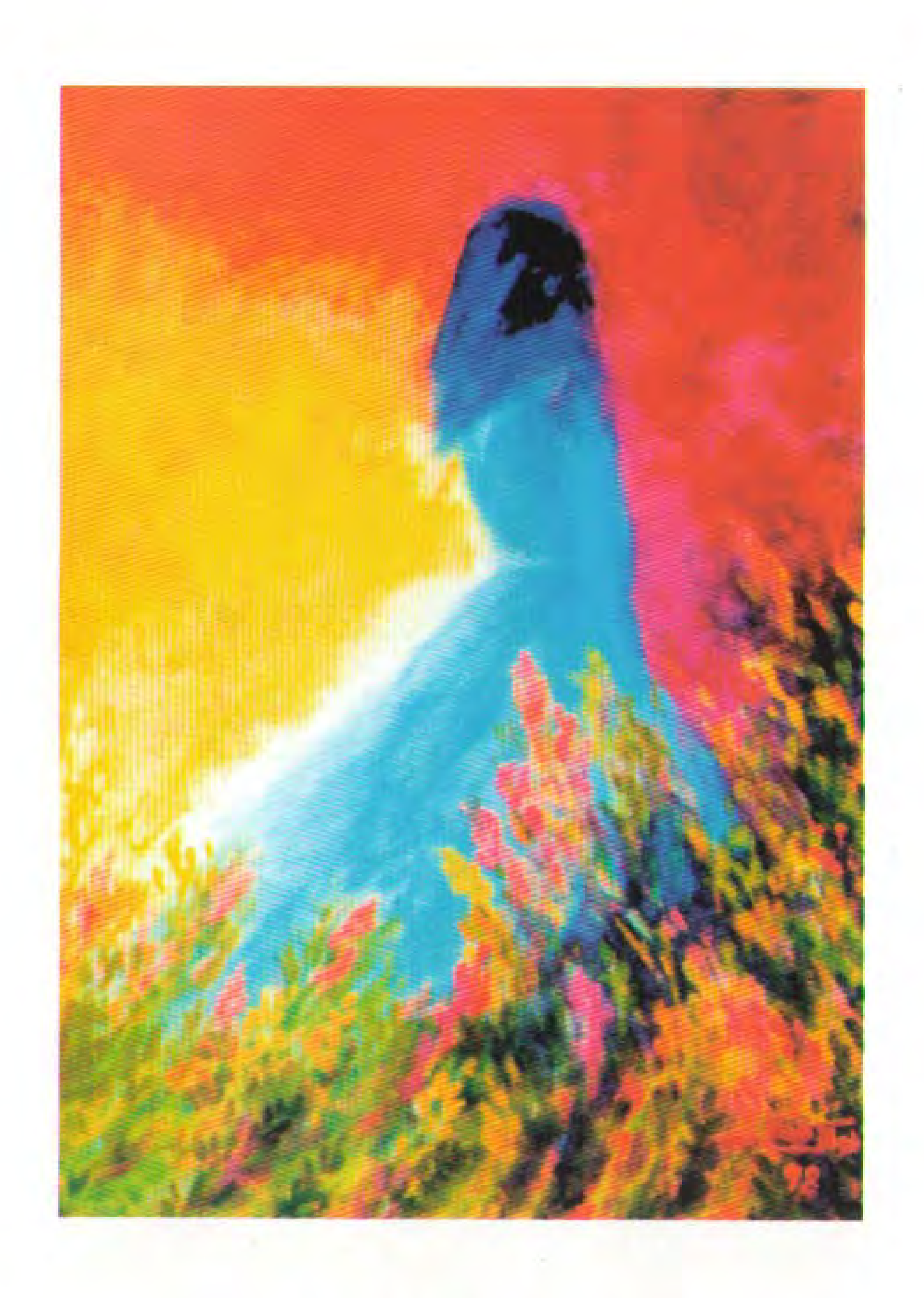
349



القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين

تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالإسبانية
ترجمة وتقديم: صالح علماني
مراجعة: د. محمد حسن موسى

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت
أغسطس 2004



الفنـــانة : نوال كمال - البحرين

إسم اللوحة : ريحة المشموم



القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين

تأليف:

مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية

ترجمة وتقديم:

صالح علماني

مراجعة :

د. محمد حسن موسى

العدد 349 أغسطس 2004



سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10 د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12 د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147
دولة الكويت

ردمك ٢ - ١٤٠ - ٠ - ٩٩٩٠٦
ISBN: 99906 - 0 - 140 - 2

• القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 2004م

إبداعات عالمية - العدد 348

صدر العدد الأول في أكتوبر ١٩٦٩م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(١٩٢٣ - ١٩٩٠)



مقدمة

تحاول هذه المختارات أن ترصد نماذج وتيارات مختلفة في مرحلة فسيحة عرفت إنتاجا غزيرا من القصة الأمريكية الإسبانية، ولا يمكن لها بالتالي، مثل أي مختارات أخرى، إلا أن تكون محاولة انتقائية أبعد ما تكون عن الإحاطة بالتاريخ الأدبي للمنطقة المعنية، على الرغم من تناولها لمرحلة زمنية بعينها. فمع أننا سعينا جاهدين إلى أن نضمنها طيفا واسعا من الأسماء البارزة، فإن أسماء كثيرة أخرى غابت عنها، لأن كِتابا بهذا الحجم لا يمكن له أن يستوعب عشرات الكتّاب اللامعين في قارة مترامية، شهدت في القرن العشرين فورة هائلة في فن القصة والرواية. ولكننا تتبعنا في الوقت نفسه النماذج والتيارات المتنوعة، وبعض المفاصل المهمة لنغطي القرن بكامله، ابتداء من قصة «الدجاجة المذبوحة» لهوراسيو كيروغا، المنشورة عام ١٩٠٧، وحتى قصة «نهاية الأسبوع» لماريو بينيديتي المنشورة عام ١٩٩٩، ضمن مجموعة «صندوق بريد الزمن». والقراءة التي يمكن لهذا الكتاب أن يقدمها، هي الاطلاع على تجربة الحداثة الإسبانو أمريكية كما تجلت في القصة القصيرة، وحركة التجديد فيها.

لقد كانت أمريكا الإسبانية، على امتداد حوالي أربعة قرون - مثل كل المستعمرات الأخرى - مجرد مُورِّد للمواد الأولية،

ومستورد ومستهلك للمنتجات المصنعة، ومن ضمن تلك المنتجات المستوردة، كانت تستهلك أدبا يُكتب على بُعد آلاف الأميال عن واقعها، بعيدا كل البعد عن مشاكلها وهمومها اليومية، إلى أن جاء الازدهار الاستثنائي الذي عرفه الشعر الغنائي الإسبانوأمريكي في مطلع القرن العشرين، وكان من أبرز رواده النيكاراغوي روبن داريو، والكوبي خوسيه مارتي، والتشيلي فيثنتي هويدوبرو، والبيروفي ثيسر باييخو، وبعدهم غابرييلا ميسترال وبابلو نيرودا وأوكتافيو باث وغيرهم. وقد ارتبط هذا الازدهار الشعري ارتباطا وثيقا بازدهار الفن القصصي الذي بلغ مستويات لا تقل بأي حال عن تلك التي بلغها الشعر. ومثلما كان رواد التجديد في الشعر الناطق بالإسبانية هم، لأول مرة، من أمريكا اللاتينية وليس من إسبانيا الأم، نجد أن أبرز الروائيين والقصاصين بهذه اللغة في النصف الثاني من القرن العشرين هم من أمريكا اللاتينية أيضا. ومع ذلك، فإن أصالة القصة الأمريكية اللاتينية كانت قد استقرت ونضجت إبداعيا منذ النصف الأول من القرن. فقد عرفت بدايات القرن العشرين قصاصين بارزين، شكلوا استمرارا لاتجاهات القرن التاسع عشر في اهتمامهم بالنثر الأنيق المنمق الذي يسعى إلى الكمال، من خلال عمليات تهذيب وتشذيب ومراجعة طويلة ومتأنية.

ولكن مسيرة التجديد الحقيقية في القصة القصيرة تبدأ مع قصص هوراسيو كيروغا، أحد أبرز ملهمي الروح التجديدية في الإنتاج الأدبي الإسبانو أمريكي. فقد كان كيروغا أول من حاول وضع نظرية للقصة القصيرة الأمريكية الإسبانية؛ فحدد بدقة أطر هذا الجنس الأدبي وعناصره الأسلوبية. وكان يرى أن «الإلهام»، هذا البعد الغامض في الإبداع، هو عنصر ضروري لا غنى عنه فعلا، ولكنه كان يدرك في الوقت نفسه أن الافتقار إلى الملكة التقنية يمكن أن يُفسد أرقى رؤية إبداعية. وقد اهتم كيروغا، بصورة خاصة، في رسم الحدود الجوهرية الفاصلة بين القصة القصيرة والرواية، على رغم ما بينهما من تداخل في الظاهر.

لقد كان كيروغا معلما بارزا لا جدال فيه في ميدان النشر الغرائبي الأمريكي، وأحد أفضل القصاصين باللغة القشتالية. فتحت تأثير إدغار آلان بو وبودلير، استخدم كيروغا تجربته الغنية، وانطباعاته الشخصية والملاحظات التي توصل إليها خلال سنوات طويلة من الإقامة في أدغال «تشاكو» و«ميسيونس»، ليكتب قصصا تكتسب فيها الغابة، والأنهار، والحيوانات الكبيرة والصغيرة، والأشجار نفسها، حياة مفعمة بالزخم. وتتمتع بأهمية كبيرة في هذا المجال «قصص الحب والجنون والموت» ١٩١٧، و«حكايات الغابة» ١٩١٨، والقصة الطويلة البارعة «أنكندة» ١٩٢١، وهي أعمال مفعمة

بالحساسية والقدرة على استشفاف حياة الغابة وتقديمها بمهارة تصويرية فريدة، وبلغة نابضة، قلقة ومثيرة للقلق في الوقت نفسه.

بورخيس وطريقة جديدة في القص

في الوقت الذي كان فيه كيروغا منكبا على إعادة خلق مشاهد غابات ميسونس بكل تلوناتها، كانت الأوساط الأدبية في العاصمة الأرجنتينية بوينس آيرس، تضج بتوجهات طليعية جديدة يتصدرها خورخي لويس بورخيس الذي تكشف عن فنان متميز الصنعة، ورائد في استخدام الرمز، يقدم قصصا متقنة يصل بناؤها إلى حد الكمال، في آلية معقدة كأنها آلية الساعة، وبأسلوب رصين محايد ومكثّف ودقيق، يدفعها في فضاءات ومتاهات ليس لها إلا مخرج يحدده بدقة باهرة. وهو يفعل كل ذلك بوعي ثاقب، متنقلا من العبث إلى الخرافة، مع الاحتفاظ بقدرة كبيرة على التشويق.

لقد جذّر خورخي لويس بورخيس بطريقته الخاصة في القص، فكرة القصة القصيرة كجنس أدبي؛ فأعماله القصصية - التي هيمنت طوال عقود على المشهد الثقافي الأمريكي الإسباني، والتي لا يزال تأثيرها متواصلا في الأدب العالمي - تكشف لنا عن جوهر القوة في القصة القصيرة،

واتساع أفقها غير المحدود أحيانا، أو انغلاقها في متاهة ليس لها إلا مخرج واحد في أحيان أخرى. فبعد بورخيس لم يعد من الضروري التصدي للفكرة القائلة بأن القصة هي تفرع من الرواية، أو أنها تُكتب عندما يفتقد الكاتب النفس لإنجاز عمل سردي طويل. فالرؤية المعقدة التي تعكسها القصة البورخسية تُكذّب تلك المفاهيم. ومع ذلك، فقد مارس بورخيس بريادته القصصية، تأثيرا كبيرا على جيل كامل من الروائيين التالين، على الرغم من أنه لم يكتب الرواية قط.

لقد كان بورخيس مشغوفا باستنباط النظريات عن الزمن ودائريته ومنجذبا، منذ بداياته الشعرية، إلى دمج الواقع بالوهم، والحلم بالأرق. والبحث عن معنى الوجود، والحرية، والموت في واقع الحياة الغامض، متجاوزا القلق الانفعالي الذي ساد النثر الرومانسي في أواخر القرن التاسع عشر، كما هي الحال في قصص «تقاليد بيروفية» لريكاردو بالما، متجاوزا في الوقت نفسه التوجهات الحداثية لمعاصريه، من أمثال ليوبولدو لوغونس وهوراسيو كيروغا.

البحث عن سبل جديدة

بعد هذا الجيل من الكتّاب الذين حملوا لواء التجديد في مطلع القرن، دخلت القصة الأمريكية اللاتينية في أزمة تلت مرحلة الخصوبة تلك. ولكنها كانت أزمة صحية بطريقة ما،

سادها صمت مفاجئ، رافقه تأمل وإعادة نظر، وتلاه التوصل إلى دروب جديدة، وظهور جيل جديد من الكتّاب المجددين.

فمنذ ١٩٣٠ حتى ١٩٤٠، تمثلت متطلبات التجديد في تجنب مخاطر التكرار والاجترار، وكانت مرحلة وعي جماعي ومراجعة وبحث عن سبل تعبيرية جديدة. وجاءت النتائج في ظهور اتجاهات تدعو إلى الخروج من تحت وطأة الآباء السابقين وتحطيم أصنامهم، والبحث الدؤوب والتجريب الجريء غير المحدود، ورفض الأنماط السابقة التي تحول بثقلها دون لمح أفق جديد وتوجه خاص.

وفي خضم هذا البحث، وتحت تأثير كتّاب مثل كافكا ومارسيل بروست وأندريه جيد وفوكنر ودوس باسوس وهيمنجواي، ظهر جيل شاب من كتاب الاتجاهات النفسية والتقنيات السينمائية، شقوا الطريق نحو بنى سردية جديدة ومتنوعة، ونحو أشكال تعبيرية لم تكن تخطر في البال حتى ذلك الحين. وكان الإنسان المعاصر وهمومه هما مركز هذا التوجه الجديد.

أستورياس وكاربينتيير وواقعيتهما السحرية

كانت حركة «الواقعية السحرية» هي أول نتاج حركة التجديد تلك، وهي حركة تبحث عن الواقع الخاص من خلال الطبيعة والأسطورة والتاريخ، لتأكيد الأصالة والوحدة. ومما

لا شك فيه أن الواقعية السحرية حافظت في انطلاقتها الأولى على خصائص كثيرة من التيارات والاتجاهات الإقليمية والواقعية الجديدة والاحتجاجية، وهو ما يتبدى بوضوح في أعمال الغواتيمالي ميغيل آنخل أستورياس والكوبي أليخو كاربينتيير، الممثلين البارزين لهذا التوجه على طريق البحث عن أشكال أكثر تجديدا في التجريب القصصي الإسبانوأمريكي.

نلمس عند أستورياس عمق التأثر بالسيريالية والحركات الطليعية الباريسية التي كان على اتصال وثيق بها خلال سنوات إقامته في باريس. فمجموعته القصصية الأولى «أساطير من غواتيمالا»، كتبها في باريس، وأطراها بول فاليري الذي لم يجد ما هو أشد غرابة من تلك «القصص- الأحلام - القصائد». ولكن سيريالية أستورياس تبقى مطبوعة بالطابع الغواتيمالي المحلي، ومرتبطة ارتباطا وثيقا بتقاليد قارته وثقافتها، حيث يبدو ما هو أسطوري وغير واقعي قد تحول إلى واقعي من خلال استغراق الهندي في تفاصيل الحلم، أو بفضل تفسير المعتقدات السلفية القديمة والسحر، أو من خلال الاستعانة بالطبيعة التي تشكل عند أستورياس عاملا حاسما في تأكيد واقعية ما هو غير واقعي.

لقد كان أستورياس، برؤيته حول «سحر الواقع»، أحد أكبر المجددين في فن القص الأمريكي الإسباني، وتوصل إلى

ذلك من خلال انفتاحه على التجارب الطليعية في العالم، وباستناده إلى التراث الإسباني منذ ثريانتس، ومعرفته العميقة بأساطير هنود المايا ومعتقداتهم، وقدرته على استخدام اللغة الإسبانية للتعبير عن الأساليب التي كانت سائدة قبل وصول الإسبان إلى قارته. وهو - كما يقول كارلوس فوينتس - لم يتوقف عند التوثيق الغائم، بل وجد الشفافية في الأسطورة وفي اللغة، وفي رد شخوصه إلى أساطيرهم وإلى لغتهم السحرية، وهي لغة قريبة في بنائها من لغة السيرياليين.

وبينما كان أستورياس مستغرقا في واقعيته السحرية، مضى أليخو كاربينتيير في عرض نظرية «الواقع العجائبي» التي تُقر بأن تقبّل مقولات «المعجزة» و«الكشف» يتطلب إيمانا: «فالإحساس بما هو عجائبي يتطلب إيمانا». ويرفض الكاتب الكوبي الواقعية السحرية الأوروبية، ويصفها بالسطحية، ليشيد بالبعد «العجائبي» للعالم الأمريكي اللاتيني بطبيعته، وأساطيره، ومعتقداته، وتاريخه، لأنه يشكل «ثورة ضمن الواقع».

ويغرق كاربينتيير في الأجواء السحرية للزنجي الكوبي، بحثا عن الجذور الروحية لجزيرته، في الوقت الذي يشن فيه حملة قاسية على أوضاع البلاد التي ينهبها رأس المال الأجنبي. وفي عام ١٩٤٤، ينشر قصة بعنوان «رحلة إلى البذرة»

(وهي ضمن قصص هذا الكتاب)، تمثل نموذجا للتجديد التقني، فهي قصة «رجوع الزمن» في رحلة إلى الوراء، من الموت حتى النطفة، في أجواء لا واقعية وسحرية يهيمن عليها شبح الموت والفناء.

فيليسبيرتو هيرنانديث وعالمه اللامنطقي

لقد أدخل هذا الكاتب بعدا جديدا في الأدب الخيالي الإسبانوأميركي ونفحة يمكن تلمس تأثيرها فيما بعد في أعمال خوليو كورتاثر وغيره من الكتاب الذين لمعوا عالميا بعد فورة الرواية الأمريكية اللاتينية في الستينيات. ويستند بناء قصة فيليسبيرتو هيرنانديث إلى قوتين أساسيتين: التقاط سر الكائنات والأشياء في واقعها اليومي من جهة، والذاكرة الوجدانية الانفعالية التي تستعيد من الماضي ما هو متسام على الوجود المادي. ففي نصوصه القصيرة نسبيا والمكتوبة بشيء من الإهمال في الشكل، تبرز بوضوح العلاقات الخارجية القائمة بين ما هو مشترك وعفوي في العالم الحسي. وتتبدى معارفه الموسيقية ومهنته الغريبة في شبابه (مرافق على البيانو للأفلام الصامتة) في موضوعات قصصه، إلى جانب أحلام مرحلة الطفولة، وتعرضه لمشاكل الكتابة والكاتب... إلخ.

على الرغم من بعض الهنات في الشكل، فقد عزز في بلده وفي البلاد المجاورة الكتابة ذات الرافد الفانتازي المنفصل عن

الطروح الواقعية والمنطقية (واعتبره البعض رائدا لخوليو كورتاثر)، ومن خلال بحثة عن ألغاز الوجود اليومي أو مرحلة الطفولة، والإشارة في أعماله إلى قضايا الإبداع الفني ومنها قدرة الذاكرة على استدعاء الواقع المعيش.

كتّاب النصف الثاني من القرن العشرين واكتساح العالم

في أواسط القرن العشرين، بدأت تظهر أعمال مجموعة كتاب ستشكل كتاباتهم في العقد التالي ظاهرة فريدة في النتاج الأدبي، وسابقة في العالم الناطق بالإسبانية. وسيُطلق عليهم تسمية كتاب «البُوم» boom الإسبانوأمريكي، وهم كتّاب نشروا أعمالا قصصية باهرة ما بين عامي ١٩٤٨ و١٩٦٢، السنوات التي ظهرت فيها أعمال قصصية من نوع «هذا الصباح» (١٩٤٩) و«الرحلة الأخيرة وقصص أخرى» (١٩٥١) لماريو بينيديتي؛ و«حديقة الحيوان» (١٩٥١) لخوليو كورتاثر؛ و«السهب الملتهب» (١٩٥٣) لخوان رولفو؛ و«الرعد بين الأوراق» (١٩٥٣) لأغسطو روا باستوس؛ و«الأيام المقنعة» (١٩٥٤) لكارلوس فوينتس؛ و«اصطياف وقصص أخرى» (١٩٥٥) لخوسيه دونوسو؛ و«حرب الزمن» (١٩٥٨) لأليخو كاربينتيير؛ و«القادة» (١٩٥٩) لماريو بارغاس يوسا؛ و«مأتم الأم الكبيرة» (١٩٦٢) لغابرييل غارسيا ماركيز.

وفي هذه الفترة نفسها ظهرت أسماء لامعة أخرى، على الرغم من أنها لم تحقق شهرة عالمية كالأسماء السابقة، ومن هؤلاء المكسيكي خوان خوسيه أريولا، والفنزويلي غييرمو مينيسيس، والبوليفي أغوسطو غوثمان، والبيروفي خوليو رامون ريبيرو، والمكسيكي سيرخيو بيول وغيرهم.

وقد انتحى كتّاب هذا الجيل منحى التجريب، مستفيدين من التقنيات الحديثة، بما في ذلك التقنيات السينمائية، وأساليب علم النفس، والتوغل عميقا في الطبيعة البشرية. ولم يتوقف معظمهم عند التجديد الأسلوبي في نثرهم، وإنما مضوا قدما في المزج الأصيل لما هو واقعي بما هو متخيل، متجاوزين الواقعية السائدة لمنح الواقع زخما جديدا وأبعادا لم تكن معروفة من قبل.

وكان رائد هذا التوجه الجديد، والتجديد الحقيقي في القصة المكسيكية أولا، ثم الأمريكية اللاتينية بعد ذلك، هو خوان رولفو في قصص مجموعته «السهب الملتهب» (١٩٥٣)، حيث جسد كل ما في الريف المكسيكي من بدائية وعنف، وشحن قصصه بالصور القاسية التي لا تخلو من التهكم أحيانا (كما في قصة «قل لهم ألا يقتلوني» المتضمنة في هذه المختارات)، لتشكل سجلا حافلا بالهموم الاجتماعية. وقد تكرس على يديه الطلاق بين الجنوح إلى البلاغة الأدبية، ولغة التعبير اليومي التي صارت تقليدا من تقاليد القصة

الأمـــريكيـــة اللاتينيـــة، وإن تـواصلـت بعـــد ذلـك المحـــاولات التجـريبيـة اللغوية على يد كارلوس فوينتس ومـاريو بارغاس يوسا وغيـرهما من كتّاب الموجة الجدية. وقد جاء منح جائزة نوبـل للآداب إلى الكاتبين: مـــيـغـيـل آنخل أســتـوريـاس (سنة ١٩٦٧) وغـابرييل غـارسيـا مـاركيـز (سنة ١٩٨٢) تتـويـجـا رسـميـا للاعتراف العالمي بالنثر القصصي الأمريكي اللاتيني الذي بلغ مرحلة النضج.

صالح علماني

هوراسيو كيروغا

Horacio Quiroga

(الأورغواي)

● ولد هوراسيو كيروغا في مدينة إل - سالتو (الأورغواي) عام ١٨٧٨.

● يتضمن نتاجه الأدبي الرواية، والقصة القصيرة، والمسرح، والشعر، والدراسة الأدبية، ولكنه برز بصورة خاصة في القصة القصيرة بفضل أسلوبه التجديدي في هذا الجنس الأدبي، حتى صار واحدا من المؤسسين الحقيقيين لفن القصة القصيرة الحديثة في أمريكا اللاتينية.

● عاش كيروغا سلسلة متواصلة من المآسي: فقد مات أبوه برصاصة طائشة، وكان هوراسيو لا يزال طفلا، ثم انتحر زوج أمه بعد سنوات من ذلك. ومات أحد أصدقائه المقربين فيما بعد في حادث إطلاق نار غريب تسبب فيه كيروغا نفسه. ثم مات أخواه في شبابهما، وانتحرت زوجته. وكان لهذه الأحداث كلها تأثير في نتاجه الأدبي.

● انتقل عام ١٩٣٠ إلى مقاطعة ميسيونيس، واشترى هناك أرضا ليزرعها قطنا، لكن تجربته أخفقت وألحقت به كارثة مالية. إلا أن إقامته في ميسيونيس (حيث الطبيعة البكر القاسية) عمقت علاقته بالطبيعة، وساهمت في صقل تجربته الأدبية، حتى صار الكاتب الأول في أمريكا اللاتينية الذي يتناول الإنسان وعلاقته بالطبيعة وبيئة البراري.

● مات منتحرا في بوينس آيرس عام ١٩٣٧، بعد أن عرف أنه مصاب بداء عضال لا شفاء منه.

● من أبرز أعماله:

في الرواية:

«قصة حب مضطرب» (١٩٠٤)، «حب عابر» (١٩٢٩).

في القصة القصيرة:

«جريمة الآخر» (١٩٠٤)، «المطاردون» (١٩٠٥)، «قصص الحب والجنون والموت» (١٩١٧)، «حكايات الغابة/ قصص للأطفال» (١٩١٨)، «المتوحش» (١٩٢٠)، «أنكندة وقصص أخرى» (١٩٢١)، «الصحراء» (١٩٢٤)، «الدجاجة المذبوحة وقصص أخرى» (١٩٢٥)، «المنفيون» (١٩٢٦)، «الأرصفة المرجانية» (١٩٠١).

في المسرح:

«القرابين» (١٩٢٠).

دراسات أدبية:

«دليل القصاص المحكم» (١٩٢٥)، «المهنة الأدبية» (١٩٢٨)، «بلاغة القصة القصيرة» (١٩٢٨).

الابـن

El hijo

إنه يوم صـيفي جـائر فـي مـسـيـونيس، بكل الـشـمس، والقـيظ، والسكون الذي يهيئه الفصل. الطبيعة تشعـر، وهـي بكامل تفتحـها، بالرضى عن نفسها.

ومثل الشـمس، والقيظ، والسكون السائد، كان الأب يفتح قلبـه كذلك للطبيعة.

- كن حذرا يا فتى - يقول لابنه مختصرا فـي هذه الجملة كل ملاحظات الحالة التي يدركها الابن تماما.

- أجل يا أبي - يـرد الفتى وهـو يتناول البنـدقيـة ويملأ جيـوب قميصه بالطلقات، ويزررها بحذر.

- عد فـي موعد الغداء - يلاحظ كذلك الأب.

- أجل يا أبي - يكرر الصبي.

يوازن البندقية فـي يده، يبتسم لأبيه، ويقبل من رأسـه وينطلق.

يلاحقـه أبـوه بعض الوقت بعينيـه ويعـود إلى عمله لـهذا اليوم، سعيدا بسعادة صغيره.

إنه يعلم أن ابنه، الذي تربى منذ طفولته المبكرة على اعتياد الخطر والحـذر منه، يمكنه أن يسـتـخـدم بندقـيـة، وأن يصطاد شيئـا مـا. ومع أنه طويل القـامـة جدا بالنسـبـة إلى سنه، فإنه لم يتجاوز الـثـالثة عشـرة مـن عمـره. ويبـدو أن عـمـره أقل من ذلك بالنـظـر إلى صـفـاء عـينيـه الزرقـاوين، اللتـين مـازالـتـا تحـتـفـظان بنداوة المفاجأة الطفولية.

لا يحتاج الأب إلى أن يرفع عينيه عن عمله لكي يتابع في ذهنه مسيرة ابنه: لقد اجتاز الدرب الأحمر وهو يمضي مباشرة إلى البرية عبر الأرض العشبية.

من أجل الصيد في البراري - صيد من النوع البسيط - لا بد من صبر أكبر مما يمكن لشبله أن يبديه. بعد اجتياز هذه الجزيرة الخلاء في البرية، سيمضي ابنه بمحاذاة حد نباتات الصبار حتى المستنقع، بحثا عن حمائم، أو طيور طوقان[1]، أو أي زوج من البلشونات، مثل تلك التي اكتشفها صديقه خوان قبل أيام.

الآن فقط، يرسم الأب ابتسامة وهو يتذكر ولع الصبيين بهواية القنص. وهما لا يصطادان أحيانا سوى طير ياكوتورو أو سوروكوا[2] - وهو أقل - ويعودان ظافرين. خوان إلى مزرعته حاملا البندقية عيار تسعة ملليمترات التي أهداها هو نفسه إليه، وابنه إلى الهضبة، ومعه بندقية سانت إيتين الضخمة، عيار ١٦، رباعية مغلاق الأمان وبارود أبيض.

هو نفسه كان هكذا أيضا، ففي الثالثة عشرة من عمره، كان مستعدا لتقديم حياته مقابل امتلاك بندقية. وابنه الذي في هذه السن، يملكها الآن؛ ويبتسم الأب.

ليس من السهل مع ذلك، لأب أرمل، ليس له أي إيمان أو أمل آخر سوى حياة ابنه، أن يربيه مثلما فعل هو، حرا في محيط تحركه الضيق، واثقا في قدميه الصغيرتين ويديه مذ كان عمره

---

(١) طوقان tuc□n: طائر أمريكي ريشه أسود تتخلله ألوان زاهية في الصدر والعنق.

(٢) ياكوتورو وسوروكوكا □yac□toro-surucu: كلمتان من لغة الغواراني. وهما تسمية لنوعين من الطيور. واسم الياكوتورو مشتق من صوته، إذ إنه يُصدر صوت «ياك» ويردده، وهو نوع من الدجاج البري أشبه بالتدرج.

أربعة أعوام، مدركا جسامة بعض الأخطار وضآلة قواه.

وكان على هذا الأب أن يناضل بقوة ضد ما يعتبره هو أنانيته. فما أسهل ما يخطئ يافعُ الحساب، يخطو بقدمه في الفراغ، فيضيع ابن!

الخطر يتربص دائما بالإنسان في أي سن كان؛ ولكن تهديده يتضاءل إذا ما اعتاد المرء منذ الصغر على عدم الاعتماد إلا على قواه الذاتية.

بهذه الطريقة ربى الأب ابنه. ولكي يتوصل إلى ذلك كان عليه أن يقاوم ليس قلبه وحسب، إنما عذابات ضميره: لأن هذا الأب، ضعيف المعدة والنظرة، يعاني منذ بعض الوقت الهلوسات.

لقد رأى ذكريات سعادة، مجسدة في وهم موجع، لا يمكن لها أن تنبثق إلا من العدم الذي حبس نفسه فيه. ولم تفلت صورة ابنه من ذلك العذاب. لقد رآه مرة يتدحرج مضرجا بالدم عندما قدح الصبي في مخرطة المشغل رصاصة مسدس برابيلو، وكان ما يريد عمله هو برد إبزيم حزام صيده.

أمور فظيعة... أما اليوم، مع النهار الصيفي الملتهب والحيوي، الذي يبدو أن ابنه قد ورث حبه، يحس الأب بأنه سعيد، مطمئن، وواثق في المستقبل.

في هذه اللحظة، ومن مكان غير بعيد، تدوي فرقعة.

- إنها بندقية السانت-إيتين... - يفكر الأب وهو يتعرف على الفرقعة - لقد نقصت حمائم الجبل حمامتين...

ومن دون أن يولي مزيدا من الاهتمام للحدث الطفيف، يستغرق الرجل مجددا في عمله.

الشمس، وقد أصبحت عالية جدا، تواصل صعودها، وحيثما نظر - أحجار، تراب، أشجار - يهتز في الحر الهواءُ المتخلخل كما في فرن. ويطبع الجو أزيز عميق، يملأ الكائن كله، ويمتد إلى حيث يصل البصر، مركزا في هذه الساعة كل الحياة المدارية.

يلقي الأب نظرة إلى معصمه: إنها الثانية عشرة. ويرفع عيْنيه نحو البراري.

لا بد أن يكون ابنه في طريق العودة. ففي الثقة المتبادلة التي يضعها كل منهما في الآخر - الأب بفوديه المفضضين والصبي بسنواته الثلاث عشرة - لا مكان للخداع أبدا. فعندما يرد عليه ابنه: أجل يا بابا، فإنه ينفذ ما يقوله. لقد قال إنه سيرجع قبل الثانية عشرة، وقد ابتسم الأب حين رآه يمضي.

ولم يرجع.

يعود الرجل إلى شغله، باذلا جهده في تركيز اهتمامه على عمله. من السهل. من السهل جدا فقدان الإحساس بالوقت في البرية، والجلوس لحظة على الأرض للاستراحة دون حراك...!

وفجأة، يتوقف ضوء الهاجرة، والأزيز المداري، وقلب الأب، تتوقف كلها على إيقاع ما فكر فيه للتو: ابنه يرقد من دون حراك...

لقد انقضى الوقت: إنها الثانية عشرة والنصف. يخرج الأب من مشغله، وحين يسند يده إلى منضدة الآلات، يتعالى من عمق ذاكرته دوي طلقة مسدس البارابيلو، وعلى الفور، ولأول مرة خلال الساعات الثلاث المنصرمة، يفكر في أنه لم يسمع أي شيء بعد دوي طلقة السانت-إيتين. لم يسمع دحرجة الأحجار تحت الخطى المعهودة. ابنه لم يرجع، والطبيعة توقفت عند حافة الغابة، في انتظاره...

أوه! لا يكفي طبعٌ متمرس وثقة عمياء بتربية ابن لإبعاد شبح القضاء والقدر، الذي يراه أب كليل البصر منتصبا عند حد البرية. سهو، نسيان، تأخر طارئ: لم يجد أي من هذه الأسباب الصغرى التي يمكن لها أن تكون قد أخرت مجيء ابنه، متسعا في ذلك القلب.

طلقة، طلقة وحيدة دوت، ومنذ وقت طويل. ومن بعدها لم يسمع الأب أي صوت، لم ير عصفورا واحدا، ولم يجتز الأرض الخلاء أي شخص ليقول له إنه بينما هو يجتاز أحد حواجز الأسلاك، رأى مصيبة كبيرة.

ينطلق الأب مكشوف الرأس ومن دون منجل الماتشيتي. يقطع الأرض العشبية، ويتوغل في البرية، يمضي بحذاء حد الصبار من دون أن يجد أدنى أثر لابنه.

ولكن الطبيعة ما زالت متوقفة. وعندما ذرع الأب دروب الصيد المعهودة وتفحص الأرض المستنقعية من دون طائل، أيقن أن كل خطوة يخطوها إلى الأمام ستقوده، بصورة محتومة ومشؤومة، إلى جثة ابنه.

لا يمكن لأي تأنيب يوجهه إلى نفسه أن يرثي لحاله. فليس هناك سوى الحقيقة الباردة، الرهيبة والناجزة: لقد مات ابنه لدى اجتياز أحد...

ولكن أين، في أي مكان؟! ثمة الكثير من الأسيجة هناك، والبرية شديدة... شديدة القذارة!... آه، شديدة القذارة!... بقليل من عدم الحذر لدى اجتياز الأسلاك والبندقية في يده...

يكتم الأب صرخة. لقد رأى ما يعلو في الهواء... آه، ليس هذا ابنه، لا!... ويعود إلى جهة أخرى، ثم أخرى، وأخرى...

لن يكسب شيئا من رؤية لون وجهه وغم عينيه. هذا الرجل لم يناد ابنه بعد. فمع أن قلبه يناديه صارخا، إلا أن فمه لا يزال أبكم.

إنه يعرف جيدا أن مجرد ذكر اسمه، مجرد مناداته بصوت عال، سيكون اعترافا بموته...

- صغيري! - أفلتت منه الكلمة فجأة. وإذا كان يمكن لصوت رجل قوي الشخصية أن يبكي، فلنغلق آذاننا شفقة حيال الغم الذي يجهر به ذلك الصوت.

لم يرد عليه أحد ولا شيء. مدفوعا بلسعات الشمس الحمراء، وقد شاخ عشر سنوات، يمضي الأب باحثا عن ابنه الذي مات للتو.

- بني!... صغيري!... - ينادي بألفاظ تحبب يُخرجها من أعمق أعماقه.

فيما مضى، في ذروة السعادة والسلام، كان هذا الأب قد عانى هلوسة تخيل ابنه متدحرجا وجبهته مفتوحة برصاصة الكروم والنيكل. والآن، في كل ركن مظلم من الغابة يرى وميض أسلاك؛ ويرى عند أصل عمود سياج، مع البندقية الفارغة الملقاة جانبا... يرى ابـ...

- صغيري...! بني...!

القوى التي تسمح باستسلام أب مسكين مهلوس لأشد الكوابيس فظاعة، تكون لها نهاية أيضا. ورجلنا يشعر بأن قواه تفلت منه، حين يرى ابنه وهو ينفذ فجأة من درب جانبي.

يكفي لصبي في الثالثة عشرة أن يرى عن بعد خمسين مترا ملامح أبيه الذي يمضي في الغابة من دون منجل ماتشيتي، لكي يسرع الخطى بعينين مغرورقتين بالدموع.

- صغيري... - يدمدم الرجل، وينهار، مستنفدا، ليقعد على الرمل الموحل، محتضنا بذراعيه ساقي ابنه.

ويبقى الصبي، المطوق بتلك الطريقة، واقفا؛ ولأنه يدرك ألم أبيه، فإنه يداعب رأسه برفق.

- مسكين يا أبت...

وأخيرا، لقد انقضى الوقت. وها قد بلغت الساعة الثالثة. فينطلقان معا، الأب والابن، عائدين إلى البيت.

- كيف لم تنتبه إلى الشمس لكي تعرف الوقت...؟ - تمتم الأول.

- بل انتبهت إليها يا أبي... ولكنني حين أردت الرجوع رأيت بلشونات خوان وتبعتها...

- يا للرعب الذي جعلتني أمر به يا صغيري...!

- بابا الحبيب... - غمغم الصبي أيضا.

وبعد صمت طويل:

- وهل اصطدت البلشونات؟ - سأل الأب.

- لا...

إنه مجرد تفصيل تافه في نهاية المطاف. تحت السماء والهواء المتوهج، مكشوفا في الأرض العشبية، يرجع الرجل إلى البيت مع ابنه، وعلى كتفي الابن، اللذين بعلو كتفيه، يضع ذراعه الأبوية السعيدة. يرجع مبللا بالعرق، وعلى الرغم من انكسار الجسد والروح، فإنه يبتسم بسعادة...

يبتسم بسعادة هلوسة... فهذا الأب يمضي وحيدا. لأنه لم يجد أحدا، وذراعه تستند إلى الفراغ. فوراءه، عند أصل عمود سياج، يرقد ابنه المحبوب بساقين مرفوعتين إلى أعلى، متشابكتين بالسلك الشائك، ميتا منذ الساعة العاشرة صباحا.

الدجاجة المذبوحة

La gallina degollada

طوال النهار، كان أبناء الزوجين مازيني وفيراز الأربعة البلهاء يجلسون على مقعد في الفناء، ألسنتهم تتدلى من بين شفاههم، وعيونهم متبلدة، يديرون رؤوسهم وأفواههم مفتوحة على اتساعها.

كان الفناء ترابيا، مغلقا من الجهة الغربية بسور من الآجر. وكان المقعد موازيا للسور، يبعد عنه خمسة أمتار، وعليه كانوا يجلسون متيبسين وعيونهم مثبتة على آجر السور. وما أن تختفي الشمس عند غروبها وراء الرابية حتى يشيع بين البلهاء الأربعة جو احتفالي. فالضوء المبهر يجذب انتباههم في أول الأمر، وتتنعش عيونهم شيئا فشيئا، ثم ينفجرون أخيرا في ضحك صاخب، محتقنين دائما بالقهقهة الشرهة نفسها، ومتطلعين إلى الشمس بسعادة بهيمية، كأنها طعام سيأكلونه.

وفي أحيان أخرى، بينما هم يصطفون على المقعد، كانوا يصدرون أزيزًا متواصلا لساعات، مقلدين صوت الترام الكهربائي. فقد كان الضجيج القوي يخرجهم كذلك من جمودهم، فيركضون عندئذ حول الفناء وهم يعضون ألسنتهم ويجأرون. ولكنهم كانوا يبقون ساكنين خامدين في معظم الأحيان، وغارقين في سبات بلاهة قاتم. يقضون النهار كله جالسين على مقعدهم وأرجلهم مدلاة وساكنة، مبللين سراويلهم بلعاب لزج.

كان عمر أكبرهم اثنتي عشرة سنة، وأصغرهم ثماني سنوات. وكان كل ما في مظهرهم القذر والبائس يشير إلى الغياب المطلق لأدنى اهتمام أمومي.

لكن هؤلاء البلهاء الأربعة كانوا، على رغم ذلك، فتنة أبويهم في يوم من الأيام. فبعد ثلاثة شهور من زواج مازيني وبيرتا، كرس الزوجان كل حبهما الحميم كزوج وزوجة، وزوجة وزوج، من أجل هدف شديد الحيوية: إنجاب ابن. وأي سعادة لعاشقين أكبر من هذا التجسيد المشرّف للعاطفة المجردة من دناءة وأنانية الحب الذي بلا هدف، أو مما هو أسوأ من ذلك للحب نفسه، أي غياب الأمل بالتجدد ومواصلة النسل؟

هذا ما أحس به مازيني وبيرتا. وعندما جاء الوليد، بعد أربعة عشر شهرا من الزفاف، ظنا أن سعادتهما قد اكتملت. ونما الطفل جميلا ومشرقا إلى أن بلغ عمره سنة ونصف السنة. وفي إحدى ليالي الشهر العشرين من عمره، انتابته اختلاجات فظيعة، وفي صباح اليوم التالي لم يعد بإمكانه التعرف على أبويه. فحصه الطبيب باهتمام مهني، وكان واضحا أنه يبحث عن سبب الداء في أمراض الأبوين الوراثية.

بعد بضعة أيام استعادت أعضاء الطفل المشلولة حركتها، أما الذكاء والروح، وحتى الغريزة، فقد مضت كلها إلى غير رجعة. وصار أبله تماما، متخلفا، مترهلا، وميتا إلى الأبد فوق ركبتي أمه.

كانت الأم تنتحب بحرقة فوق حطام ابنها البكر المرعب:

- ابني، ابني الحبيب!

أما الأب المحزون، فرافق الطبيب إلى الخارج.

– يمكنني أن أبوح لك بحقيقة الأمر: أظن أنه حالة ميؤوس منها. قد يتحسن، ويكون بالإمكان تربيته ضمن الحدود التي تتيحها بلاهته، ولكن ليس أكثر من ذلك.

فقال مازيني بخضوع:

– أجل!... أجل!... ولكن قل لي: هل تظن الأمر وراثيا، وأنه...؟

– فيما يتعلق بالوراثة الأبوية، أطلعتك على رأيي عندما رأيت ابنك. أما بالنسبة إلى الأم، فلديها رئة لا تعمل جيدا. لست أرى شيئا آخر، ولكن هناك زفير فيه شيء من الحشرجة، حاول أن تجري لها فحوصا دقيقة.

وبروح حطمها وخز الضمير، ضاعف مازيني من حبه لابنه، ذلك الأبله الصغير الذي يدفع ثمن شطط جده. وكان عليه أن يواسي زوجته بيرتا كذلك، وأن يقدم لها دعما متواصلا، وقد جرحت في أعمق أعماقها بسبب ذلك الإخفاق في أمومتها الفتية.

ومثلما هو طبيعي في مثل هذه الحالة، وضع الزوجان كل حبهما في الأمل بإنجاب طفل آخر. وقد ولد هذا الطفل، فجاءت صحته الجيدة وضحكته الصافية لتؤجج من جديد آمالهما الخامدة. ولكن الاختلاجات التي أصابت الابن البكر تكررت، بعد ثمانية عشر شهرًا، وفي اليوم التالي طلع النهار على الابن الثاني وقد أصيب بالبله أيضا.

سقط الأبوان هذه المرة في هوة عميقة من اليأس. أيكون دمهما وحبهما ملعونين! وخصوصا حبهما! سنوات عمره الثماني والعشرون، وسنوات عمرها الاثنتان والعشرون وكل ما لديهما من العواطف الرقيقة ليست كافية لخلق بذرة حياة طبيعية. ما عادا

يطلبان أقصى ما يمكن من الجمال أو الذكاء، مثلما كانا يرغبان قبل إنجاب الابن البكر، إنهما يريدان ابنا وحسب، ابنا مثل كل الناس الآخرين!

ومن النكبة الجديدة انبثقت ومضات جديدة من الحب المعذب، وشوق مجنون لافتداء قداسة رقتهما مرة وإلى الأبد. فأنجبا توأمًا، وتكرر ما حدث مع ابنيهما الأكبرين خطوة خطوة.

وعلى الرغم من المرارة الهائلة، بقي لدى مازيني وبيرتا إحساس كبير بالشفقة على أبنائهما الأربعة. وكان لابد لهما من أن ينتزعا من أعمق أعماق البهيمية، ليس أرواح أبنائهما، وإنما غريزتهم المعطلة نفسها. فقد كان الأبناء عاجزين عن الابتلاع، وعن التنقل، وحتى عن مجرد الجلوس. وأخيرا، تعلموا المشي، ولكنهم كانوا يصطدمون بكل شيء، لأنهم لا ينتبهون إلى العوائق. وعندما كان الأبوان يحممانهم، كانوا يجأرون حتى تحتقن وجوههم بالدم. وكانوا لا ينتعشون إلا عند الأكل أو رؤية ألوان لامعة أو سماع دوي صاخب. عندئذ يضحكون ببهيمية، تاركين ألسنتهم تتدلى خارجًا ومعها أنهار من اللعاب، مشرقين بهياج بهيمي. ولكنهم كانوا يتمتعون في المقابل بقدرة على التقليد، ولم يكن بالإمكان الوصول بهم إلى ما هو أكثر من ذلك.

بعد ولادة التوأم بدا كأن الوالدين قد اقتنعا بوجوب وضع حد لهذا النسل المرعب. ولكن ثلاث سنوات مضت، وأحس مازيني وبيرتا برغبة حارقة في إنجاب ابن آخر، موقنين من أن الزمن الطويل الذي انقضى قد أخمد قدرهما الفاجع.

لم يحققا آمالهما. وفي دوامة أشواقهما المتأججة التي يستفزها إحساسهما بعدم نفعهما، سيطر عليهما السخط والفظاظة. كان كل منهما حتى ذلك الوقت يحمل على كاهله الجزء الذي يخصه من بؤس أبنائهما؛ ولكن اليأس من الخلاص حيال المسوخ الأربعة التي أنجباها، دفعت خارجا تلك الحاجة الملحة لإلقاء اللوم على الآخرين، وهي تراث خاص بالقلوب التافهة.

بدأا باستبدال الضمائر في أحاديثهما: «أبناؤك». ولأن الدسيسة في هذه الكلمة كانت أكبر من الشتيمة، فقد أصبح الجو أكثر توترا.

في إحدى الليالي قال مازيني لزوجته بعد أن دخل وأخذ يغسل يديه:

- أظن أنه يمكنك الحفاظ بصورة أفضل على نظافة الأولاد.

فواصلت بيرتا القراءة كأنها لم تسمعه. ثم ردت عليه بعد لحظة:

- إنها المرة الأولى التي أراك فيها مهتما بحالة أبنائك.

فالتفت مازيني بوجهه قليلا نحوها، وقال بابتسامة مغتصبة:

- أنت تعنين أبناءنا، أظن...

فرفعت عينيها وقالت:

- حسن، أبناؤنا. أهذا هو ما يروقك؟

عندئذ قال مازيني بوضوح:

- لا أظنك تريدين القول إنني المسؤول، أليس كذلك؟

فابتسمت بيرتا ابتسامة شديدة الشحوب:

- آه، لا! ولا أعتقد أنني المسؤولة أيضًا... - ثم دمدمت بخفوت: هذا ما كان ينقصني...!

- هذا ما كان ينقصك؟

- إذا كان ثمة مسؤول، فلست أنا بالتأكيد، وأفهم ذلك جيدًا! هذا هو ما أريد قوله لك.

نظر زوجها إليها للحظة وبه رغبة جامحة في شتمها. ثم قال أخيرا وهو يمسح يديه:

- دعينا من هذا الكلام!

- كما تشاء. ولكن إذا كنت تقصد...

- بيرتا!

- كما تشاء!

كان هذا هو الصدام الأول، ثم تلته صدامات أخرى. ولكن روحيهما كانتا تلتقيان في المصالحات الحتمية بنزوع ولهفة زوجين إلى ابن آخر.

وهكذا ولدت لهما ابنة. وعاشا سنتين والغم يسيطر على روحيهما، وهما ينتظران طوال الوقت وقوع نكبة أخرى.

ولكن شيئًا لم يحدث مع ذلك. ووضع الأبوان كل رضاهما في خدمة ابنتهما، فكانت الطفلة تنعم بأقصى حدود الدلال وسوء التربية.

وإذا كانت بيرتا قد واظبت، حتى في الفترة الأخيرة، على العناية بأبنائها؛ فإنها تجاهلتهم بالكامل تقريبًا بعد ولادة بيرتيتا الصغيرة. وكان مجرد تذكرهم يرعبها، وكأنها تتذكر أمرا فظيعا أجبرت على اقترافه. وكان الشيء نفسه يحدث لمازيني، وإن كان بدرجة أقل. ولكن ذلك لم يكن كافيا لبث الطمأنينة في قلبيهما. فأدنى اعتلال يصيب الطفلة يجعلهما، لخوفهما من فقدانها، يقذفان خارجا كل ما في نفسيهما من الضغائن بسبب نسلهما العفن. لقد راكما المرارة

لزمن طويل حتى طفحت الكأس، وصار السم يفيض منها لدى أدنى ملامسة. وكانا قد فقدا الاحترام المتبادل منذ أول استياء سُمّي، وإذا كان ثمة شيء يدفع الإنسان إلى الانغماس في لذة القسوة، فإنما هو مواصلة إذلاله الكامل لشخص آخر بعد أن يكون قد بدأ بذلك. لقد كانا يكبحان نفسيهما من قبل بسبب قصورهما المشترك في التوصل إلى النجاح؛ أما الآن، وبعد أن جاء النجاح، صار كل منهما ينسبه إلى نفسه، ويزداد إحساسه بوصمة عار المسوخ الأربعة الذين أجبره الآخر على إنجابهم.

بهذه المشاعر لم يعد بالإمكان تقديم أدنى قدر من العاطفة إلى الأبناء الأربعة الكبار. فكانت الخادمة تبدل لهم ملابسهم، وتطعمهم، وتدفعهم إلى النوم بجفاء واضح. وكانت لا تكاد تحممهم على الإطلاق. وكانوا يقضون اليوم كله تقريبا وهم يجلسون قبالة السور مستبعدين من أي مداعبة حانية.

وهكذا أكملت بيرتيتا الصغيرة أربع سنوات، وفي هذه الليلة، بسبب الحلويات التي لا يستطيع أبواها حرمانها منها، أصيبت الطفلة بقشعريرة وحمى. فأعاد الخوف من رؤيتها وهي تموت أو تتحول إلى بلهاء، فتح الجرح الأبدي.

منذ ثلاث ساعات لم ينطق مازيني ولا بيرتا بكلمة واحدة، والسبب هو كالعادة، وقع خطوات مازيني القوية.

- رباه! ألا يمكنك المشي بخطوات أبطأ؟ كم من المرات...؟

- حسن، لقد نسيت. كفي! لست أفعل ذلك متعمدًا.

فابتسمت هي بازدراء:

- لا، لست أصدقك كثيرًا!

- وأنا لم أصدقك كثيرا في أي يوم... أيتها المسلولة!

- ماذا! ماذا قلت؟

- لا شيء!

- لا، لقد سمعتك تقول شيئًا! انظر، لا أعرف ما الذي قلته، ولكنني أقسم لك إنني أفضل أي شيء على أن يكون لي أب مثل الذي كان لك!

شحب وجه مازيني، ودمدم وهو يضغط أسنانه:

- أخيرًا! أخيرًا نطقت أيتها الأفعى ما كنت تريدين قوله!

- أجل، أفعى، أجل! ولكن كان لي أبوان سليمان! هل تسمع؟ سليمان! أبي لم يمت بالهذيان الارتعاشي الكحولي! لقد كان بإمكاني إنجاب أبناء أصحاء مثل جميع الناس! هؤلاء أولادك... الأربعة من نسلك!

انفجر مازيني بدوره:

- أيتها الأفعى المسلولة! هذا هو ما قلته، وما أود قوله لك! اسألي الطبيب، اسأليه من المسبب الأكبر في إصابة أبنائك بالسحايا، أهو أبي أم رئتك المتعفنة أيتها الأفعى؟

واصلا الشجار بعنف متزايد، إلى أن أخرستهما فجأة حشرجة صادرة عن الصغيرة بيرتيتا. ففي الواحدة بعد منتصف الليل، كان مغص الطفلة قد تلاشى، ومثلما يحدث لجميع الأزواج الشبان الذين تبادلوا الحب بنشوة ولو لمرة واحدة، أتت المصالحة، وكانت أشد تدفقًا بقدر ما كانت الشتائم أكثر عدوانية.

أشرق صباح يوم رائع، وبينما كانت بيرتا تنهض من الفراش، بصقت دمًا. لا بد أن الانفعال والليلة الفائتة السيئة هما السبب.

احتضنها مازيني طويلا، وبكت هي بيأس، ولكن من دون أن يتجرأ أي منهما على النطق بكلمة واحدة.

في الساعة العاشرة قررا الخروج من البيت بعد تناول الغداء. ولأن الوقت كان قد أدركهما، فقد أمرا الخادمة بأن تذبح دجاجة للغداء.

كان اليوم المشرق قد انتزع أربعة البلهاء من مقعدهم. وبينما كانت الخادمة تذبح الدجاجة في المطبخ وتصفي دمها ببطء (وكانت بيرتا قد تعلمت من أمها هذه الطريقة الجيدة للحفاظ على اللحم طازجا)، أحست بأن هناك شيئًا كالتنفس وراءها. وحين استدارت، رأت أربعة البلهاء يقفون وأكتافهم متلاصقة، مراقبين العملية بذهول. أحمر... أحمر...

- سيدتي! الأطفال هنا في المطبخ.

جاءت بيرتا. لم تكن تحب أن يدخلوا هناك مطلقا. ألا يمكنها حتى في هذه الساعة المترعة بالصفح التام والنسيان والسعادة المستعادة أن تتجنب رؤية هذا المشهد الفظيع! ومثلما هو طبيعي، فقد كان اشمئزازها من المسوخ يزداد كلما اشتد زخم حبها لزوجها وابنتها.

- فليخرجوا يا ماريا! اطرديهم!.. أقول لك اطرديهم!

اتجه البهيميون الأربعة نحو مقاعدهم مضروبين ومدفوعين بفظاظة.

بعد الغداء خرجوا جميعهم. فقد ذهبت الخادمة إلى بوينس آيرس وخرج الزوجان للتنزه بين المزارع. ورجعا عندما مالت الشمس إلى المغيب؛ ولكن بيرتا أرادت أن تسلم للحظة على جارتها التي في البيت المقابل. غير أن ابنتها الصغيرة انطلقت راكضة من فورها إلى البيت.

في أثناء ذلك، لم يكن البلهاء الأربعة قد تحركوا عن مقاعدهم طوال النهار. كانت الشمس قد تجاوزت السور وبدأت تختفي، وكانوا يواصلون التحديق بآجر السور باهتمام أكبر من أي وقت مضى.

وفجأة ظهر شيء ما بين أعينهم والسور. إنها أختهم، المتعبة من خمس ساعات برفقة الأبوين، تريد التأمل بمفردها. وقفت عند أسفل السور وهي تنظر ساهمة إلى أعلاه. لاشك في أنها تريد تسلقه. وأخيرا قررت الاستعانة بكرسي منزوع الأرضية، ولكنها لم تفلح مع ذلك، في الوصول إلى أعلى السور. فاستخدمت عندئذ صفيحة كيروسين فارغة، وقد دفعتها غريزتها الطبوغرافية إلى وضع الصفيحة بصورة عمودية، وهكذا نجحت في مسعاها.

رأى المتخلفون الأربعة، بنظرات غير مبالية، كيف تمكنت أختهم من التحكم في توازنها بصبر، وكيف كانت تقف على أصابع قدميها وتسند ذقنها فوق حافة السور العليا بين يديها المشدودتين. رأوها وهي تتطلع في كل الاتجاهات وتبحث عن نقطة إسناد لقدمها كي ترتفع أكثر.

لكن الحماسة ما لبثت أن دبت في نظرات البلهاء؛ وكان الضوء الملح نفسه راسخًا في عيونهم جميعا. لم يرفعوا نظراتهم عن أختهم بينما كان إحساس متنام من الشراهة يبدل كل خط في وجوههم. تقدموا ببطء من السور. أختهم الصغيرة التي وجدت أخيرا مسندا لقدمها كانت على وشك أن تمتطي السور لتقفز إلى الجهة الأخرى، وقد أحست، بكل تأكيد، بأنها قد أُمسِكَت من إحدى ساقيها. والعيون الثماني المصوبة من أسفل، إلى عينيها بعثت فيها الرعب.

- أفلتني! اتركني! - صرخت بذلك وهي تشد ساقها، ولكنها جذبت بقوة.

- ماما! آه يا ماما! ماما! بابا! - بكت بإلحاح، وحاولت التشبث بحافة السور، ولكنها أحست بأنها تنتزع بقوة، وسقطت على الأرض.

- ماما! آي، ما...! - ولم تستطع أن تصرخ أكثر. فقد ضغط أحّدهم على عنقها، وراح يبعد خصلات الشعر كأنها ريش، وسحبها الآخرون من ساق واحدة إلى المطبخ، حيث جرت في ذلك الصباح تصفية دم الدجاجة، وهي مثبتة جيدا، انتزعت منها الحياة قطرة قطرة.

ظن مازيني، الذي كان في البيت المجاور، أنه سمع صوت ابنته، فقال لبيرتا:

- أظنها تناديك.

أصاخا السمع قلقين، ولكنهما لم يسمعا شيئًا. ومع ذلك، وَدَّعا الجيران بعد لحظة وخرجا، وبينما ذهبت بيرتا لتخلع قبعتها، تقدم مازيني في الفناء مناديًا:

- بيرتيتا!

لم يرد عليه أحد. فرفع صوته متخوفا:

- بيرتيتا!

كان الصمت ثقيلا جدا على قلبه الهلع، حتى أن ظهره تجمد من الهاجس الرهيب.

- ابنتي، ابنتي! - وركض يائسًا إلى أقصى الفناء. ولكنه حين مر أمام المطبخ رأى على الأرض بحرا من الدماء. دفع الباب الموارب بعنف، وأطلق صرخة رعب.

أما بيرتا التي انطلقت تركض بدورها حين سمعت نداءات الأب المغمومة، فقد سمعت الصرخة وردت عليها بصرخة أخرى. ولكنها حين هرعت نحو المطبخ، اعترضها مازيني بوجه شاحب كأنه الموت وأوقفها:

- لا تدخلي! لا تدخلي!

وتمكنت بيرتا من رؤية الأرض المغطاة بالدم. واستطاعت فقط أن ترفع ذراعيها إلى رأسها، وتتهاوى على الأرض مطلقة حسرة مبحوحة.

خورخي لويس بورخيس

Jorge Luis Borges

(الأرجنتين)

● ولد خورخي لويس بورخيس في بوينس آيرس عام ١٨٩٩م.

● بعثه أبوه - الطبيب الموسر - للدراسة في سويسرا منذ صباه. وفي عام ١٩١٩ انتقل مع أسرته إلى إسبانيا، حيث شارك في النشاطات الأدبية في العاصمة الإسبانية. ولدى عودته إلى الأرجنتين، أسس مجلة «بروا آي بريسما»، ونشر كتاب أشعاره الأول. وكان أحد منشطي جماعة «مارتين فييرو» الأدبية.

● ترسخت مكانته الأدبية كأبرز موهبة شعرية عرفتها الأرجنتين بعد صدور ديوانيه «قمر من أمام» و«دفتر سان مارتين» عام ١٩٢٩.

● مع صدور كتابه «التاريخ الكوني للعار» عام ١٩٣٥، بدأ مرحلة جديدة من الإبداع تمخضت عن قصص قصيرة باهرة، منها «تخيلات» (١٩٤٤) و«إل ألف» (١٩٤٩).

● في عام ١٩٥٥، وهو العام الذي فقد فيه البصر نهائيا، بدأ مرحلة أخرى ثالثة تمثلت في عودته من جديد إلى السونيتات. ويبرز في هذه المرحلة كتاب «الآخر» (١٩٦٤). ثم اتخذت كتابته بعد ذلك أسلوبا أكثر بساطة، كما في كتاب «الرمل» (١٩٧٥).

● يعالج في قصصه قضايا فلسفية وفكرية، وقد يستخدم لذلك شخصيات تاريخية أو خيالية وخرافية للوصول إلى الأفكار التي يريد، فضلا عن قدراته اللغوية الباهرة.

● من أبرز أعماله:

في الشعر:

«حماسة بوينس آيرس» (١٩٢٣)، «قمر من أمام» (١٩٢٦)، «دفتر سان مارتين» (١٩٢٩)، «مديح الظل» (١٩٦٩)، «ذهب النمور» (١٩٧٢)، «الوردة العميقة» (١٩٧٥)، «العملة المعدنية» (١٩٧٥).

في القصة:

«التاريخ الكوني للعار» (١٩٣٥)، «تخيلات» (١٩٤٤)، «إل ألف» (١٩٤٩)، «تقرير برودي» (١٩٧٠)، «كتاب الرمل» (١٩٧٥)، «الخالق» (شعر ونثر ١٩٦٠)، «تاريخ الخلود» (دراسة ١٩٣٦)، «مارتين فييرو» (دراسة ١٩٥٣)، «المرجع في حديقة الحيوان الخرافية» (دراسة ١٩٥٧)، «عالم الكائنات المتخيلة» (دراسة ١٩٦٧)، «بورخيس الشفوي» (محاضرات ١٩٨٠)، «سبع ليال» (محاضرات ١٩٨٠).

بحث ابن رشد

La busca de Averroés

وكان يتصور أن التراجيديا ليست سوى فن المديح...

إرنست رينان، «ابن رشد»، ٤٨ (١٨٦١)

أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد (وسيحتاج هذا الاسم الطويل إلى قرن من الزمان، يتحول خلاله إلى «بن راست»Benraist و«آفين ريز» Avenryz، وكذلك «آبين راساد» Aben-Rassad و«فيليوس روساديس» Filius Rosadis، قبل أن يصير «آفيروس» Averroés، كان يحرر الفصل الحادي عشر من مؤلفه «تهافت التهافت» الذي يؤكد فيه، ردا على الزاهد الفارسي «الغزالي» صاحب كتاب «تهافت الفلاسفة»، أن الذات الإلهية إنما تعلم قوانين الكون العامة، المتصلة بالأنواع لا بالفرد. كان يكتب بتمهل مطمئن، من اليمين إلى اليسار. ولم يكن انهماكه في صياغة الحدود المنطقية والربط بين الفقرات الطويلة ليمنعه من الشعور، كحالة من الرخاء، بالمنزل البارد والعميق الذي يحتضنه. ففي أعماق القيلولة تهدل حمائم متيمة، ومن بهو غير مرئي يعلو خرير ماء نافورة؛ وكان شيء ما في لحم ابن رشد، الذي يتحدر أسلافه من الصحارى العربية، يمتن لاستمرار تدفق الماء. وفي الأسفل، كانت الحدائق... البستان؛ وإلى أسفل، نهر الوادي الكبير المنهمك، وبعد ذلك مدينة قرطبة العزيزة، التي لا تقل ألقا عن بغداد أو القاهرة، مثل آلة معقدة ودقيقة. وحولها (وهذا ما كان يشعر به ابن رشد أيضا) تترامى حتى الأقاصي أرض إسبانيا التي ليس فيها إلا أشياء قليلة، ولكن كل شيء منها يبدو مستقرا وأبديا.

كان القلم يجري على الورقة، والبراهين تترابط، غير قابلة للدحض، غير أن قلقا خفيفا شاب سعادة ابن رشد. لم يكن «التهافت»، هو السبب، لأنه عمل عابر، وإنما هناك مشكلة من النوع اللغوي تواجهه في المؤلف العظيم الذي سيرسخ مكانته بين الناس: إنه شرحه لأرسطو. فهذا اليوناني، ينبوع كل فلسفة، إنما منح للناس كي يعلمهم كل ما يمكن أن يعرف؛ وشرح كتبه وتفسيرها، مثلما يشرح العلماء القرآن، هو الهدف الشاق الذي يسعى إليه ابن رشد. وقليلة هي الأشياء المؤثرة التي سيسجلها التاريخ وتبلغ مبلغ انكباب طبيب عربي على أفكار رجل يفصله عنه أربعة عشر قرنا؛ ولا بد لنا من أن نضيف إلى الصعوبات الكنهية أن ابن رشد، الذي لا يعرف اللغة السريانية أو اليونانية، كان يستعين في عمله بترجمة عن ترجمة. وكانت قد استوقفته في اليوم السابق كلمتان غامضتان في بداية كتاب «فن الشعر». وهاتان الكلمتان هما: تراجيديا وكوميديا. لقد وجدهما قبل سنوات من ذلك، في الكتاب الثالث من «الخطابة»؛ ولم يستطع أن يخمن معناهما أحد في ديار الإسلام. وقد راجع حتى الإنهاك، من دون جدوى، صفحات أليخاندرو دي أفروديسيا، ومن دون جدوى كذلك، قارن بين ترجمتي النسطوري حنين بن اسحق وأبو بشر متى. وهاتان الكلمتان اللغزان تردان بكثرة في متن «فن الشعر» بحيث صار من المستحيل تجنبهما.

وضع ابن رشد الريشة. وقال لنفسه (دون كثير من الثقة) إن ما نبحث عنه يكون قريبا منا عادة، وخبأ مخطوط «التهافت» واتجه إلى خزانة الكتب حيث تصطف عدة مجلدات من كتاب «المحكم»

لابن سيده الضرير، نسخها نساخون فُرس. وكان من السخرية الظن بأنه لم يبحث فيها من قبل، ولكن متعة الاسترخاء دفعته إلى تقليب صفحاتها من جديد. وصرفه عن هذه التسلية الدرسية نوع من الترنم. فأطل من الشرفة المشبكة، وكان هناك في الأسفل، في الفناء الترابي الضيق، بضعة صبيان يلعبون ويقولون كلاما لا يعرفون معناه.

كان أحدهم يقف منتصبا فوق كتفي آخر، ويبدو واضحا أنه يحاكي المؤذن؛ فهو يطبق عينيه بإحكام مرتلا: «لا إله إلا الله». بينما يقف الذي يحمله من دون حراك ممثلا المئذنة. وكان صبي آخر يجثو بتذلل على التراب. لم يستمر لعبهم إلا قليلا، لأن كل واحد منهم يريد أن يكون المتحدث. سمعهم ابن رشد يتجادلون بلهجة سوقية، يمكن القول إنها الإسبانية الأولية للمسلمين العوام في شبه الجزيرة. فتح «كتاب العين» للخليل، وفكر مزهوا بأنه لا يوجد في قرطبة كلها (وربما الأندلس كلها) نسخة أخرى من هذا المؤلف العظيم غير هذه النسخة التي أرسلها إليه الأمير يعقوب المنصور من طنجة. وذكره اسم هذا الميناء بأن الرحالة أبا القاسم الأشعري، العائد من بلاد مراكش، سيتناول العشاء معه هذه الليلة في منزل شيخ العلوم القرآنية المدعو فرج. وأبو القاسم يقول إنه قد وصل إلى ممالك إمبراطورية الصين؛ لكن خصومه الساعين للحط من قدره، بذلك المنطق المتميز الذي يولده الحقد، يقسمون بأنه لم يطأ أرض الصين قط، وأنهم في معابد تلك البلاد يعبدون آلهتهم. ولا مفر من استمرار اللقاء عدة ساعات؛ ولهذا سارع ابن رشد إلى العودة للكتابة في «التهافت». وواصل العمل حتى انتشار غسق الغروب.

وفي منزل فرج، انتقل الحوار من الحديث عن فضائل الحاكم الفريدة، إلى الحديث عن فضائل أخيه الأمير؛ ثم تحدثوا بعد ذلك، وهم في الحديقة، عن الورود. وأقسم أبو القاسم، الذي لم ينظر إليها، بأنه لا وجود لورود مثل الورود التي تزين جنائن البيوت الأندلسية. ولم يستسلم فرج للإغواء؛ ولاحظ أن العلامة ابن قتيبة يصف نوعا بديعا من الورود دائمة التفتح تنمو في حدائق هندستان، تظهر على بتلاتها الحمراء القانية، حروف تقول: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». وأضاف أن أبا القاسم يعرف، بكل تأكيد، تلك الورود. نظر إليه أبو القاسم بذعر. فإن هو أجاب بنعم، سيحكم عليه الجميع، وبحق، بأنه أشد المنافقين استعدادا وبعدا عن المألوف في النفاق؛ وإن أجاب بلا، اتهموه بالكفر. فاختار أن يغمغم ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾. ولأن هذه الكلمات من إحدى آيات السور، فقد قوبلت بتمتمة إجلال وتبجيل. امتلأ أبو القاسم زهوا بهذا النصر الجدلي، وكان على وشك أن يقول إن الله هو الكمال ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾، لكن ابن رشد قال عندئذ، مستبقا بزمن طويل حجج شخص سيدعى (هيوم) كان وجوده لا يزال مشكوكا فيه آنذاك:

– إن صعوبة تقبل أن يكون العالم الفقيه ابن قتيبة أو النساخ، قد أخطأ، هي أهون عندي من تقبل أن تطرح الأرض ورودا تجاهر بإيمانها.

- صدقت. وإنها لكلمات عظيمة ومحقة - قال أبو القاسم:
وتذكر الشاعر عبد الملك:
- يتحدث أحد الرحالة عن شجرة تثمر طيورا خضراء. وأراني أجد قدرا أقل من المشقة في تصديق ذلك من التصديق بوجود ورود عليها كتابة وحروف.
فقال ابن رشد:
- إن لون الطيور يسهل كما يبدو تصديق المعجزة. أضف إلى ذلك أن الثمار والطيور تنتمي إلى العالم الطبيعي، بينما الكتابة صنعة. فتحول الأوراق إلى طيور أسهل من تحول الزهور إلى حروف.
أنكر ضيف آخر، بسخط، أن تكون الكتابة صنعة، ما دام القرآن - أم الكتاب - سابقا على الخلق ومحفوظا في السماء. وتحدث آخر عن الجاحظ البصري الذي قال إن القرآن جوهر يمكن أن يتخذ صورة إنسان أو حيوان، وهو رأي يبدو متفقا مع رأي من ينسبون إليه وجهين. ثم عرض فرج بإسهاب المذهب الحنيف. فالقرآن هو إحدى صفات الله، مثلما هي رحمته، ينسخ في كتاب، ويلفظ باللسان، ويذكر بالقلب؛ أما اللغة والرموز والكتابة فهي من عمل البشر، لكن القرآن قطعي وخالد. وكان بإمكان ابن رشد، الذي شرح كتاب «الجمهورية» أن يقول إن أم الكتاب هو شيء من قبيل نموذجه الأفلاطوني، ولكنه انتبه إلى أن اللاهوت كان على الدوام موضوعا بعيدا عن مدارك أبي القاسم.
وانتبه آخرون إلى ذلك أيضا، فألحوا على أبي القاسم أن يروي لهم إحدى العجائب. لقد كان العالم آنذاك، مثلما هو الآن، مريعا. يمكن للجسورين أن يجوبوه، إنما يمكن أن يفعل ذلك أيضا البؤساء،

الذين يتكيفون مع أي شيء. وكانت ذاكرة أبي القاسم مرآة لحالات جُبن حميمة، فماذا يستطيع أن يروي لهم؟ وهم يطلبون منه فوق ذلك أعجوبة، والأعاجيب قد تكون غير ممكنة النقل؛ فقمر البنغال لا يشبه قمر اليمن، ولكن يمكن وصفه بالألفاظ نفسها. تردد أبو القاسم، ثم تكلم أخيرا:

- إن من يتجول في المناخات والمدن - أعلن بمداهنة - يرى أمورا كثيرة جديرة بأن تصدق. وهذه القصة، التي يمكن القول إنني قد رويتها مرة لملك الترك، وقعت في صين كالان (كانتون)، حيث يصب نهر ماء الحياة في البحر.

وسأله فرج عما إذا كانت المدينة على بُعد فراسخ كثيرة من السور الذي رفعه الإسكندر ذو القرنين (الإسكندر المقدوني) لصدّ يأجوج ومأجوج.

- صحارى تفصل المدينة عنه - قال أبو القاسم بغطرسة غير متعمدة - فالقافلة تحتاج أربعين يوما لكي تلمح أبراجه، ومثلها من الأيام، كما يقال، لبلوغه. ولم أعرف في صين كالان إنسانا رأى ذلك السور أو رأى من رآه.

انتاب ابن رشد، للحظة، الخوف من اللامتناهي التام، من المكان المحض، والمادة المحضة. نظر إلى الحديقة المتناظرة هندسيا؛ وأدرك أنه قد شاخ، وصار من دون نفع، ووهميا. وكان أبو القاسم يقول:

- ذات مساء، أخذني تجار صين كالان المسلمون إلى دار مشيدة من خشب مزين برسوم، يعيش فيها أناس كثيرون. لا يمكنني أن أحكي لكم كيف كانت تلك الدار، فهي أقرب إلى أن تكون حجرة واحدة، فيها صفوف من رفوف متدرجة أو شرفات بعضها فوق

بعض. وفـي تلك المقصورات هناك أناس يأكلون ويشـربون؛ ومـثلهم على الأرض، وكـذلك على منصـة. وكـان من هم على تلك المنصـة يقرعون الطبل ويعزفون العود، عدا خمسة عشر أو عشرين منهم (بأقنعة قرمزية اللون) يصلون، ويغنون، ويتحـاورون. يعانون الحبس، وليس هناك من يرى سـجنا؛ ويمتطون الخـيل من دون أن يلمح الحصان؛ ويقاتلون، إلا أن السيوف من قصب؛ ويموتون ثم ينهضون بعد ذلك واقفين.

فقال فرج:

- أفعال الحمقى تتجاوز توقعات الإنسان العاقل.

وكان على أبي القاسم أن يوضح:

- لم يكونوا حمقى، بل كانوا يُشخّصون قصة، كما قال لي أحد التجار.

لم يفهم أحد ما قاله، ولم يبد أن أحدا يريد أن يفهم. فانتقل أبو القاسم، مرتبكا، من الحكاية المسموعة إلى الحجج المزدراة. فقال مستعينا باليدين:

- فلنتخيل أن هناك من يعرض قصة بدل أن يحكيها. ولتكن هذه القصة هي قصة أهل الكهف في أفسوس. إننا نراهم ينسلون إلى الكهف، نراهم يصلون وينامون، نراهم ينامون بعيون مشرعة، نراهم يكبرون وهم نائمون، نراهم يستيقظون في الجنة، نراهم يستيقظون مع كلبهم. شيء من هذا القبيل عرضه علينا أناس المنصة في ذلك المساء.

وسأله فرج:

- وهل كان أولئك الأشخاص يتكلمون؟

- كانوا يتكلمون بالطبع - قال أبو القاسم، وقد تحول إلى مدافع عن عرض يكاد لا يتذكره، وكان قد أزعجه في حينه - إنهم يتكلمون، ويغنون، ويتبادلون الخطب.

قال فرج:

- الأمر لا يتطلب في هذه الحال، عشرين شخصا. يمكن لمتحدث واحد أن يروي أي شيء، مهما بلغ من التعقيد.

أيد الجميع هذا الرأي. وأثنوا على محاسن اللغة العربية، التي يخاطب الله بها الملائكة؛ وبعد ذلك على محاسن شعر العرب. وبعد أن أشاد عبد الملك بهذا الشعر بما هو أهل له، وصف الشعراء الذين يتمسكون، سواء في دمشق أو في قرطبة، بالصور الرعوية، والمفردات البدوية، بأنهم قدماء عفى عليهم الزمن. وقال إنه من السخف أن يتغنى رجل بماء بئر بينما نهر الوادي الكبير يمتد أمام ناظريه. وألح على وجوب تجديد الصور المجازية القديمة؛ وقال إنه عندما شبه زهير القدر بناقة عمياء تضرب خبط عشواء، فتنت هذه الصورة الناس، ولكن خمسة قرون من الإعجاب استنفدتها. وأيد الجميع هذا الرأي، الذي سمعوه مرات عديدة من قبل، ومن أفواه كثيرة. كان ابن رشد صامتا. وفي النهاية تحدث، وكان حديثه إلى نفسه أكثر مما هو إلى الآخرين.

- لقد دافعتُ ذات مرة - قال ابن رشد - بقدر أقل من البلاغة، ولكن بحجج مجانسة، عن القضية التي يدافع عنها الآن عبد الملك. لقد قيل في الإسكندرية إن الوحيد غير القادر على ارتكاب الخطأ هو من ارتكب الخطأ وندم عليه؛ ونضيف نحن، أن الخلاص من الخطأ يتطلب الاعتراف به. وزهير يقول في معلقته إنه خلال

ثمانين حولا من المعاناة والمجد، رأى القدر في أحيان كثيرة يخبط البشر، مثل ناقة عمياء؛ ويرى عبد الملك أن هذه الصورة لم تعد تدهش أحدا. وهذا التحفظ يتسع لردود كثيرة. أولها، أنه إذا كان الهدف من القصيدة هو الإدهاش، فإن زمنها لا يقاس بالقرون وإنما بالأيام والساعات، وربما بالدقائق. والرد الثاني هو أن الشاعر المشهور يكون مبتكرا أقل مما هو مكتشف. ومن أجل امتداح ابن شرف البرجي[1]، قيل مرارا وتكرارا إنه الوحيد الذي استطاع أن يتخيل النجوم في الفجر تتساقط ببطء مثل أوراق الشجر؛ وإذا كان ذلك صحيحا، فإنه يكشف أن الصورة مبتذلة. فالصورة التي يمكن لإنسان وحيد أن يشكلها هي تلك التي لا تؤثر في أحد. هناك أشياء لا حصر لها على الأرض؛ ويمكن لأي منها أن يشبه بأي شيء آخر. فتشبيه النجوم بأوراق الشجر لا يقل اعتباطية عن تشبيهها بأسماك أو طيور. ولكن ليس هناك في المقابل من لم يشعر يوما بأن القدر قوي وأهوج، وأنه بريء، ولكنه غير إنساني كذلك. من أجل هذه القناعة التي يمكن أن تكون عابرة أو متواصلة، إنما لا يمكن لأحد أن يتجنبها، كُتب بيت زهير. ولن يقال ما قيل هناك بأفضل مما قاله. أضف إلى ذلك (وربما كان هذا هو جوهر تأملاتي) أن الزمن، الذي يعري القصور، هو الذي يُثري الأشعار. لقد أفاد بيت زهير، عندما نظمه في جزيرة العرب، في مقارنة صورتين: صورة الناقة العجوز وصورة القدر؛ ويفيد ترديده الآن في حفظ ذكرى زهير والخلط بين همومنا وهموم ذلك العربي الميت. لقد كان للصورة البلاغية حدان، فصار لها اليوم أربعة حدود.

---

(١) البرجي، نسبة إلى بَرجَة Berja مدينة في الأندلس، من أعمال إلبيرة.

فالزمن يوسع نطاق الأشعار، وأنا أعرف أن بعضها، جنبا إلى جنب مع الموسيقى، هو كل شيء في نظر الناس كافة. وهكذا، حين كنت أتعذب، قبل سنوات، في مراكش، وأنا أتذكر قرطبة، كنت أشعر بالرضى في ترديد بيت الشعر الذي توجه به عبد الرحمن إلى نخلة أفريقية، وهو في بساتين الرصافة:

«أنت أيضا أيتها النخلة، غريبة مثلي في هذه الأرض»[٢].

إنه انتفاع فريد بالشعر؛ فكلمات قالها ملك يحن إلى الشرق، تنفعني أنا، المبعد في أفريقية، للتعبير عن حنيني إلى الأندلس.

ثم تحدث ابن رشد بعد ذلك عن الشعراء الأوائل، عن أولئك الذين قالوا، في عصر الجاهلية، السابق على الإسلام، كل شيء باللغة غير المتناهية للصحارى. ولأنه انزعج، وهو محق، من ترهات ابن شرف، فقد قال إن الشعر كله قد اختُصر في القدماء وفي القرآن. واتهم كل تطلع إلى التجديد بالأمية وعدم الجدوى. واستمع إليه الآخرون بسرور، لأنه ينتصر للقديم.

كان المؤذنون ينادون لصلاة الفجر عندما عاد ابن رشد للدخول إلى مكتبته (وكانت الجاريات ذوات الشعر الأسود، في جناح الحريم، قد عاقبن جارية ذات شعر أحمر، ولكنه لم يعلم بذلك إلا في المساء). لقد كشف له شيء ما معنى الكلمتين الغامضتين، فأضاف، بخط ثابت ودقيق، هذه الأسطر إلى المخطوط: يطلق أرسطو تسمية

---

(٢) هذا البيت هو الثالث من أبيات لعبد الرحمن الداخل التي يقول فيها:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت: شبيهي في التغرب والنوى ... وطول ابتعادي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن في المنتأى الذي ... يسح ويستمري السماكين بالوبل

تراجيديا على المدائح، وكوميديا على الأهاجي وكشف المثالب. وهناك وفرة وفيرة من التراجيديات والكوميديات العظيمة، تزخر بها صفحات القرآن الكريم والمعلقات على جدار الكعبة.

أحس بالنعاس، وأحس بقليل من البرودة. وبعد أن نزع العمامة، نظر إلى نفسه في مرآة معدنية. ولست أدري ما الذي رأته عيناه، لأن أحدا من المؤرخين لم يصف لنا ملامح وجهه. إنني أعرف أنه اختفى فجأة، كما لو أن نارا من دون ضوء قد صعقته، واختفت معه الدار والنافورة غير المرئية والكتب والمخطوطات والحمائم والجواري الكثيرات ذوات الشعر الأسود والجارية المرتعدة ذات الشعر الأحمر وفرج وأبو القاسم والورود وربما نهر الوادي الكبير.

● ● ●

أردت في القصة السابقة أن أروي سيرورة هزيمة. وقد فكرت أولا في أسقف كانتربري، ذاك الذي عزم على البرهنة على وجود الإله؛ ثم فكرت بعد ذلك في الكيميائيين الذين بحثوا عن حجر الفلاسفة؛ ثم في بطلان القطاعات الثلاثية للزاوية، وفي مقومي الدائرة. وفكرت، بعد ذلك، في أن الحالة الأكثر شاعرية هي حالة رجل يروم هدفا غير محظور على الآخرين، ولكنه محظور عليه. فتذكرت ابن رشد الذي لم يستطع قط، أن يدرك معنى كلمتي تراجيديا وكوميديا. رويت الحالة، وكلما تقدمت كنت أشعر بما لا بد أن يكون قد شعر به ذلك الإله الأسطوري الذي أتى على ذكره «بورتن»، والذي نوى أن يخلق ثورا وإذا به يخلق جاموسا، حسب ما جاء في الأسطورة. شعرت بأن العمل يسخر مني، وأن ابن رشد، إذ أراد أن يتخيل ما الدراما من دون أن تكون لديه أي فكرة عن

المسرح، لم يكن أكثر عبثية مني، عندما أردت أن أتخيل ابن رشد من دون أن تتوافر لي أي مادة عنه سوى نتف من «رينان» و«لين» و«آسين بلاثيوس». لقد شعرت، وأنا في الصفحة الأخيرة، بأن قصتي هي رمز للرجل الذي كنته في أثناء كتابتها، وأنه كان عليّ، لكتابة هذه القصة، أن أكون ذلك الرجل، وأنه لكي أكون ذلك الرجل، علي أن أملي هذه القصة، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية. (وفي اللحظة التي أتوقف عن الإيمان به، يختفي «ابن رشد»).

الجنوب

El sur

الرجل الذي نزل من السفينة في بوينس آيرس سنة ١٨٧١ كان يدعى جوهانز داهلمان، وكان قسّا من أتباع الكنيسة الإنجيلية. وفي سنة ١٩٣٩، كان أحد أحفاده، ويدعى خوان داهلمان، أمينا لمكتبة بلدية في شارع قرطبة، وكان يشعر بأنه أرجنتيني حتى الصميم. وقد كان جده لأمه هو ذاك المدعو فرانثيسكو فلوريس، من فرقة المشاة الثانية، الذي مات على تخوم بوينس آيرس مصابا برمح من هنود كاتريل. وفي تنازعه بين هذين النسبين، اختار خوان داهلمان (ربما بدافع من الدماء الجرمانية) نسب هذا السلف الرومانسي، أو ذي الميتة الرومانسية. وقد تكاتف في تدعيم هذه النزعة الأرجنتينية الطوعية إطار فيه صورة «داغريتيب» لرجل ملتح لا تحمل ملامحه أي تعبير، وسيف عتيق، والسعادة والحماسة اللتان تتضح بهما بعض الموسيقى، والاعتياد على مقطعات «مارتن فيرو»، والسنون، والنفور، والوحدة. وبتحمل بعض الحرمان، استطاع داهلمان إنقاذ مزرعة كانت لآل فلوريس في الجنوب، وكانت إحدى عادات ذاكرته استحضار صورة أشجار الكالبتوس البلسمية والبيت الطويل الوردي الذي كان لونه قرمزيا في يوم ما. وكانت انشغالاته، وربما تكاسله كذلك، تحتجزه في المدينة. فكان يقنع، صيفا بعد صيف، بفكرة امتلاكه المجردة للمزرعة، وبيقينه أن بيته ينتظره في مكان محدد من السهل. ولكن حدثا جرى له في الأيام الأخيرة من شهر فبراير لعام ١٩٣٩.

يمكن للقدر، وبغض النظر عن كل الأخطاء، أن يكون قاسيا مع أدنى الهفوات. ففي ذلك المساء، حصل داهلمان على نسخة غير مكتملة من «ألف ليلة وليلة»، بترجمة «وييل»، ولشدة تلهفه على تفحص تلك اللقية، لم ينتظر نزول المصعد، بل صعد الأدراج على عجل؛ فاصطدم شيء بجبهته في الظلمة، أهو خفاش... أهو عصفور؟ ورأى الرعب مرسوما على وجه المرأة التي فتحت له الباب، وخرجت يده التي مرت على جبهته حمراء بلون الدم. إن حافة باب طلي حديثا ونسي أحدهم إغلاقه هي التي سببت له هذا الجرح. تمكن داهلمان من النوم، لكنه استيقظ في الفجر، وصار طعم جميع الأشياء منذ ذلك الحين فظيعا. لقد أضنته الحمى، وجاءت رسوم «ألف ليلة وليلة» لتشكل ديكورا للكوابيس. كان أصدقاؤه وأقرباؤه يزورونه ويكررون له القول، بابتسامة مبالغ فيها، إنهم يجدونه على أحسن حال. وكان داهلمان يستمع إليهم بنوع من الذهول الخفيف، ويدهشه أنهم لا يعلمون أنه في الجحيم. مرت ثمانية أيام كأنها ثمانية قرون. وفي مساء أحد الأيام حضر الطبيب المعهود ومعه طبيب جديد وحملاه إلى مصح في شارع الإكوادور، لأنه لابد من أخذ صورة أشعة له. وفكر داهلمان وهو في سيارة الإسعاف التي نقلته، في أنه سيتمكن، في غرفة ليست غرفته، من النوم أخيرا. أحس بالسعادة والانفتاح؛ وما أن وصل حتى نزعوا عنه ثيابه، وحلقوا شعر رأسه، وثبتوه بأحزمة معدنية على محفة، وأناروه إلى حد الإبهار والدوار، ثم فحصوه بالتسمع، وغرز رجل مكمم إبرة في ذراعه. استيقظ وبه شعور بالغثيان، كان معصوبا بالأضمدة في زنزانة بها شبَه ببئر، وفي الأيام والليالي التي تلت العملية الجراحية

استطاع أن يدرك أنه لم يكد يصل بعد، حتى ذلك الحين، إلا إلى ضاحية من ضواحي الجحيم. لم يكن الثلج يخلف في فمه أدنى أثر من البرودة. وقد كره داهلمان نفسه، بكل دقة، في تلك الأيام؛ كره حاجاته، حاجاته الجسدية، ومذلته، واللحية التي كانت تبرز شائكة في وجهه. عانى بصبر العلاج الذي كان مؤلما جدا، ولكن عندما قال له الجراح إنه كان على وشك الموت تسمم الدم، انفجر داهلمان بالبكاء راثيا لمصيره. فالبؤس الجسدي والتوقع الدائم لليالي السيئة لم يتيحا له أن يفكر في شيء شديد التجريد كالموت. وفي يوم آخر قال له الجراح إنه بدأ يستعيد عافيته، وسيتمكن عما قريب من الذهاب للنقاهة في مزرعته. وما لا يمكن تصديقه هو أن اليوم الموعود قد حل.

لقد كان في الواقع مغرما بالتناظر وبالمفارقات الخفيفة في تسلسل الأحداث؛ فقد وصل داهلمان إلى المصح في سيارة إسعاف وها هي ذي سيارة إسعاف تقله الآن إلى محطة كونستيتوثيون، كانت أول برودة الخريف بعد عسف الصيف، تمثل رمزا من الطبيعة لقدره كناج من الموت والحمى. لم تكن المدينة، في الساعة السادسة صباحًا، قد فقدت بعد جو البيت القديم الذي يبثه الليل فيه؛ فالشوارع أشبه بممرات طويلة، والساحات كأنها أفنية بيوت. وكان داهلمان يتعرف عليها بسعادة وببداية دوار؛ فقد كان يتذكر النواصي، والإعلانات، والاختلافات الطفيفة في بوينس آيرس قبل أن تلمحها عيناه بلحظات. وكانت كل الأشياء تعود إليه مع إشراقة اليوم الجديد.

لا أحد يجهل أن الجنوب يبدأ في الجانب الآخر لشارع ريفادافيا. وقد اعتاد داهلمان أن يردد بأن ذلك ليس قناعة، وأن من

يجتاز هذا الشارع يدخل في عالم أكثر قدما ورسوخا. وكان ينظر من السيارة باحثا، بين الأبنية الجديدة، عن النافذة ذات القضبان، ومقرعة الباب، وقنطرة البوابة، ودهليز المدخل، والفناء الحميم.

انتبه، وهو في بهو المحطة، إلى أنه لا يزال لديه ثلاثون دقيقة. وتذكر فجأة أنه في مقهى في شارع البرازيل (على بعد أمتار قليلة من بيت يريجون) هناك قط ضخم يسمح للناس بمداعبته، وكان القط هناك، نائما. طلب فنجانا من القهوة، حلاها بتمهل، وتذوقها (لقد كانت هذه المتعة محرمة عليه في المصح) وفكر، بينما هو يمسد الفرو الأسود، بأن ذلك الملمس كان وهميا، وبأن ثمة زجاجا يفصل بينه وبين القط، لأن الإنسان يحيا في الزمن، في الاستمرارية؛ بينما يحيا الحيوان الساحر في الحاضر، في أبدية اللحظة الراهنة.

كان القطار ينتظر على الرصيف قبل الأخير. ذرع داهلمان العربات ووجد واحدة شبه خاوية. وضع حقيبته على الشبكة، وعندما انطلقت العربات، فتح الحقيبة وأخرج منها، بعد بعض التردد، المجلد الأول من «ألف ليلة وليلة». إن السفر مع هذا الكتاب المرتبط أشد الارتباط بقصة نكبته هو تأكيد على أن تلك النكبة قد انتهت، وهو بمنزلة تحدٍ مبهج وسري لقوى الشر المهزومة.

كانت المدينة، على جانبي القطار، تتفتت إلى ضواح؛ وقد أخر هذا المشهد، ثم مرأى البساتين والضياع بعد ذلك، البدءَ بالقراءة. والحقيقة أن ما قرأه داهلمان كان قليلا؛ فقصة جبل المغناطيس وحكاية جني القمقم الذي أقسم على قتل من سيحسن إليه كانتا - ومن ذا الذي يستطيع أن ينكر ذلك - رائعتين، لكنهما لم تكونا أروع

بكثير من ذلك الصباح ومن شعوره بأنه حي. كانت السعادة تجتذبه عن شهرزاد ومعجزاتها غير الضرورية؛ فأغلق داهلمان الكتاب واستسلم بكل بساطة للحياة.

إن الغداء (مع الحساء الذي قدم في أطباق من معدن لماع، كما في أصياف الطفولة البعيدة) كان متعة أخرى هادئة وجديرة بالشكر.

غدًا سأستيقظ في المزرعة، هكذا فكر، وبدا لبعض الوقت كما لو أنه رجلان اثنان: الرجل الذي يتقدم عبر النهار الخريفي وعبر جغرافية الوطن، والآخر، المحبوس في مصح وخاضع لعبودية منهجية. رأى بيوتا من القرميد من دون ملاط، عشوائية ومتطاولة، تنظر نظرة لا نهائية إلى مرور القطارات. رأى فرسانا على الدروب الترابية، رأى جداول وبحيرات ومزارع، رأى غيوما طويلة براقة تبدو كأنها من المرمر، وكل هذه الأشياء كانت عارضة، كما لو أنها حلم من أحلام السهل. وظن أيضا أنه رأى أشجارا ومزروعات لم يستطع تسميتها، لأن معرفته المباشرة بالريف كانت أقل بما لا يقاس من معرفته الحنينية والأدبية.

غفا لبعض الوقت، ورأى في حلمه اندفاع القطار. شمس الساعة الثانية عشرة ظهرا، البيضاء التي لا تطاق، تحولت الآن إلى تلك الشمس الصفراء التي تسبق المغيب، والتي لن تتأخر طويلا حتى تصبح حمراء. وكانت عربة القطار مختلفة أيضا؛ فهي ليست العربة نفسها التي كانتها في محطة كونستيتوثيون، عندما ابتعد القطار عن الرصيف: فالسهل والساعات الطويلة قد اخترقتها وغيرت من هيئتها. وفي الخارج، كان ظل العربة المتحرك يمتد

متطاولا نحو الأفق. لم يكن هناك عمران أو أي إشارات إنسانية تعكر تلك الأراضي البكر. كل شيء كان امتدادا متراميا، لكنه في الوقت نفسه حميمي، وسري بطريقة ما. ولم يكن يظهر في السهل الأجرد أي شيء أحيانا سوى ثور ما. كانت العزلة تامة، وربما عدائية. واستطاع داهلمان أن يتوهم أنه يسافر إلى الماضي وليس إلى الجنوب فحسب. وشده من هذا الخاطر الخيالي مفتش القطار الذي نبهه، بعد أن رأى تذكرته، إلى أن القطار لن يوصله اليوم إلى المحطة المعهودة وإنما إلى محطة أخرى، قبل تلك بمسافة قصيرة، وتكاد تكون مجهولة بالنسبة إلى داهلمان. (وأضاف الرجل تفسيرا لم يحاول داهلمان فهمه ولا حتى سماعه، لأن آلية الأمور لم تكن تهمه).

توقف القطار بمشقة وسط السهل تقريبا. كانت المحطة على الجانب الآخر من السكة الحديد، وهي أكثر قليلا من رصيف عليه عنبر صغير... ولم تكن هناك أي مركبة، ولكن ناظر المحطة رأى أنه قد يستطيع الحصول على عربة في متجر يبعد، حسبما أشار، حوالي عشرة أو اثني عشر كادرا[١].

وافق داهلمان على سير تلك المسافة معتبرا ذلك مغامرة صغيرة. كانت الشمس قد غابت، لكن بريقا أخيرا كان ينبعث من السهل النابض والصامت، قبل أن يمحوه الليل. سار داهلمان ببطء، ليس لأنه يريد تجنب التعب بقدر ما يريد جعل هذه الأشياء تستمر لوقت أطول، كان في أثناء ذلك يستنشق رائحة الأعشاب بسعادة وقورة.

لقد كان طلاء ذلك المتجر أحمر قانيا في يوم من الأيام، لكن

---

(١) كوادرا cuadra وحدة لقياس المسافات، طولها ١٢٥ مترا.

السنين خففت، لمصلحته، من ذلك اللون الفاقع. وقد ذكره شيء ما في هندسته البائسة برسم محفور على الصفيح، ربما كان قد رآه في طبعة قديمة من «بول وفرجيني». كانت هناك بعض الخيول المربوطة إلى عارضة الحاجز. وخيل لداهلمان، عند دخوله، أنه يعرف صاحب المحل، ثم أدرك بأن شبهه بأحد موظفي المصح قد خدعه. وقد قال له الرجل، بعد أن سمع قضيته، إنه سيجهز العربة المكشوفة، ليضيف عملا آخر إلى أعمال ذلك النهار، وليشغل كذلك الوقت المتبقي لديه. وقرر داهلمان تناول طعامه في المحل.

كانت هناك جماعة من الفتيان يجلسون إلى إحدى الموائد وهم يأكلون ويشربون بصخب، ولم يدقق داهلمان فيهم في البدء. وعلى الأرض كان ثمة رجل عجوز جدا يقبع متكورا، ومستندا إلى الكونتر من دون حراك، كأنه حزمة. وكانت السنون الطويلة قد قلصت حجمه وشذبته كما تفعل المياه بحجر، أو كما تفعل أجيال البشر بعبارة حكيمة. كان العجوز قاتما، ضئيلا وجافا، يبدو كأنه خارج الزمن، في أبدية ما. تأمل داهلمان بسعادة عصابة الرأس وعباءة البونتشو المصنوعة من صوف سميك، والإزار المربوط ما بين الساقين، وجزمة الرعاة وقال لنفسه، متذكرا مناقشات بلا طائل مع أناس من أحزاب الشمال أو من وسط البلاد، إنه لم يبق رعاة وفرسان غاوتشو(٢) من هؤلاء إلا في الجنوب.

جلس داهلمان مسترخيا بجانب النافذة. كان الظلام قد بدأ يخيم على الريف، لكن رائحته وحفيفه كانا لا يزالان يصلان إليه

---

(٢) الغاوتشو gaucho هم رعاة البقر في البامبا الأرجنتينية، وهم على خلاف رعاة البقر (الكاوبوي) في أمريكا الشمالية، لا يستخدمون المسدسات في مبارزاتهم وإنما السكاكين.

عبر قضبان النافذة الحديدية. أحضر له صاحب المحل سردينا ثم لحما مشويا؛ ودفع داهلمان هذا الطعام إلى جوفه ببضع كؤوس من النبيذ الأحمر. كان يتذوق الطعم الحريف بتكاسل ويترك نظرته، الحالمة بعض الشيء، تجوب المحل. كان مصباح الكيروسين يتدلى من حمالة معلقة؛ وكان زبائن الطاولة الأخرى ثلاثة أشخاص: اثنان منهم لهما مظهر العمال الزراعيين، والآخر له ملامح مستهترة ووقحة، وكان يشرب وهو يضع قبعته على رأسه. وفجأة أحس داهلمان بشيء يلمس وجهه برفق. وإلى جانب الكأس العادية المصنوعة من زجاج عكر، فوق أحد خطوط شرشف المنضدة، كانت هناك كرة صغيرة من لب الخبز. هذا هو كل شيء. ولكن لابد أن أحدا قد قذف بها.

الذين كانوا على الطاولة الأخرى بدوا مشغولين عنه. وحار داهلمان وقرر اعتبار أن شيئا لم يحدث، وفتح مجلد «ألف ليلة وليلة»، وكأنه يريد بذلك إغلاق الواقع. وبعد لحظات أصابته كرة أخرى من لب الخبز، وفي هذه المرة ضحك العمال الزراعيون. وقال داهلمان لنفسه إنه ليس خائفا، لكنها ستكون حماقة لو أنه سمح، هو الذي في حالة نقاهة، بأن يجره مجهولون إلى شجار مخز. قرر الخروج؛ وكان قد نهض واقفا عندما اقترب منه صاحب المحل وحضه بصوت فزع:

– لا تهتم لهؤلاء الفتيان يا سيد داهلمان، إنهم نصف سكارى.

لم يستغرب داهلمان أن يتعرف عليه الآخر الآن، لكنه أحس بأن هذه الكلمات الاسترضائية قد أزّمت، عمليا، الموقف. فاستفزاز العمال قبلها كان موجها إلى وجه عرضي، إلى لا أحد تقريبا، أما

الآن فهو موجه ضده وضد اسمه، وسيعرف الجيران ذلك. أزاح داهلمان صاحب المحل جانبا، ووقف أمام العمال وسألهم عما يرمون إليه بعملهم هذا.

نهض النديم ذو الوجه المستهتر مترنحا. وعندما صار على بعد خطوة واحدة من داهلمان، شتمه صارخا، كما لو أنه يقف بعيدا جدا عنه. كان يلعب لعبة إظهار المبالغة في سكره، وكانت تلك المبالغة تنطوي على شراسة وسخرية. وبين الكلمات القذرة والبذاءات، شهر في الهواء مدية طويلة، لاحقها بعينيه، ولوح بها، داعيا داهلمان إلى مبارزة. اعترض صاحب المحل بصوت مرتعش لأن داهلمان أعزل. وفي هذه اللحظة حدث أمر مفاجئ.

فالغاوتشو العجوز الغائب عن رشده، الذي رأى فيه داهلمان رمزا للجنوب (الجنوب الذي كان جنوبه)، طوح إليه من ركنه، بمدية عارية سقطت عند قدميه. بدا ذلك كما لو أن الجنوب قد قرر قبول داهلمان المبارزة. انحنى داهلمان ليلتقط المدية وأحس حينئذ بأمرين: الأول، هو أن هذا التصرف الغريزي الذي قام به يلزمه بالمبارزة. والأمر الثاني هو أن السلاح، في يده غير الخبيرة، لن يفيده في الدفاع عن نفسه، وإنما سيكون مبررا لأن يقتلوه. لقد لعب بمدية في يوم من الأيام مثل جميع الرجال، لكن قدرته في المبارزة لم تكن لتتجاوز معرفة أن الطعنات يجب أن توجه إلى أعلى وأن يكون حد المدية نحو الداخل، وفكر: ما كانوا ليسمحوا في المصح بأن تحدث لي أمور كهذه.

قال الآخر:

- فلنخرج.

خرجوا، وإن لم يكن لدى داهلمان من أمل، فإنه لم يكن يشعر بأي خوف. وأحس، وهو يجتاز عتبة الباب، بأن الموت في مبارزة بالخناجر، تحت قبة السماء الفسيحة، وبمبادرة ذاتية، سيكون تحريرا له، وبهجة واحتفالا عما لو أنه جاء في الليلة الأولى التي أمضاها في المصح، عندما وخزوه بالإبرة. وشعر بأنه لو استطاع حينذاك أن يختار موته أو أن يحلم به، فإنه كان سيختار أو سيحلم بهذه الميتة.

ويقبض داهلمان بقوة على المدية، التي قد لا يعرف كيفية استخدامها، ويخرج إلى السهل.

ميغيل آنخل أستورياس

Miguel Angel Asturias

(غواتيمالا)

● ولد في مدينة غواتيمالا عام ١٨٩٩ وتوفي عام ١٩٧٤.

● روائي وشاعر ومسرحي وصحافي ومحام وديبلوماسي.

● درس في فرنسا، وعمل هناك ما بين عامي ١٩٢٤ و١٩٣٦، على ترجمة «البوبول فو»، الكتاب المقدس لهنود الكيتشي في غواتيمالا.

● عند رجوعه إلى غواتيمالا اسهم في تأسيس الجامعة الشعبية، وتولى منصبا ديبلوماسيا في تمثيل حكومة أربينز؛ ولدى سقوط هذه الحكومة عاش أستورياس منفيا في الأرجنتين وفرنسا (١٩٥٤- ١٩٦٥).

● نال جائزة لينين للسلام عام ١٩٦٦، وجائزة نوبل للأدب عام ١٩٦٧.

● على الرغم من شهرة كتابه «السيد الرئيس»، إلا أن روايته «بشر من ذرة»، هي أهم مؤلفاته، وأفضل تعبير عن «الواقعية السحرية»، هذا التوجه الذي ابتدعه لوصف الطبيعة الأمريكية اللاتينية.

● كان لمعرفته العميقة بأساطير سكان غواتيمالا الأصليين وإتقانه للغتهم، دور بالغ في تمكنه من تركيب عالم روائي ذي غنائية عالية ونفس ملحمي.

● من أبرز أعماله:

في الرواية:

«السيد الرئيس» (١٩٤٦)، «بشر من ذرة» (١٩٤٩)، «الريح القوية»(١٩٥٠)، «البابا الأخضر» (١٩٥٤)، «عيون المدفونين» (١٩٦٠)، «الهاخاديتو» (١٩٦١)، «جمعة الآلام» (١٩٧٢).

في القصة:

«أساطير من غواتيمالا» (١٩٣٠)، «ويك إند في غواتيمالا» (١٩٥٦)، «مرآة ليدا سال» (١٩٦٧).

في المسرح:

«سولونا» (١٩٥٧)، «ابتزاز» (١٩٦٤)، «سدّ جاف» (١٩٦٤)، «ملك الغطرسة» (١٩٦٤).

الشعر:

«شعر» «صدغ قبرة» (١٩٤٨).

دراسات:

«أمريكا اللاتينية ومقالات أخرى» (١٩٦٨)، «أمريكا، أسطورة الأساطير» (١٩٧٢).

أسطورة المرأة ذات الوشم

Leyenda de la Tatuana

سيد شجرة اللوز له لحية وردية اللون، وكان واحدا من الكهنة الذين لمسهم الرجال البيض معتقدين أنهم من ذهب، لشدة ثراء لبسهم، وكان يعرف سرّ النباتات التي تشفي الأمراض كلها، ويعرف مفردات السبج - الحجر الناطق - وقراءة هيروغليفية مجموعات النجوم. إنه الشجرة التي ظهرت في صباح أحد الأيام في الغابة حيث تنتصب دون أن يزرعها أحد، كما لو أن الأشباح قد جاءت بها. الشجرة التي تمشي... الشجرة التي تعدّ سنوات الأربعمائة يوم من خلال الأقمار التي رأتها، وقد رأت أقمارا كثيرة، مثلها مثل كل الأشجار الأخرى، وقد جاءت هرمة من بلاد الوفرة.

عندما اكتمل قمر البومة - الصياد (وهذا اسم أحد الأشهر العشرين في السنة المؤلفة من أربعمائة يوم)، وزّع سيد شجرة اللوز روحه بين الدروب. وكانت الدروب أربعة، تذهب في اتجاهات متعاكسة نحو أطراف السماء الأربعة. الطرف الأسود: ليل سحر مؤذ. الطرف الأخضر: عاصفة ربيعية. الطرف الأحمر: ببغاء أو نشوة مدار. الطرف الأبيض: وعد أراض جديدة. أربعة كانت الدروب.

- يا درب! أيها الدرب الصغير...! - قالت حمامة بيضاء للدرب الأبيض، لكن الدرب الأبيض لم يسمعها. كانت تريد منه أن يعطيها روح السيد التي تشفي من الأحلام. لأن الحمائم والأطفال يعانون هذا الداء.

- يا درب! أيها الدرب الصغير...! - قال قلب أحمر للدرب الأحمر؛ لكن الدرب الأحمر لم يسمعه. وكان يريد أن يلهيه كي ينسى روح السيد. فالقلوب، مثل اللصوص، لا تعيد الأشياء المنسية.

- يا درب! أيها الدرب الصغير...! - قالت عريشة خضراء للدرب الأخضر، لكن الدرب الأخضر لم يسمعها. وكانت تريده أن يسدد إليها بروح السيد، بعض ما عليه من ديون أوراقها وظلالها.

كم من الأقمار مرّت مجتازة الدروب؟

كم من الأقمار مرّت مجتازة الدروب؟

الدرب الأسود، أسرعها، وهو الدرب الذي لم يكلمه أحد في الطريق، توقف في المدينة، اجتاز الساحة، وفي حيّ التجار، قدم روح السيد، مقابل لحظة استراحة، لتاجر المجوهرات التي دون ثمن.

كانت ساعة القطط البيض. وكانت القطط تنتقل من مكان إلى مكان. يا لمحط إعجاب شجيرات الورد! وكانت الغيوم تبدو ملابس منشورة على حبال السماء.

عندما علم السيد بما فعله الدرب الأسود، اتخذ هيئة إنسانية من جديد، بالتعري من شكله النباتي في جدول كان يولد تحت القمر الحيي مثل زهرة لوز، واتجه نحو المدينة.

وصل إلى الوادي بعد مسيرة يوم، في أول ارتسام المساء، في ساعة عودة القطعان، فتحدث إلى الرعاة الذين كانوا يردون بألفاظ مقتضبة على أسئلته، وكانوا مستغربين، كأنهم أمام شبح، بسبب ردائه الأخضر ولحيته الوردية.

وفي المدينة توجه نحو الغروب. رجال ونساء كانوا يحيطون بأحواض الماء العامة. وكان خرير الماء كأنه القبلات وهو يملأ

الجرار. ومنقادا إلى الظلال، وجد في حي التجار جزء روحه الذي باعه الدرب الأسود لتاجر مجوهرات دون ثمن. وكان التاجر يخبئه في قعر صندوق زجاجي بأقفال من ذهب.

ودون أن يضيع الوقت، اقترب من التاجر، الذي كان يدخّن في أحد الأركان، ليقدم إليه مقابل استرجاعها مائة أرّوبة[1] من اللؤلؤ.

ابتسم التاجر من جنون السيد. مئة أرّوبة من اللؤلؤ؟ لا. فمجوهراته ليس لها ثمن!

زاد السيد العرض؛ فالتجار يتمنعون إلى أن يحصلوا على كل ما يريدون. سيعطيه زمردا، أحجار زمرد كبيرة بحجم حبات الذّرة. مائة مدّ بعد مائة عرض عليه. حتى تكوين بحيرة من الزمرد.

ابتسم التاجر من جنون السيد. بحيرة من زمرد؟ لا. فمجوهراته ليس لها ثمن!

سيعطيه تمائم، عيون غزلان لاستمطار الماء، ريشا يقي من العاصفة، مارجوانا لتدخينها...

رفض التاجر.

سيعطيه أحجارا كريمة ليشيد منها، في منتصف بحيرة الزمرد، قصرا خرافيا!

رفض التاجر. فمجوهراته ليس لها ثمن. وفوق ذلك، لماذا مواصلة الكلام؟، فهذا الجزء من الروح يريد أن يبادله في سوق للنخاسة بأجمل جارية.

وكان كل شيء بلا طائل، لا طائل من مواصلة السيد تقديم عروضه، وإعلانه، مثلما أعلن، رغبته في استرجاع الروح. فالتجار بلا قلب.

---

(١) أروبة arroba: وحدة قياس قديمة تعادل ١١,٥ كيلو جرام.

خيط من دخان التبغ كان يفصل الواقع عن الحلم، القطط السود عن القطط البيض، التاجر عن الشاري الغريب الذي نفض، وهو يخرج، نعليه عند عتبة الباب. فالغبار فيه لعنة.

بعد سنة من أربعمائة يوم - كما تقول الأسطورة - كان التاجر يجتاز دروب سلسلة الجبال. عائدا من بلاد بعيدة، ترافقه جارية اشتراها ودفع ثمنها روح السيد، وكان معه العصفور - الزهرة الذي يحوّل بمنقاره قطرات العسل إلى ياقوت. وموكب من ثلاثين خادما على مطاياهم.

قال التاجر للجارية وهو يعقل مطيته:

- أنت لا تعرفين كيف ستعيشين في المدينة! سيكون منزلك قصرا، وخدمي كلهم سيكونون تحت أمرتك، وأنا الأخير بينهم، إذا ما أمرت بذلك!

ثم أضاف والشمس تغمر نصف وجهه:

- كل شيء هناك سيكون لك. أنت جوهرة، وأنا تاجر مجوهرات لا تقدر بثمن! أن تساوين جزءا من روح لم أبادله ببحيرة زمرد!... سنرى معا، ونحن في أرجوحة نوم، غروب الشمس وطلوع النهار، ومن دون أن نفعل شيئا، نستمع إلى حكايات امرأة عجوز بارعة تعرف قدري. تقول إن قدري بين أصابع يد عملاقة. وهي ستعرف قدرك، إذا ما طلبت منها ذلك.

التفتت الجارية نحو المنظر الطبيعي ذي الألوان الذائبة في ازرقاقات راحت الأبعاد تمحوها في وقت واحد. الأشجار تحيك على جانبي الدرب زركشة «غوييبيل»[٢] نزقة. وتعطي الطيور انطباعا

---

(٢) غوييبيل g□ipil: قميص بلا أكمام ترتديه الهنديات. وهو لباس أنثوي تطرز عليه بألوان كثيرة رسوم طيور وغزلان وأرانب وغيرها.

بأنها تطير وهي نائمة، بلا أجنحة، في سكون السماء. وفي صمت الصوان، كان لهاث البهائم وهي تصعد الجبل، يتخذ وقعا إنسانيا.

كانت الجارية واقفة. ينسدل شعرها الأسود في حزمة واحدة، مثل حية، على صدرها حتى يصل إلى ساقيها. وكان التاجر يلبس الذهب، ويغطي ظهره بمعطف من وبر الجدي. كان مصابا بالبرداء وبالعشق، تنضم رعشة قلبه إلى برودة مرضه. كان الثلاثون خادما على مطاياهم يصلون إلى شبكية عينيه كأنهم شخوص حلم. وفجأة، بللت الدرب قطرات ماء كبيرة متفرقة، وسمعت من بعيد جدا، عند المنحدرات، صرخة الرعاة الذين يجمعون الماشية خوفا من العاصفة. وعجلت المطايا خطوها لتلوذ بملجأ، لكن لم يتح لها الوقت: فبعد تساقط قطرات المطر، عصفت الريح بالغيوم، منتهكة الغابات؛ لتصل إلى الوادي الذي كان يلتفّ، مسرعا، بمعاطف الضباب المبللة، وأضاء أول البروق المشهد، مثل ومضات مصور مجنون يلتقط صورا خاطفة للعاصفة.

وبين الخيول الهاربة بفزع، وقد تقطعت أعنتها، وزادت رشاقة قوائمها، وتطايرت نواصيها مع الريح، وانقلبت آذانها إلى الوراء، تعثر حصان التاجر وألقى به عند أصل شجرة كان قد صعقها البرق في تلك اللحظة، فأمسكته بجذورها مثل يد تلتقط حجرا، وألقت به إلى الهاوية.

وفي أثناء ذلك، كان سيد اللوز الذي بقي تائها في المدينة، يهيم على وجهه كمجنون في الشوارع، باعثا الذعر في الأطفال، وملتقطا النفايات، ومتوجها بالكلام إلى الحمير والجواميس والكلاب التي لا صاحب لها، وهي تشكل في نظره، مع الإنسان، مجموعة البهائم ذات النظرة الحزينة.

- ما عدد الأقمار التي مرّت مجتازة الدروب؟ - كان يسأل، من باب إلى باب، الناس الذين يغلقون بيوتهم دون أن يردوا عليه، مستغربين، كما لو أنهم أمام شبح، من ردائه الأخضر ولحيته الوردية.

بعد مرور زمن طويل، وبعدما سأل الجميع، توقف أمام مخزن تاجر المجوهرات التي لا تقدر بثمن ليسأل الجارية، وهي الناجية الوحيدة من تلك العاصفة:

- ما عدد الأقمار التي مرّت مجتازة الدروب؟

الشمس التي كانت تخرج رأسها من قميص النهار الأبيض، راحت تمحو عن الباب المزين بمسامير من ذهب وفضة، ظهر السيد والوجه الأسمر لمن كانت جزءا من روحه، الجوهرة التي لم يشترها ببحيرة من زمرد.

- ما عدد الأقمار التي مرّت مجتازة الدروب؟

تلملم الجواب متكورا بين شفتي الجارية، وتصلّب مثل أسنانها. صمت السيد بإصرار حجر سرّي. وكان قمر البومة - الصياد يكتمل. وبصمت غسل كل منهما وجه الآخر بنظرته، في آن واحد، مثل عاشقين افترقا طويلا وتلاقيا فجأة.

عكرت المشهد صرخات مهينة وسباب. فقد جاءوا لاعتقالهما هو لأنه ساحر، وهي لأنها مصابة بمس من الشيطان. وبين صلبان وسيوف نزلا إلى السجن، السيد بلحيته الوردية وعباءته الخضراء، والجارية مظهرة لحمها الذي يلمع لشدة تماسكه كأنه الذهب.

وبعد سبعة أشهر، حكموا عليهما بالموت حرقا في الساحة الكبيرة. وعشية تنفيذ الحكم، اقترب السيد من الجارية ووشم بظفره مركبا صغيرا على ذراعها قائلا لها:

- بفضل هذا الوشم، ستهربين يا «موشّمة» كلما تعرضت للخطر، مثلما ستهربين اليوم. رغبتي أن تكوني حرة مثل فكري. ارسمي هذا المركب على الحائط، على الأرض، في الهواء، وأينما شئت، وأغمضي عينيك وادخلي فيه واذهبي...

اذهبي، لأن فكري أقوى من معبود طيني مجبول بالثيبوين[٣]!

لأن فكري أحلى من عسل النحل الذي يمتص زهرة السوكيناي[٤]!

لأن فكري هو الذي يصير محجوبا غير مرئي!

ودون أن تضيع برهة واحدة، فعلت «الموشّمة» ما قاله السيد: رسمت المركب الصغير، وأغمضت عينيها، وما أن دخلت إليه، حتى تحرك الزورق، وهربت من السجن ومن الموت.

في صباح اليوم التالي، صباح تنفيذ حكم الإعدام، وجد مأمورو القضاء في السجن شجرة يابسة على أغصانها زهرتا لوز أو ثلاث زهرات ما تزال وردية اللون.

(٣) ثيبويين cebollIn: نبتة عشبية تشبه الخس، ولكنها ذات أشواك، تعصر ويستخدم رحيقها في عجن نوع مقاوم من الصلصال.

(٤) يقول أحد كتب المايا إن النحلة التي ترتشف رحيق زهرة السوكيناي تعطي عسلا شديد الحلاوة.

فيلسبرتو هيرنانديث

Felisberto Hernández

(أوروغواي)

● ولد في مونتيفيديو، عاصمة الأوروغواي عام ١٩٠٢، وتوفي فيها عام ١٩٦٤ .

● أتاح له تعلم عزف البيانو، الذي بدأه في التاسعة من عمره، كسب العيش في شبابه من العمل عازفا في صالات السينما الصامتة في مدن الأوروغواي والأرجنتين. ولكنه صار يعزف فيما بعد في حفلات خاصة في الأرجنتين والبرازيل وفي بلاده.

● في عام ١٩٤٦، قدمت له الحكومة الفرنسية منحة دراسية أتاحت له الإقامة في باريس حتى عام ١٩٤٨.

● اقتصر على كتابة القصة القصيرة، وقد ظهرت قصصه الأولى منشورة في بعض الصحف والمجلات الأدبية في الفترة ما بين ١٩٢٥ و ١٩٣٩.

● لم تحقق أعماله القصصية ما تستحقه من انتشار إلا بعد موته، إذ توالت طبعات مجموعاته القصصية بالظهور في الستينيات، وتلا ذلك تناولها في دراسات وأبحاث نقدية في عقدي السبعينيات والثمانينيات.

● في عام ١٩٥٥ نشر هيرنانديث مقالا من صفحة واحدة بعنوان «تفسير زائف لقصصي القصيرة»، وهو بيان أدبي شاعري يلقي الضوء حول علاقة الكاتب بالكتابة.

● من أبرز أعماله:

في الرواية:

«في أزمنة كليمنتي كولينغ» (١٩٤٢)، «الحصان الضائع» (١٩٤٣)، «أراضي الذاكرة» (١٩٦٥-١٩٦٧).

في القصة القصيرة:

«المسمومة» (١٩٣١)، «لا أحد يضيء المصابيح» (١٩٤٧ - ١٩٩٣) «زهور الأورطنسيا» (١٩٤٩)، «المنزل الغارق» (١٩٦٢).

لا أحد يضيء المصابيح

Nadie encendía las lámparas

منذ زمن طويل، كنتُ أقرأ قصة في صالة قديمة. في البدء كان قدر ضئيل من أشعة الشمس ينفذ من خلال ستارة إحدى النوافذ. ثم راح يسقط ببطء بعد ذلك على بعض الأشخاص إلى أن وصل أخير إلى منضدة عليها صور لموتى أعزاء. كنتُ أتكلف مشقة في إخراج الكلمات من جسدي كما لو أنها تخرج من جهاز كير ممزق. على أول كرسيين كانت أرملتان هما صاحبتا المنزل؛ وكانتا متقدمتين جدا في السن، ولكن الشعر ما يزال غزيرا على رأسيهما. كنتُ أقرأ بقرف وأرفع رأسي عن الورقة بكثرة؛ ولكنني كنتُ أتوخى عدم النظر إلى شخص بعينه دائما؛ ذلك أن عيني قد اعتادتا التوجه في كل لحظة نحو المنطقة الشاحبة ما بين فستان إحدى الأرملتين وشعرها. كان وجها ساكنا ما يزال منذ بعض الوقت ماضيا بعينه. كانت عيناها تبدوان في بعض اللحظات كأنهما زجاج غبش لا وجود لأحد وراءه. وفجأة، كنتُ أفكر بأهمية بعض المدعوين، فأبذل جهدي للتوغل في أجواء القصة. وفي إحدى لحظات شرودي رأيتُ، من خلال شبكة النافذة، حمائم تتحرك فوق تمثال. ورأيت بعد ذلك، في آخر القاعة، امرأة شابة تسند رأسها إلى الجدار، وكان شعرها المتموج أشعث جدا، وكنتُ أمر بعيني عليها كأنني أرى نبتة نمت مستندة إلى جدار بيتٍ مهجور. وكنتُ أتكاسل في فهم تلك القصة مجددا ونقل معناها؛ ولكن الكلمات وحدها أحيانا، وعادة النطق بها، كانت تُحدث أثرا دون تدخل مني، فأُفاجأ بضحك

المستمعين. لقد أعدت النظر إلى الرأس المستند إلى الجدار، وفكرت بأنه ربما تكون المرأة قد لاحظت ذلك؛ ولكي لا أبدو فضوليا، فقد تطلعت عندئذ نحو التمثال. ومع أنني واصلت القراءة، فقد فكرت في البراءة التي يتعين على التمثال أن يجسد بها شخصا لا يدركه هو نفسه. ربما كان أكثر تفاهما مع الحمائم: يبدو أنه يتسامح مع تحويمها فوق رأسه ووقوفها على العمود الأسطواني الذي يستند جسد شخصية التمثال إليه. وفجأة وجدت نفسي وقد عدت للنظر إلى الرأس المستند إلى الجدار، وكانت هي في هذه اللحظة بالذات قد أغمضت عينيها. بذلتُ بعد ذلك جهدا لأتذكر الحماسة التي كنتُ أتمتع بها في المرات الأولى التي قرأتُ فيها تلك القصة؛ إنها قصة امرأة تذهب كل يوم إلى جسر على أمل أن تنتحر. ولكن عوائق كانت تعترضها كل يوم. وقد ضحك المستمعون عندما قدم لها أحدهم في إحدى الليالي عرضا، فهرعت المرأة، بذعر، راكضة إلى بيتها.

كانت مرآة الجدار تضحك أيضا، وتميل برأسها على الجدار كأنه يستند إلى وسادة. كنتُ قد اعتدتُ على إبعاد بصري عن ذلك الرأس ونقله إلى التمثال. أردت التفكير في الشخص الذي يجسده التمثال؛ ولكن لم يخطر لي أي خاطر جدّيّ؛ ربما فقدت روح تلك الشخصية أيضا الجدية التي كانت تتمتع بها في الحياة، واستغرقت الآن في اللعب مع الحمائم. فوجئت عندما أثارت كلماتي المرح مرة أخرى؛ فنظرت إلى الأرملتين ورأيت أن هناك من أطلّ من العينين الغبشتين لأشدهما حزنا. وفي إحدى المرات التي أشحتُ فيها بنظري عن الرأس المستند إلى الحائط، لم أنظر إلى التمثال، وإنما

إلى غرفة أخرى بدا لي أنني أرى فيها لهبا فوق منضدة؛ وتابع بعض الأشخاص حركتي؛ ولكن لم يكن على الطاولة سوى مزهرية فيها أزهار حمراء وصفراء يسقط عليها قليل من أشعة الشمس.

عندما أنهيتُ قصتي، اشتعل اللغطُ وأحاط الناس بي؛ راحوا يعلقون وبدأ سيد منهم يروي لي قصة امرأة أخرى أقدمت على الانتحار. أراد أن يعبر لي بأسلوب جيد، ولكنه كان يتأخر في العثور على الكلمات المناسبة؛ إضافة إلى كثير من المداورات والاستطرادات. نظرتُ إلى الآخرين؛ ورأيت أنهم يستمعون إليه بنفاد صبر؛ جميعنا كنا وقوفا ولا ندري ماذا يمكننا أن نفعل. وكانت المرأة ذات الشعر المتموج الأشعث قد اقتربت منا. وبعد أن نظرتُ إليها نظرتُ إلى التمثال. لم أكن أريد سماع القصة لأنني كنتُ أُعذَّب من معاناة ذلك الرجل في سعيه بحثا عن الكلمات: كان ذلك كما لو أن التمثال قد أخذ بـ «كش» الحمائم بيده.

لم يكن بإمكان الناس المحيطين بي التخلي عن الاستماع إلى رجل القصة؛ وكان هو يروي قصته بعناد أخرق كأنه يريد أن يقول: «إني رجل سياسي، أعرف كيف أرتجل خطبة وأعرف كذلك كيف أروي قصة لها إثارتها».

كان بين المستمعين شاب على جبهته شيء غريب: شريط قاتم في الموضع الذي ينمو فيه الشعر عادة. وهذا اللون نفسه - مثل لون لحية كثيفة جرت حلاقتها للتو وتغطيتها بمسحوق البودرة - يجتاح جبهته في توغلات كبيرة. نظرتُ إلى المرأة ذات الشعر الأشعث، وفوجئت حين رأيتُها تنظر إلى شعري. وكان أن انتهى

السياسي حينذاك من القصة وصفق الجميع. لم أتحمس لتهنئته، وقالت إحدى الأرملتين: «اجلسوا، من فضلكم». ففعلنا جميعنا ذلك وسُمعت زفرة راحة شبه عامة؛ لكنني اضطررت إلى النهوض من جديد لأن إحدى الأرملتين قدّمت إليّ المرأة الشابة ذات الشعر المموج: تبين أنها ابنة أختها. دعتاني للجلوس على أريكة كبيرة تتسع لثلاثة أشخاص؛ وجلست على أحد جانبي ابنة الأخت، وفي الجانب الآخر الشاب ذو الجبين المنتوف. همت ابنةُ الأخت بالكلام ولكن الشاب قاطعها. كان قد رفع يده وأصابعه إلى أعلى - مثل هيكل مظلة قلبته الريح - وقال:

- يخيل لي أنك شخص متوحِّد يكتفي بالصداقة مع شجرة.

أعتقد أنه حلق مقدم رأسه بتلك الطريقة لتكون جبهته أكثر اتساعا، وأحسست برغبة خبيثة في الرد عليه:

- لا تظن ذلك؛ فالشجرة لا يمكن دعوتها للتنزه.

ضحكنا ثلاثتنا. ودفع هو جبهته الحليقة إلى الوراء وتابع قائلا:

- هذا صحيح؛ فالشجرة هي الصديق الذي يبقى في مكانه.

نادت الأرملتان ابنة الأخت، فنهضت وهي تقوم بحركة استياء؛ وكنت أنظر إليها وهي ذاهبة، وانتبهت عندئذ فقط إلى أنها متينة العود وعنيفة. وحين أدرتُ وجهي وجدت نفسي أمام شاب قدّمه إليّ ذو الجبهة المنتوفة. كان قد سرّح شعره للتو وما زالت هناك قطرات من الماء على أطراف شعره. لقد سرّحت شعري بهذه الطريقة في إحدى المرات، عندما كنتُ طفلا، فقالت لي جدتي: «تبدو كمن لحسته البقرات». جلس القادم الجديد مكان ابنة الأخت وراح يتكلم:

- آه، رباه، يا لعناد ذلك السيد صاحب القصة.

كنتُ أرغب لو أنني قلتُ له: «وحضرتك؟ لماذا أنت شديد التخنث»؟ لكني سألتُه:

- ما اسمه؟

- من؟

- الرجل... العنيد.

- آه، لا أذكر. له اسم نبيل. إنه سياسي، وهم يعينونه عضوا في لجان التحكيم الأدبية على الدوام.

نظرتُ إلى ذي الجبهة المنتوفة فأومأ إليَّ كأنه يقول: «وماذا سنفعل له»!

عندما عادت ابنة أخت الأرملتين أبعدت «المخنث» عن الأريكة بشده من ذراعه، جاعلة بعض قطرات الماء تسقط على سترته. ثم قالت على الفور:

- لا أوافقكم الرأي.

- لماذا؟

- ... وأستغرب أنكم لا تعرفون كيف تفعل الشجرة للتنزه معنا.

- كيف؟

- إنها تتكرر على امتداد ممرات طويلة.

أطرينا على فكرتها، وتابعت هي:

- تتكرر في جادة لتُشير لنا إلى الطريق؛ ثم تتجمع كلها في البعيد وتُطل لترانا؛ وكلما اقتربنا منها تتباعد لتسمح لنا بالمرور».

قالت كل ذلك بشيء من المزاح وكما لو أنها تداري فكرة رومانسية. الحياء والمتعة جعلاها تصطبغ بالحمرة. وقاطع «المخنث» تلك الفتنة:

- ومع ذلك، عندما يخيم الليل في الغابات، تنقض علينا الأشجار ليلا من كل الجهات؛ بعضها ينحني كأنه يريد أن يتقدم خطوة وينقض علينا، وهي فوق ذلك تقطع علينا الطريق وتُخيفنا بفتح وضم أغصانها.

لم تستطع ابنة أخت الأرملتين كبح نفسها:

- يا يسوع! يبدو وكأنها قصة «بياض الثلج!»

وبينما نحن نضحك، قالت لي إنها ترغب في طرح سؤال عليّ فذهبنا إلى الغرفة التي توجد فيها الزهرية التي تحتوي أزهارا. اتكأت على الطاولة إلى أن غطت سطحها بجسدها؛ وبينما هي تدس يديها بين شعرها، سألتني:

- قُل لي الحقيقة: لماذا انتحرت المرأة في قصتك؟

- آه! كان لا بد من توجيه السؤال إليها هي.

- وأنت، ألا تستطيع أن تجيبني؟

- سيكون ذلك مستحيلا كاستحالة توجيه سؤال إلى صورة حلم.

ابتسمت وخفضت عينيها. عندئذ استطعتُ أن أنظر إلى كل فمها، وكان كبيرا جدا. بدت حركة الشفتين، اللتين كانتا تشدان نحو الجانبين، كأنها لن تنتهي أبدا؛ ولكن عيني كانتا تجوبان بإعجاب كل ذلك المدى من الحمرة الرطبة. ربما كانت ترى من خلال رموشها؛ أو تفكر في أنني، في ذلك الصمت، لا أفعل شيئا طيبا، لأنها خفضت رأسها كثيرا وخبأت وجهها. إنها تُظهر الآن كل كتلة شعرها؛ في دوامة من التموجات لا يبدو معها إلا قليل من الجلد، فتذكرتُ دجاجة زعزعت الريح ريشها وأظهرت لحمها. أحسست بمتعة في تخيل أن ذلك الرأس هو دجاجة بشرية، كبيرة

ودافئة؛ لا بد أن دِفئها سيكون رقيقا جدا والشعر هو نوع ناعم جدا من الريش.

جاءت إحدى الخالتين - من لم تكن عيناها رطبتين - لتحمل لنا كأسين صغيرتين من الليكور. رفعت ابنة الأخت رأسها، وقالت لها الخالة:

- لا بد أن تحذري من هذا الشخص؛ لاحظي أن له عيني ثعلب.

عدتُ أفكر في الدجاجة وقلت لها:

- سيدتي! لسنا في قنّ للدجاج!

عندما بقينا وحدنا من جديد، وبينما أنا أتذوق الليكور - كان شديد الحلاوة وسبب لي الغثيان - سألتني هي:

- ألم يثر فضولك المستقبل قط؟

كانت قد زمت فمها كأنها تريد أن تحفظه داخل الكأس الصغيرة.

- لا، لدي فضول أكبر لمعرفة ما يحدث في هذه اللحظة بالذات لشخص آخر؛ أو معرفة ما الذي كنت سأفعله أنا نفسي لو كنتُ في مكان آخر.

- قل لي، ما الذي كنت ستفعله الآن لو لم أكن أنا هنا؟

- إنني أعرف ذلك بالمصادفة: كنتُ سأُفرغُ هذا الليكور في إناء الزهور.

طلبوا مني أن أعزف على البيانو. وعندما عدتُ إلى القاعة، كانت الأرملة ذات العينين الغبشتين تحني رأسها وتتلقى بأذنها ما تقوله لها أختها بإلحاح. كان البيانو صغيرا، قديما، وغير متوازن. لم أدرِ ما عليّ أن أعزفه؛ ولكني ما أن بدأتُ بتجريب البيانو حتى أجهشت الأرملة ذات العينين الغبشتين بالبكاء، وصمت الجميع.

قادتها أختها وابنة الأخت إلى الداخل؛ وبعد قليل عادت ابنة الأخت وقالت لنا إن خالتها لم تعد ترغب في سماع الموسيقى منذ وفاة زوجها - وكانا قد تبادلا الحب حتى بلغا البراءة.

بدأ المدعوون بالمغادرة. ورحنا نحن الذين بقينا نتبادل الحديث بصوت يزداد انخفاضا بقدر ما كان ضوء النهار يخفت. ولم يضئ أحد المصابيح.

كنتُ بين آخر المغادرين، وكنت أتعثر بالأثاث، عندما استوقفتني ابنة الأخت:

- أريد أن أوصيك شيئا.

لكنها لم تقل أي شيء: بل أسندت رأسها إلى جدار الممر وأمسكت بي من كُمِّ سترتي.

أليخو كاربينتيير

Allejo Carpentier

(كوبا)

- ولد أليخو كاربينتيير في هافانا عام ١٩٠٤.
- سافر في طفولته إلى فرنسا وبلجيكا وروسيا.
- درس المرحلة الابتدائية في باريس. وعندما عاد إلى هافانا بدأ دراسة الهندسة في جامعتها، لكنه ما لبث أن تخلى عن الدراسة ليشتغل في الصحافة كناقد أدبي.
- اعتقل لنشاطه الثوري، وبقي في السجن ستة أشهر. وبعد خروجه من السجن، غادر وطنه سرا، وأقام في باريس، حيث كان على علاقة وثيقة بجماعة السورياليين هناك.
- شارك في المؤتمر العالمي المناهض للفاشية الذي عقد في مدريد وبلنسيا وبرشلونة خلال الحرب الأهلية الإسبانية عام ١٩٣٧.
- أقام في كاراكاس (فنزويلا) منذ ١٩٤٥، وبقي فيها حتى انتصار الثورة الكوبية عام ١٩٥٩.
- أصبح نائبا لرئيس المجلس الوطني الكوبي للثقافة، ونائبا لرئيس اتحاد الكتاب والفنانين الكوبيين الذي أُسس عام ١٩٦١، كما شغل منصب المدير لدار النشر الوطنية.
- عمل مدرسا لتاريخ الثقافة في جامعتي هافانا وكاراكاس.
- عمل قبيل سفره سفيرا لبلاده في باريس، وتوفي عام ١٩٨٠.
- من أبرز أعماله:

في الرواية:

«إيكوي - يامبا - آو (حكاية آفروكوبية)» (١٩٣٣)، «مملكة هذا العالم» (١٩٤٩)، «الخطى الضائعة» (١٩٥٣)، «عصر الأنوار» (١٩٦٢)، «كونشرتو باروكي» (١٩٧٤)، «ملاذ المنهج» (١٩٧٤)، «تكريس الربيع» (١٩٧٤)، «القيثارة والظل» (١٩٧٩).

في القصة:

«حرب الزمن» (١٩٥٨)

الدراسات:

«الموسيقى في كوبا» (١٩٤٦)، «لقاءات واختلافات» (١٩٦٤)، «الأدب والوعي السياسي في أمريكا اللاتينية» (١٩٦٩)، «الرواية الأمريكية اللاتينية عشية قرن جديد ودراسات أخرى» (١٩٨١).

رحلة إلى البذرة

Viaje a la semilla

(١)

- ما الذي تريده أيها العجوز...؟

سقط السؤال عدة مرات من أعلى السقالات. لكن الرجل العجوز لم يجب. كان يمضي متطفلا من مكان إلى آخر، مصدرا من حنجرته مونولوجا طويلا من عبارات مبهمة. كانوا قد انتهوا من إنزال قرميد السقف، وغطوا الأحجار الميتة بموزاييكه الفخاري. وفي الأعلى كانت المعاول تنتزع أحجار البناء، وتدحرجها إلى أسفل في قنوات خشبية وسط غمامة كثيفة من الكلس والجص. ومن خلال شرفات الأبراج المتتالية التي كانت تطيح بمسننات الأسوار، بدت - مجردة من أسرارها - سقوف صقيلة، بيضاوية أو مربعة، وطنف، وأكاليل غار، ومسننات، وتيجان أعمدة، وأوراق مغراة تتدلى على الواجهات كأنها جلود قديمة لأفاع تبدل جلدها. وكان يشهد عملية الهدم تمثال للربة سيريس، مكسور الأنف، متشح برداء طويل وتسريحة شعر معرقة بخطوط سوداء، ينتصب في الفناء الخلفي فوق نافورته ذات الأقنعة الممسوحة وإطلالة الشمس في ساعة يفترض أن يكون الظل سائدا، وكانت الأسماك الرمادية تتثاءب في حوضها وسط الماء الطحلبي الفاتر، وتراقب بعيونها المدورة أولئك العمال الزنوج على خلفية سماء صافية، وهم يذلّون شموخ البيت العريق. جلس الرجل العجوز عند قدمي التمثال وعصاه تسند ذقنه. كان ينظر إلى صعود ونزول الدلاء التي تحمل البقايا الثمينة. كانت

تسمع، مكتومة، ضجة الشارع، بينما البكرات، في الأعلى، توافق صريرها، الذي يشبه زقزقة طيور كريهة مصدورة، مع إيقاع الحديد فوق الحجر.

دقت الساعة الخامسة. وخلت الأفاريز والسطوح من العمال. لم يبق سوى سلالم يدوية تعد العدة لهجوم اليوم التالي. أصبح الهواء أكثر نداوة، لأنه تخفف من العرق، والتجديفات، وصرير الحبال، والمحاور التي تحتاج إلى التزييت، والصفعات على جذوع الأبدان الممتلئة. جاء الغسق مبكرا بالنسبة إلى البيت المقشور. فقد توشح بالظلال في ساعات كان بها درابزينه العلوي، الذي انتزع الآن، يوصل عادة إلى الواجهات الحجرية بعض ومضات من ضوء الشمس. وزمت سيريس شفتيها. ونامت الحجرات لأول مرة دون ستائرها الخشبية، مفتوحة على مشهد الأنقاض.

كان عدد من تيجان الأعمدة، خلافا لرغبته، يرقد بين العشب. واكتشفت أوراق نبتة الاقنثة الشوكية شرطها النباتي. وغامرت شجيرة لبلابية ومدت فروعها نحو الزخرفة اليونانية، مدفوعة بإحساس أسري. وعندما خيم الليل، كان البيت أقرب إلى مستوى الأرض. وكان إطار أحد الأبواب ما يزال منتصبا في الأعلى، مع ألواح من الظل معلقة بمفصلاتها المضطربة.

(٢)

عندئذ قام العجوز الأسود، الذي لم يتحرك من مكانه، بحركات غريبة، مقلبا عكازه فوق مقبرة من البلاط؛ فطارت مربعات المرمر البيضاء والسوداء إلى أرضيات الغرف لتغطي التراب من جديد.

وعادت الأحجار، بقفزات واثقة صائبة، لتسد فجوات الجدران. وتثبتت ألواح خشب الجوز المسمرة في أطرها، بينما عادت براغي المفصلات لتتغرس في ثقوبها بحركة لولبية سريعة، ومن بين أكوام الحجارة الميتة، نهضت قراميد السطح بمجهود من الأزهار، وجمعت أجزاءها المبعثرة، وارتفعت في زوبعة طينية رنانة، لتسقط كمطر فوق هيكل السطح. نما البيت، وعاد ثانية إلى أبعاده المعهودة، قويا ومكسوا. وصارت سيريس أقل رمادية. وتكاثر عدد الأسماك في بركة النافورة. وبعث خرير المياه نباتات بيجونيا منسية.

أدخل العجوز مفتاحا في قفل البوابة الرئيسية، وبدأ يفتح النوافذ. كان لعقبيه رنين أجوف. وعندما أضاء المصابيح سرت رعشة صفراء في الألوان الزيتية للصور العائلية، وتمتم أناس يرتدون السواد في كل الأروقة على إيقاع ملاعق تتحرك في فناجين الشوكولاته.

كان دون مارثيال، مركيز كابيّانياس، يرقد على فراش الموت، وصدره مدرّع بالأوسمة، تحرسه أربع شموع لها لحى طويلة من الشمع الذائب.

(٣)

كبرت الشموع ببطء، وزالت عنها قطرات العرق. وعندما استعادت حجمها الطبيعي، قامت راهبة بإطفائها مبعدة الشعلة. ابيضّت فتائل الشموع وتخلصت من أطرافها المحروقة. خلا البيت من الزائرين وغادرت العربات في الليل. ضغط دون مارثيال على لوحة مفاتيح غير مرئية وفتح عينيه.

وباضطراب وهرج ومرج أخذت دعائم السقف تحتل مكانها، وكذلك قوارير الدواء، وطرر الدمقس، والأيقونة التي فوق السرير، وصور الدغروتيب، وشباك الشرفة كلها ظهرت من بين ضبابها. وعندما هز الطبيب رأسه بحزنه المهني، أحس المريض بتحسن حاله. ونام بضع ساعات ثم استيقظ وهو تحت نظرة الأب أناستاسيو السوداء والمقطبة. وانقلب الاعتراف بعد أن كان صريحا، مفصلا ومليئا بالخطايا ليصبح مكتوما، عسيرا، ومليئا بالتستر. فأي حق - في نهاية المطاف - يملكه ذلك الأب الكرملي للتدخل في حياته؟ وفجأة، وجد دون مارثيال نفسه مطروحا وسط الحجرة. نهض بسرعة مذهلة بعد أن انزاح ثقل كان يجثم على صدغيه. والمرأة العارية التي كانت تتمطط فوق بروكار الفراش بحثت عن تنورتها الداخلية ومشدات صدرها، وحملت معها بعد قليل، هفهفة حريرها المكبس وعطرها العابق. وفي الأسفل، في العربة المغلقة، فوق مسامير الزينة في المقعد الصغير، كان هناك مغلف يضم قطع عملة ذهبية.

لم يكن دون مارثيال يشعر بأنه في حالة جيدة. وبينما هو يسوي ربطة عنقه أمام المرآة المستديرة التي على الجدار، رأى وجهه محتقنا. نزل إلى المكتب، حيث كان بانتظاره رجال قضاء، ومحامون، وكتّاب بالعدل ليقوم بعرض البيت للبيع في مزاد علني. كل شيء كان بلا فائدة. ستذهب ممتلكاته إلى المزايد الذي سيدفع أعلى مبلغ على إيقاع ضربات المطرقة فوق المنضدة. حيّاهم، وتركوه وحيدا. كان يفكر في أسرار الحرف المكتوب على هذه الخيوط السوداء التي تتعقد وتتفلت فوق صفائح الموازين الرومانية المزخرفة،

رابطة ومفلتة وعودا، وعهودا، واتفاقيات، وشهادات، وإقرارات، وألقابا، ومناصب، وتواريخ وأراضي، وشجارا، وحجارة. متاهة متشابكة من الخيوط، مستخرجة من دواة الحبر، تكبل ساقي الإنسان، وتحظر عليه دروبا يرفضها القانون، مكونة أنشوطة حول العنق، تضغط على حنجرته لدى الشعور بالصوت الرهيب للكلمات التي كانت تخرج بحرية. لقد خانه توقيعه، وهو منغمس في عقدة وتشابكات رزم الأوراق والوثائق. والإنسان الذي من لحم يغدو، إذ يتقيد بها، إنسانا من ورق.

كان الوقت فجرا. وكانت ساعة غرفة النوم قد دقت لتوها معلنة السادسة مساء.

(٤)

مرت شهور من الحداد، مكللة بشعور متزايد من الندم. وبدت له فكرة المجيء بامرأة أخرى إلى ذلك المخدع أمرا معقولا في البدء، لكن الرغبة في جسد جديد أخذت تتحول شيئا فشيئا إلى وساوس متزايدة وصلت إلى حد جلد النفس. وفي إحدى الليالي، أدمى دون مارثيال لحمه بالجلد بحزام، أحس بعدها بشهوة أكبر، لكنها قصيرة الأجل. وفي تلك الأثناء، كان أن رجعت المركيزة ذات مساء من نزهتها على ضفاف الميندارِيس. ولم تكن نواصي خيول العربة متضمخة بأكثر من رطوبة عرقها وحسب. لكنها راحت، طوال بقية ذلك اليوم، ترفس بقوائمها ألواح الإسطبل الخشبية، كأن ثبات الغيوم الواطئة قد استثارها.

وعند الغسق، انكسر دنّ فخاري مملوء بالماء في حمام المركيزة.

ثم طفحت البركة بعد ذلك بأمطار مايو. وكانت تلك العجوز السوداء التي تحمل وسم العبيد الفارين، وتخبئ حمائم تحت سريرها، تسير في الفناء وهي تتمتم: «إياك والثقة بالأنهار يا طفلتي، إياك والثقة بالأخضر الذي يسيل!». ولم يكن يمر يوم إلا وكان الماء يكشف فيه عن حضوره. لكن هذا الحضور لم يعد في النهاية إلا فنجان[4] سكبت محتوياته على فستان مجلوب من باريس، لدى العودة من الحفل السنوي الراقص الذي يقيمه القائد العام للمستعمرة.

عاد أقارب كثيرون للظهور. ورجع أصدقاء كثيرون. وشعّت ثريات الصالون الكبيرة بضوء ساطع. وأخذت شقوق واجهة البناء تلتئم. وعاد البيانو ليصبح كلافيكورديو. وفقدت أشجار النخيل بعض حلقاتها. وأفلتت الشجيرات المتسلقة الإفريز الأول. وصار محيط عيني تمثال سيريس أكثر بياضا، وبدت تيجان الأعمدة كأنها نحتت حديثا. وصار من عادة مارثيال الذي أصبح أكثر حيوية، أن يقضي أمسيات بكاملها معانقا المركيزة. التجعيدات التي حول العينين والتغضنات التي في الوجه امّحت، وعاد اللحم إلى تماسكه وصلابته. وملأت البيت في أحد الأيام رائحة طلاء طازج.

(٥)

كان احمرار الخدين صريحا. وفي كل ليلة كانت صحائف البارابان تزداد انفتاحا بعض الشيء، والتنورات تسقط في الأركان الأقل إضاءة مكونة حواجز أخرى من الدنتيلا: وأخيرا نفخت المركيزة لتطفئ المصابيح. وتكلم هو وحده في الظلام.

انطلقا إلى معصرة قصب السكر في قافلة عربات الحنطور، الملتمعة بأرداف الخيول الشقراء، وشكائم الفضة، وطلائها الأسود تحت الشمس. ولكن، في ظل أزهار الباسكوا التي كانت تضفي احمرارا على الرواق الداخلي للمسكن، انتبها إلى أن كلا منهما لا يكاد يعرف الآخر. وسمح مارثيال برقصات لاناثيون وطبولها، ليروح قليلا عن نفسه في تلك الأيام العابقة بروائح عطور كولونيا، وحمامات اللبان الجاوي، ولمم شعر أشعث، وملاءات مستخرجة من خزائن تسقط منها لدى فتحها حزمة من النجيل الهندي العطر. كان بخار عصير القصب يدور في النسيم مع ناقوس الصلاة. وكانت النسمات التي تطير واطئة تنبئ بأمطار متحفظة، امتص قرميد السطوح الجاف قطراتها الأولى الكبيرة والصاخبة، فكان لسقوطها رنة النحاس. وبعد فجر أطاله عناق لا رشاقة فيه، سويت خلافاتهما، واندمل الجرح، فعادا إلى المدينة. واستبدلت المركيزة بثياب السفر فستان عروس، وكما هي العادة مضى الزوجان إلى الكنيسة ليستردا حريتهما. أعادا الهدايا إلى الأقارب والأصدقاء. ووسط قعقعة البرونز وزهو الخيول الفاخرة، اتخذ كل منهما طريقه إلى بيته. واصل مارثيال زيارة ماريا دي لاس ميرسيدس لفترة من الزمن استمرت إلى اليوم الذي أخذ فيه خاتمي الخطوبة إلى مشغل الصائغ لإزالة الحروف المحفورة عليهما. وبدأت بالنسبة إلى مارثيال حياة جديدة. واستبدل بتمثال سيريس الذي في البيت ذي السور الحديدي المرتفع تمثال فينوس إيطالية، والأقنعة المحفورة على حجارة النافورة أبرزت نقوشها قليلا، وبصورة تكاد لا تلمح، حين رأت أن القناديل ما زالت مضاءة، مع أن الفجر قد لوّن السماء.

(٦)

وفي إحدى الليالي، وبعد أن شرب بكثرة وداخ بسبب رائحة التبغ البارد الكريهة التي خلّفها أصدقاؤه، راود مارثيال إحساس غريب بأن كل الساعات التي في البيت تدق معلنة الخامسة، ثم الرابعة والنصف، وبعدها الرابعة، ثم الثالثة والنصف... كان ذلك كأنه إدراك ناء لاحتمالات أخرى. مثلما يفكر المرء، في وهن السهر، بأنه قادر على السير على السقف الأملس متخذا الأرضية سطحا أملس، بين أثاث مثبت بإحكام ما بين دعائم السقف. كان انطباعاً خاطفا، لم يترك أي أثر في روحه التي انتقلت قليلا إلى التأمل الآن.

كان هناك احتفال كبير في صالة الموسيقى بمناسبة بلوغه سن القصور. وأحس بالسعادة عندما فكر في أنه لم يعد لتوقيعه أي قيمة قانونية، وبأن السجلات والبيانات، المليئة بالعثة، أخذت تمحى من عالمه. كان يصل إلى النقطة التي تصبح فيها المحاكم غير مخيفة لأولئك الذين لهم لحوم تزدريها القوانين. وبعد أن انتشى الشبان بأنواع النبيذ الكريمة، نزعوا جيتارا مرصعا بالصدف، كان معلقا على الجدار، وقانونا، ومزمارا خشبيا. وعبأ أحدهم الساعة التي عزفت لحن تيروليسا البقرات وأغنية البحيرات الاسكتلندية. ونفخ آخر بوق صيد كان يقبع ملتفا في علبته النحاسية، فوق فرشة من اللبد الأحمر، إلى جانب مزمار الفلوت المستعرض المجلوب من ارانخويث. ومارثيال الذي كان يغازل فتاة الكمبوفلوريدو بوقاحة، انضم إلى الضجة أيضا باحثا في المفاتيح عن لحن «تريبلي - ترابالا». ثم صعدوا جميعا إلى

العليّة، وتذكروا فجأة أنه هناك، تحت دعائم آخذة باسترداد تجصيصها، تحفظ بدلات وملابس بيت كابيّانياس. وعلى رفوف خزائن تعبق بالكافور كانت تقبع بدلات البلاط، وسيف السفراء، وعدد من السترات العسكرية المزينة، وعباءة حبر من أحبار الكنيسة، ومعاطف عسكرية ذات أزرار من الدمقس وظلال من الرطوبة في مواضع طيها. وتوشحت العتمة بشرائط من القطيفة، وتنورات داخلية صفراء، وعباءات ذاوية وأزاهير من المخمل. وقد استثار الإعجاب والتصفيق زي حدّاد له شبكة صغيرة من الشرابات، مصنوع لحفلة كرنفال تنكرية. وكوّرت فتاة كمبو فلوريدو كتفيها المعفرتين بالغبار تحت شال له لون اللحم الكريولي، ربما كان ذا نفع لإحدى الجدات، في ليالي القرارات العائلية الكبرى، لإعادة تأجج النار الساكنة لثري من قيّمي الراهبات الكلاريسيات.

عاد الشبان متنكرين إلى صالة الموسيقى. ومارثيال الذي كان يضع على رأسه قبعة عضو مجلس بلدي ثلاثية الحواف، ضرب الأرض ثلاث مرات بعصاه، ليعلن ابتداء رقصة الفالس، التي كانت الأمهات يجدن فيها رقصة رهيبة لا تليق بالآنسات، لما يتخللها من ملامسة للخاصرة، ومن وضع ليد الرجل على حمالات الكورسيه التي صنعنها جميعهن وقتذاك حسب نموذج «حديقة الموضة» الأخير. كانت الأبواب تغص بالجواري وسائسي الخيل والخدم الذين جاءوا من أماكن استخدامهم البعيدة، ومن الأقبية الخانقة، ليبدوا إعجابهم ودهشتهم بهذا الاحتفال الصاخب. ثم أخذوا يلعبون لعبة الدجاجة العمياء والاختباء. فاختبأ مارثيال مع فتاة

الكمبوفلوريدو خلف البارابان الصيني، وطبع قبلة على مؤخر عنقها، وتلقى بالمقابل منديلا معطرا، كان تطريزه البروكسيلي يحتفظ بشيء من نعومة دفء صدرها. وعندما ابتعدت الفتيات مع أضواء الغسق، ومضين نحو المراصد والأبراج التي كانت ظلالها تلون البحر بلون رمادي مائل إلى السواد، مضى الشبان إلى دار الرقص حيث كانت تختال الفتيات الخلاسيات ذوات الأساور الكبيرة، دون أن يفقدن أبدا - ومهما كانت الرقصة عنيفة - أحذيتهن عالية الكعوب. ومن وراء جدار مجاور، في فناء مزروع بأشجار الرمان كانت جماعة (الكابيلدو ارارا تريس اوخوس) تطلق رعودا بالعزف على طبولها، كأنها في موسم الكرنفال. وصعد مارثيال وأصدقاؤه على المناضد والكراسي ليثوا على رشاقة زنجية ذات شعر رمادي مفتل، كانت تبدو رائعة الجمال، بل ومثيرة، عندما تنظر من فوق كتفها، وهي ترقص بإيماءات تحدٍ مترفعة.

(٧)

أخذت زيارات دون أبونديو، الكاتب بالعدل، للعائلة ووصيها بالازدياد. كان يجلس بوقار عند رأس سرير مارثيال، ضاربا بعصاه، التي من خشب الأكانا على الأرض ليوقظه قبل الأوان. وما أن يفتح هذا عينيه حتى يقع بصره على معطف من قماش الألبكة تغطيه قشرة الرأس، معطف يجمع كماه اللامعان مداخيل وسندات. بقي منها أخيرا معاش معقول، يتعين عنده وضع حد لأي نوع من أنواع الحماقات. وحينئذ كان أن قرّر مارثيال الانضمام إلى معهد سان كارلوس الملكي.

وبعد امتحانات ليست ذات شأن، أخذ يتردد على الأروقة، متفهما أقل فأقل شروحات مؤدبيه. كان عالم الأفكار يقفر شيئا فشيئا. وما كان في البداية مجمعا مسكونيا للعباءات الجامعية، والجبات، والقلائد والشعور المستعارة، والمتجادلين والمتحاورين، اكتسب الآن ركود متاحف التماثيل الشمعية. صار مارثيال يقنع الآن بالعرض اللاهوتي للأنظمة، متقبلا صحة ما يقوله أي نص. وكان يقرأ فوق الرسوم التوضيحية في كتاب التاريخ الطبيعي كلمات: «أسد»، «نعامة»، «حوت»، «جغوار». وبالطريقة نفسها كانت أسماء «أرسطو»، «القديس توما»، «بيكون»، «ديكارت»، تتصدر الصفحات السوداء، حيث تصنف التفسيرات المملة للكون، على هامش كتاب الصلوات السميك. وشيئاً فشيئا تخلى مارثيال عن دراستها وأحس أنه قد تحرر من عبء ثقيل. صار ذهنه مرحا ورشيقا يتقبل مفهوما غريزيا للأشياء فقط. ولماذا التفكير بالموشور ما دام ضوء الشتاء الواضح يضفي تفاصيل أكبر على حصون الميناء؟ وتفاحة تسقط من شجرة ليست سوى إغراء للأسنان. وقدم في حوض حمام لن تكون أكثر من قدم في حوض حمام. في اليوم الذي ترك فيه المعهد، نسي الكتب تماما. فاستعاد العفريت خاصيته الجنية، وأصبح الطيف مرادفا للشبح، والزهرة ثمانية المآبر صارت حشرة مدرعة، لها أشواك على ظهرها.

لقد مضى في مرات عديدة، يمشي مسرعا، بقلب واجف، ليزور النساء اللواتي يتهامسن من وراء الأبواب الزرقاء، عند أقدام الأسوار. كانت ذكرى تلك التي تلبس حذاء مطرزا وتضع فوق أذنها أوراق الريحان ما زالت تطارده، في الأمسيات الحارة، كألم

الأضراس. لكن غضب كاهن الاعتراف وتهديداته جعلته يبكي هلعا في أحد الأيام. لقد سقط لآخر مرة بين ملاءات الجحيم، متخليا نهائيا عن جولاته في شوارع قلما يرتادها أحد، وعن جبنه في اللحظة الأخيرة الذي كان يجعله يعود إلى البيت غاضبا بعد أن يخلف وراءه رصيفا مشققا، إشارة إلى استدارته في نصف الدورة التي عليه أن يقوم بها، وهو يمضي مطرقا، ليطأ عتبة العطور.

إنه يعيش الآن أزمته الصوفية، المسكونة بالأيقونات، وخراف الفصح، والحمائم الخزفية، وصور للسيدة العذراء بإزار أزرق سماوي، ونجوم من أوراق مذهبة، وملوك مجوس، وملائكة بأجنحة بجع، والجحش، والثور، وهيئة رهيبة للقديس ديونيسيو، الذي كان يظهر له في الأحلام بفجوة كبيرة بين كتفيه، وبمشية مترددة كمن يبحث عن شيء فقده. وكان يصطدم بالسرير فيستيقظ مارثيال فزعا، ويمد يده إلى المسبحة ذات الخرزات الصماء. وتشع الفتائل في فناجين الزيت بضوء حزين على الصور التي كانت تستعيد لونها الأول.

(٨)

كان الأثاث يكبر، وصار من العسير عليه أكثر فأكثر إسناد ذراعيه إلى حافة مائدة حجرة الطعام. وغدت الخزائن ذات الأطر المنقوشة أكثر اتساعا من الأمام. وصار تمثالا العربيين على السلّم يقربان مشاعلهما من بسطات الدرج. وصارت الأرائك أكثر تقعرا، والكراسي الهزازة تميل إلى المضي نحو الوراء. ولم يعد بحاجة إلى ثني ساقيه عند استلقائه في قاع حوض الحمام ذي الحلقات المرمرية.

وفي صباح أحد الأيام، بينما كان مارثيال يقرأ كتابا ماجنا، أحس فجأة برغبة إلى اللعب بالجنود المصنوعين من الرصاص الذين يقبعون في صناديقهم الخشبية. أخفى الكتاب من جديد تحت طست غسل الأيدي، وفتح درجا مختوما بنسيج العنكبوت. كانت منضدة الدراسة أصغر من أن تتسع لمثل ذلك الحشد، ولهذا جلس مارثيال على الأرض. وضع رماة القنابل اليدوية في صفوف ثمانية. ثم الضباط الخيالة حول حامل الراية. ووراءهم المدفعيون مع مدافعهم، وحملة فراشي تنظيف المدافع وفتائل الإشعال. ووضع في المؤخرة نافخي الأبواق وقارعي الطبول مع موكب العازفين. وكانت مدافع الهاون مزودة بنابض يمكنها من رمي كرات زجاجية إلى مسافة تزيد على المتر.

- بوم...! بوم...! بوم...!

تهاوت جياد، وتساقط حملة رايات وطبول. وكان على الزنجي إليخيو أن يناديه ثلاث مرات، إلى أن حسم أمره وقرر غسل يديه والنزول إلى قاعة الطعام.

منذ ذلك اليوم واظب مارثيال على عادة الجلوس على الأرضية المبلطة. وعندما أدرك فوائد هذه العادة، تعجب لأنها لم تخطر له من قبل. ذلك أن الأشخاص البالغين يتعرقون كثيراً لإدمانهم الجلوس وسط الوسائد المخملية. وتنبعث من بعضهم رائحة كاتب بالعدل - مثل دون أبونديو - لأنهم لا يعرفون شيئا عن برودة الرخام عندما يستلقي عليه جسد المرء في أي وقت من الأوقات. ومن الأرض وحدها، يمكن الإحاطة بمنظور وزوايا الحجرة كلها. ثمة جمال في الخشب، ومسارات سرية تذرعها الحشرات،

وأركان ظليلة تبقى مجهولة بالنظر إليها من علو المرء وهو واقف. وعندما يهطل المطر، كان مارثيال يختبئ تحت بيانو الكلافيكورديو. وكانت كل قصفة من الرعد تجعل صندوق الموسيقى يهتز عازفا كل الألحان. وكانت الصواعق تهوي من السماء لتصنع تلك القبة الموسيقية - أرغن، أشجار صنوبر تموج مع الريح، ومندولين الجنادب.

(٩)

في ذلك الصباح حبسوه في حجرته. سمع تمتمات في جميع أنحاء البيت، والغداء الذي قدموه له كان لذيذا ومغذياً أكثر مما يقدم في أيام الأسبوع العادية. كانت هناك ست قطع من الحلوى من محل ألاميدا للحلويات، بينما لم يكن بالإمكان أكل أكثر من قطعتين في أيام الآحاد بعد القداس. كان يتسلى بتأمل صور رحلات، إلى أن جعله الأزيز المتصاعد، الذي يتسرب من تحت الأبواب، ينظر من بين الستائر. كان هناك رجال يرتدون ملابس سوداء، ويحملون صندوقا ذا مقابض برونزية. أحس برغبة في البكاء، لكن الحوذي ميلتشور ظهر في تلك اللحظة، وأعلى جزمته ذات الصرير تلمع بابتسامة أسنان. بدأا لعب الشطرنج. كان ميلتشور حصانا، وكان هو الشاه. وباتخاذهما من بلاط الأرضية رقعة للشطرنج، كان بإمكانه التقدم من بلاطة إلى أخرى مجاورة، بينما كان على ميلتشور أن يقفز بلاطة إلى الأمام واثنتين إلى أحد الجانبين، أو العكس. استمر اللعب إلى ما بعد الغسق، عندما مرّ رجال إطفائية التجارة.

حينما استيقظ، ذهب ليقبّل يد والده الذي كان يرقد على فراش المرض. كان المركيز يشعر بالتحسن، تحدث إلى ابنه بهيئته وعباراته المعهودة. وكانت عبارتا «نعم يا أبتاه» و«كلا يا أبتاه» تتدغمان بين حبة وأخرى من سبحة الأسئلة، مثل أجوبة الشماس في القداس. كان مارثيال يحترم المركيز، إنما لأسباب لم يستطع أحد أن يخمنها. كان يحترمه لأنه طويل القامة ويخرج، في الحفلات الليلية الراقصة، وصدره يسطع بالأوسمة، ولأنه يحسده على سيفه وعلى أشرطة ضابط الميليشيا، ولأنه أكل، في عيد الفصح، ديكا روميا كاملا، محشوا باللوز والزبيب، وكسب بذلك رهانا، ولأنه أمسك في إحدى المرات بخلاسية من أولئك اللواتي كن يكنسن القاعة المستديرة في الحديقة، وحملها بين ذراعيه إلى حجرته، ليقوم بجلدها دون ريب. وقد اختبأ مارثيال وراء إحدى الستائر، ورآها تخرج بعد وقت قصير، باكية وأزرار ملابسها مفتوحة، وفرح لمعاقبتها، لأنها هي التي كانت تفرغ دائما صحون المربى التي تعاد إلى الخزانة.

كان الأب كائنا رهيبا وشهما، عليه أن يحبه بعد الله. وقد كان بالنسبة إلى مارثيال إلها أكثر من الإله نفسه، لأن عطاياه يومية وملموسة. لكنه كان يفضل رب السماء، لأنه كان أقل إزعاجا وتدخلا في شؤونه.

(١٠)

عندما كبر حجم الأثاث قليلا، وعرف مارثيال كما لم يعرف أحد سواه ما هو موجود تحت الأسرة، والخزائن، والمكتبات، أخفى عن الجميع سرا خطيرا: ليس للحياة أي سحر بعيدا عن حضور

الحـوذي مـيلتـشـور، فـلا والده ولا الأسـقـف ولا المذهب فـي مـواكب عيد القربان، لهم من الأهمية مثل ما تساويه أهمية ميلتشور.

لقـد جـاء ميلتـشـور من مكان نـاء. كـان حـفـيـدا لأمـراء مـهـزومين. وكـانـت هناك فـي مملكتـه أفـيـال، وأفـراس نـهـر، ونمور وزرافـات. والرجـال لا يعـملون هـنـاك، كـمـا يعـمل دون أوبنديو، فـي حـجـرات مظلمـة مملوءة برزم الأوراق. وهم يحـيـون لأنهم أكـثـر مكّرا من الحيوانات. فقد سحب أحدهم تمساح البحيرة الزرقاء الأعظم، بأن أدخل إلى جوفه رمحا مخبأ في أجساد اثنتي عشرة إوزة مشوية وملتصقة ببعضها بعضا. وكان ميلتشور يعرف أغاني سهلة الحفظ، لأن كلماتها بلا معنى، وتتكرر كثيرا. وكان يسرق الحلوى من المطبخ، ويهرب ليلا عبر بوابة الإسطبلات. وفي إحدى المرات، رمى رجال الحرس الأهلي بالحجارة ثم اختفى في عتمة شارع أمارغورا.

وفـي الأيام الماطرة، كـانت جـزمـتـه توضع بجـانـب موقـد المطبخ لتجف. وكـان مـارثـيـال يتمنى لو كـانت له قـدمـان تملآن مـثـل تلك الجـزمـة. اليـمنى منهـا كـانت تدعى كـالامـبين. وتدعى اليـسـرى كـالامـبـان. وذلك الرجل الذي كان يروض الخيـول الجـامـحـة بوضع إصبعين من أصابعه على شفاهها الغليظة فقط، ذلك السيد الذي يرتدي المخمل والمهاميز، ويعتمر قبعات عالية جدا، كان يعرف أيضا مـدى برودة الأرض المرمـرية فـي الصيف، وكـان يخـفي تحت قطع الأثاث حبة فاكهة أو قطعة حلوى مسروقة من الأطباق المخصصة للصالون الكبير. كان لمارثيال وميلتشور مخبأ سري مشترك مليء بالأقـراص واللوز يسـمـيـانه «أوري، أوري، أورا» وهمـا يضـحـكان ضحكات ذات دلالة. لقد استكشفا معا البيت من أعلاه إلى أسفله،

وكانا الوحيدين اللذين يعرفان بوجود سرداب صغير مليء بالقوارير الهولندية تحت الإسطبلات، وبوجود اثنتي عشرة فراشة مغبرة قد فقدت أجنحتها في صندوق زجاجي مكسور يقبع في عليّة مهجورة فوق حجرات الخادمات.

(١١)

عندما اكتسب مارثيال عادة كسر الأشياء، نسي ميلتشور وأخذ يتقرب من الكلاب. وكان هناك عدد متنوع منها في البيت. منها المرقط الضخم، وكلبة صيد مترهلة الأثداء، وكلب سلوقي أصبح هرما لا يمكنه اللعب، وكلب كثيف الفرو كانت الكلاب الأخرى تطارده في مواسم معينة، فتضطر الخادمات إلى حبسه.

كان مارثيال يفضل الكلب «كانيلو» الذي يسحب الأحذية من الحجرات ويحفر عن شتلات الورد في الفناء. وهو دائما أسود اللون بسبب الفحم أو مغطى بتراب أحمر، يلتهم طعام الكلاب الأخرى، وينبح بلا أي سبب ويخبئ العظام المسروقة عند حافة النافورة. ومن حين لأخر، كان يفرغ بيضة، وضعت لتوها، من محتوياتها بعد أن يطوح بالدجاجة التي وضعتها في الهواء بحركة سريعة من بوزه. كان الجميع يركلون «كانيلو». لكن مارثيال كان يمرض إذا هم أخذوا الكلب بعيدا. فيعود الكلب منتصرا، ملوحا بذيله بعد أن يكون قد ترك مهجورا فيما وراء المؤسسة الخيرية، ويستعيد بذلك موقعا لم تستطع الكلاب الأخرى بلوغه قط، بالرغم من مهاراتها في الصيد والحراسة.

كان كانيلو ومارثيال يبولان سوية. ويختاران في بعض الأحيان سجادة الصالون الفارسية ليرسما على صوفها أشكال غيوم

شاحبة تتسع ببطء. وكان ذلك يكلفهما عقوبة الضرب بالسوط. لكن الجلد بالسوط لم يكن مؤلما بالقدر الذي يتصوره الكبار. بل كان بالمقابل ذريعة عجيبة لافتعال وصلات من العويل، واستثارة عطف الجيران. وعندما اعتبرت المرأة الحولاء التي في العليّة أباه «متوحشا»، نظر مارثيال إلى كانيلو ضاحكا بعينيه. وكانا يبكيان أكثر قليلا ليحصلا على قطعة البسكويت، ثم ينسى كل شيء. كلاهما كان يأكل التراب، ويتعفر تحت الشمس، ويشرب من حوض الأسماك، ويبحث عن الظل والرائحة العطرة قريبا من أحواض الحبق. وفي ساعات الحر الشديد، كانت الأحجار الرطبة تزدحم بالناس. وكانت هناك الإوزة الرمادية، ذات الجراب المتدلي بين ساقيها المعوجتين، وكذلك الديك الهرم منتوف المؤخرة؛ والحرباء التي تقول «أورى، أورا»، مطلقة من عنقها ربطة عنق وردية؛ والحنش الحزين الذي ولد في مدينة لا إناث فيها؛ والجرذ الذي كان يسد جحره ببذرة من شجرة كاري. وفي أحد الأيام، نبهوا مارثيال إلى وجود الكلب، فقال:

- غواو، غواو.

لقد كان يتكلم لغته الخاصة. فقد أدرك الحرية القصوى. وكان يريد الآن أن يصل، بيديه، إلى أشياء موجودة خارج متناول يديه.

(١٢)

جوع، عطش، حر، ألم، برد. ما كاد مارثيال يقصر إدراكه على الإحساس بهذه الوقائع الأساسية، حتى تخلى عن الضوء الذي صار أمرا ثانويا بالنسبة إليه. كان يجهل اسمه. وبعد أن تجرد من

التعميد، وملحه المزعج، لم يعد بحاجة إلى الشم، ولا السمع، أو حتى البصر. كانت يداه تلامسان أشكالا ممتعة. لقد غدا كائنا حسيا ولمسيا تماما. كان الكون ينفذ إليه من جميع مساماته. عندئذ أغمض عينيه اللتين ما عادتا تميزان إلا عمالقة ضبابيين، ونفذ إلى جسم دافئ ورطب، يسوده الظلام، كان يموت، وحين أحس ذلك الجسد بوجوده مغلفا بكينونته نفسها، انزلق نحو الحياة.

لكن الزمن صار يجرى الآن بسرعة أكبر، مقلصا حجم ساعاته الأخيرة. كانت الدقائق تدق بسرعة انزلاق أوراق اللعب تحت إبهام مقامر.

رجعت الطيور إلى بيوضها وسط زوبعة من الريش. وخثرت الأسماك بطارخها مخافة عاصفة ثلجية من الحراشف في قاع البركة. وضمت أشجار النخيل سعفها لتختفي في الأرض كمراوح يدوية مغلقة. والتهمت الأغصان أوراقها وابتلعت الأرض كل ما هو منها. دوى صوت الرعد في الممرات. ونما الشعر على جلود القفازات. والبطانيات الصوفية تحللت لتكسو جزازاتها الخراف البعيدة المسلوخة. والخزائن، ورفوف المكتبات، والأسرّة، والصلبان، والمناضد، والنوافذ كلها خرجت طائرة في الليل بحثا عن جذورها القديمة في الغابات. وكل ما فيه مسامير أخذ يتفكك. وحملت سفينة شراعية، لا أحد يعرف أين كانت ترسو، رخام الأرضية والنافورة لتبحر به على عجل وتعيده إلى إيطاليا. معدات القتال، والأدوات الحديدية، والمفاتيح، والقدور النحاسية، وشكائم الخيل في الإسطبلات، ذابت كلها لتملأ نهرا معدنيا يندفع في أروقة بلا سقوف ليتغلغل إلى باطن الأرض.

كل شيء كان يتحوّل ويعود إلى شرطه البدائي. الطين عاد طينا، مخلفا خلاء مقفرا مكان القصر.

(١٣)

عندما جاء العمال في الصباح ليستأنفوا عملية الهدم، وجدوا العمل منجزا. وكان هناك من اخذ تمثال سيريس، الذي بيع في اليوم السابق إلى تاجر تحف. وبعد أن قدموا شكوى إلى النقابة، ذهب الرجال ليجلسوا على مقاعد المنتزه البلدي. وعندئذ تذكر أحدهم قصة غامضة عن مركيزة من كابيّانياس، كانت قد غرقت في عصر يوم من أيام مايو بين أزهار المالانغا في نهر المينداريس. لكن أحدا لم يعر اهتماما للحكاية، لأن الشمس كانت ترحل من الشرق إلى الغرب، والساعات الزمنية التي كانت تنمو إلى الجهة اليمنى في آلات قياس الزمن ستكون أطول دون شك بسبب الكسل، وهي التي ستقود حتما إلى الموت.

فرانثيسكو كولواني

Francisco Coloane

(تشيلي)

● ولد فرانثيسكو كولواني عام ١٩١٠ في مدينة كيمتشي الساحلية، في جزيرة «إيسلا غراندي دي تشيلوي».

● شارك منذ طفولته في حياة منطقة باتاغونيا القاسية كراع للأغنام. ثم حملته الحاجة إلى كسب قوته للعمل في البحر، فعمل بحارا وصائد حيتان.

● وقد أتاح له هذا التواصل مع الطبيعة التعرف على المشكلة الإنسانية في منطقة الجنوب القاسية.

● معظم شخصيات قصصه مستوحاة من تجربته المباشرة، مما عزز مكانة أعماله ومنحها قيمة الوثيقة والشهادة.

● كتب قصصا فضح فيها المجازر التي ارتكبها المعمرون والباحثون عن الذهب ضد هنود الأونا والياغان. كما كتب عن حياة ومشاكل رعاة الأغنام والبحارة بأسلوب رشيق ولغة بسيطة.

● نال عددا كبيرا من الجوائز الأدبية في بلاده، منها الجائزة الوطنية للآداب عام ١٩٦٤.

● من أبرز أعماله:

في القصة:

«رأس هورنوس» (١٩٤١)، «خليج بيناس» (١٩٤٥)، «أرض النار» (١٩٥٦).

في الرواية:

«غزاة انتارتيدا» (١٩٤٥)، «درب الحيتان» (١٩٦٢).

المسرح:

«أرض النار تتطفئ» (١٩٤٦).

خمسة بحارة وتابوت أخضر

Cinco marineros y un ataúd verde

في يوم من أيام الشتاء الأولى وصلت إلى بونتا أريناس سفينة متخففة من ثقالات توازنها إلى حد أن نصف ريشة مروحتها كانت خارج الماء، وكان تصفيحها الرصاصي اللون، المقشر بعض الشيء بسبب تقلبات المناخ أو عمليات الطلاء في عرض البحر، مشققا يكشف عن بقع كبيرة من طلاء الأساس الأحمر تشبه جِراحا لم يتوقف نزيف دمها بعد.

وعموماً، كان هذا النوع من السفن المتشردة يمر عرضا، أثناء رحلاته الطويلة، في مضيق ماجلان، وإذا ما توقفت سفينة منها في المرفأ، فإنها تفعل ذلك لإصلاح خلل في آلاتها أو لعطل حيوي ألمّ بها ليس إلا.

طلبت هذه السفينة من قيادة الميناء الإذن باستقبالها، وقد رفعت على الصاري الأمامي، إلى جانب راية طلب الإذن، راية أخرى كبيرة من قماش أسود وأصفر، وهي تعني «ميت على متن السفينة».

وفعلا، بعد ابتعاد مركب السلطات البحرية المختصة عن السفينة، أنزلت رافعتها زورقا، فيه أربعة مجذفين وريس، اتجه بتجذيف سريع نحو رصيف الميناء.

رسا الزورق قريبا من الرصيف الذي كان، في تلك الساعة من انحسار المدّ، أعلى من مستوى ماء البحر بكثير.

تسلق اثنان من طاقم الزورق الدعائم حتى بلغا سطح الرصيف، فألقى إليهما الذين ما زالوا في الأسفل بطرفي حبلين أخذا يسحبانهما بحذر، ليخرج من الزورق صندوق غريب مطلي باللون الأخضر، بدا كما لو أنهما يسحبانه من أعماق البحر. وعلى الرغم من أن الصندوق قد صُنع دون إتقان، فقد كان له الشكل التقليدي لنعش الموتى.

وُضع التابوت بحذر على حافة الرصيف، وصعد البحارة الثلاثة الآخرون بعد أن ثبتوا الزورق، ثم حلّوا أحزمة التابوت ورفعوه ليضعوه على أكتاف أربعة منهم، وانطلقوا مع خامسهم في موكب متكامل بحثا عن مخرج المرفأ. كانت الشوارع مغطاة بالثلج، فكان على البحارة أن يسيروا بحذر، ويطأوا بتردد، مما جعل أكتافهم تتمايل وكذلك التابوت، الذي يُذكِّر بلونه الأخضر، بقطعة من البحر محمولة على أكتاف أولئك البحارة.

عند مخرج المرفأ سألوا أحد الحراس عن الطريق المؤدي إلى المقبرة، وتوجهوا إليها بخطواتهم الموزونة. كان وقت الظهيرة تقريبا، ولم يصادفوا في الشوارع المقفرة والبيضاء أحدا من المارة خلا شخص هنا أو هناك يمضي مسرعا لتناول غدائه، ولكن استعجال أولئك المارة القلائل ما كان يمنعهم من نزع قبعاتهم بخشوع أمام لقائهم بالموت، وبعد أن يلتفتوا برؤوسهم عدة مرات، يتوقفون ليتأملوا الجنازة الغريبة للبحارة الأربعة الذين يحملون التابوت على أكتافهم.

ولدى مرورهم في أحد المنعطفات التقوا بشخص قصير، فظ المظهر، كشف عن رأسه الكبير ذي الأنف الأفطس، وانطلق، في

تصرف فريد، يسير إلى جانب النعش، خافضا بصره وقد كست وجهه علائم الحزن، كما لو كان من أقرباء الميت. إنه ميكي، الابن الأبله لصانع الحلويات، المعروف بعادته المأتمية في مرافقة أي جنازة يلتقي بها في طريقه؛ مبديا أقصى مشاعر الأسى... ولكن لا بد أنه وجد شيئا غريبا في تلك الجنازة، لأنه بعد أن سار قليلا، وضع قبعته على رأسه من جديد وغادر الموكب، مستأنفا تسكعه كأي مجنون طليق.

ما أن وصلوا خارج البلدة، حتى بدأت ريح محملة بالثلج بصفع حاملي التابوت، مما اضطرهم إلى حماية وجوههم بالإكثار من تبادل الحمل على أكتافهم، ليحتموا بالتابوت في جانبه الأقل تعرضا للريح. وكان واحد منهم يمضي دائما في المؤخرة، مستريحا، بتثاوب متجدد.

كان ترك التابوت في أحد هذه التبدلات من نصيب بحار عجوز بعض الشيء، يتخلل الشيب شعره، فتوقف عن المشي ليستريح، بينما كان يمر بالمنديل على وجهه المبلل بمزيج من نتف الثلج والعرق الذي يتلألأ على جبهته. إنه فوستر. أكثر المقربين من مارتين، مشعل الأنوار في السفينة، الذي يمضون الآن لدفنه. لقد كانا يتقاسمان القمرة نفسها في السفينة «غاستيلو»، ومن يدري لأي سبب كان يتعرق إلى ذلك الحد ... ربما لأن التابوت كان أثقل على كتفيه من ثقله على أكتاف رفاق «مشعل الأنوار» الآخرين.

وفجأة، اصطدمت عيناه بلوحة إعلان معلقة بشكل بارز على إفريز أحد البيوت كُتب عليها بحروف زرقاء وحمراء: «حانة

هامبورغو». ألقى نظرة وجلة على رفاقه الذين كانوا يبتعدون دون أن يلحظوا وقوفه، وهم يسايرون الريح بخطوات مستعجلة، وعاد ينظر إلى لوحة الإعلان ليدخل مسرعا إلى الحانة.

طلب من الخمّار، وهو أمام منضدة الكونتر، كأسا مزدوجة من الجن، وشربها في جرعة واحدة، ثم مرّ بظاهر كفه على شفتيه اللتين أعادتا امتصاص شاربه بلذة، وأحس بأنه قد استراح أكثر، ليس لأن حمل التابوت كان أثقل عليه مما هو على الرجال الآخرين، وإنما لأمر يتعلق بمشعل الأنوار مارتين، زميله في القمرة، الذي ألقت عيناه، وهما تدوران بالنظرة الأخيرة على الدنيا، في عيني فوستر، وفي روحه الوعرة بالجشع، ثقلا حاول هذا إزاحته دون جدوى.

لقد كان هو نفسه من اقترح دفنه على اليابسة وليس في البحر، لخوفه من خرافة بحرية قديمة تقول إن المدفونين في البحر يعودون دائما إلى بيوتهم، أو هم يترددون بكثرة على زيارة الأماكن التي عاشوا فيها، مُقدِمين في أحيان كثيرة على الانتقام ممن أساءوا إليهم. وإذا كان ثمة جريمة أو ما شابه ذلك، فإن الأسطورة تُشيد بالانتقام الذي تتوصل فيه روح الضحية إلى تقمص روح القاتل، إلى أن تصيبه بداء وتميته... خرافات، خزعبلات، ولكنها صحيحة أحيانا مثلها مثل «أنوار سان تيلمو» التي تُضاء في أعلى الصواري وتقاطعاتها قبيل غرق سفينة وهي وسط العاصفة!

وقبل أن تتجاوز السفينة رأس فروارد، وهو آخر أرض صخرية في جنوب القارة الأمريكية، كان هو، فوستر، قد سارع، مستعينا بمنشار ومطرقة، إلى صنع الصندوق الخشن من خشب الصنوبر،

واضطر إلى طلائه بدهان أخضر اللون، لأنه لم يكن على متن السفينة باستثناء هذا الطلاء إلا القار الأسود، ومن المستحيل استخدامه لأن جفافه يتأخر طويلا. لقد بادر أمام الريان، وأصر على عدم الإلقاء بجسد مارتين إلى البحر، كي يرقد بسلام تحت أرض اليابسة، وربما أتاح له ذلك أن يستريح هو أيضا بسلام...، لأنه إذا ما بقي طافيا على سطح الماء أو هائما في أعماق البحر، فإن ذلك الثقل الذي تلقيه على مزاجه آخر نظرة وجهها إليه مشعل الأنوار لن يريحه حتى لو شرب كل كؤوس الجن التي يستطيع احتساءها خلال حياته.

لم يتمكن من مواصلة تأملاته، فقد اقتحم حانة هامبورغو، بصخب كبير، رفاقه الأربعة الذين ما أن انتبهوا إلى أنه ليس وراءهم، حتى توقفوا برهة لينتظروه، ولكن أحدهم، كبحار ظمآن، رأى عرضا كذلك اللوحة الحمراء والزرقاء المعلقة على جدار البيت وقد كتب عليها «حانة هامبورغو»، ولم يراودهم أي شك في أن رفيقهم الغائب قد دخل برأسه إلى هناك ليشرب ببخل بعض الجرعات. فوضعوا التابوت في منخفض من الأرض قليلة العمران القريبة من البلدة، ما بين الرصيف والشارع، كي يحولوا قدر الإمكان دون ظهور التابوت المهجور دون احترام، واتجه الأربعة في أثر ذاك السافل الذي دخل ليشرب وحده.

لم يخف فوستر دهشته لدى استقبالهم، لكنه طلب على الفور جولة من الشراب للجميع، وهو يصنع من أحشائه قلبا، ثم طلب جولة أخرى وتقدم ليدفع الحساب، وهذا أمر غريب لما عرف عنه من بخل.

فقال له واحد منهم له شعر أحمر وفي وجهه ندب جرح بسكين وهو يضحك:

- هل ورثت مارتين حتى صرت كريما هكذا؟

- لقد كشفناك أيها العجوز الخبيث...! أراهن أنك تنفق من النقود التي كان يخبئها مارتين في مخبأ لا يعرفه أحد إلا أنت وهو!

مرّ فوستر بالمنديل على جبهته من جديد وحاول الابتسام، بينما كان يرفع الكأس إلى شفتيه، داعيا الآخرين لمشاركته بالإيماء.

وقال آخر:

- وكنت ستشرب وحدك، أليس كذلك أيها العجوز؟

- لا تكونوا هكذا، فدائما كنت أشرب وحيدا... إنما بنقودي!

فهتف ذو الشعر الأحمر:

- أحضر لنا زجاجة كاملة من الجن إذن! والعجوز فوستر يدفع!

نزع الخمّار سدادة قارورة فخارية ووضعها على الطاولة... اقترب البحارة وقرأوا على بطاقة القارورة: «لونه العنبري الشاحب دليل عتقه» ثم بدأوا يشربون.

كانت عاصفة الثلج في الخارج تتحول إلى تراكمات ثلجية، واقتربت أجنحة الثلج وحدها لترافق مارتين، كمقدمة من الرحابة فوق نعشه المهجور.

إذا التقى الأخضر بالأخضر

والأحمر التقى بمثيله،

فلن يضيع شيء حينئذ،

وكل سيواصل طريقه...

جميعهم كانوا يدندنون بهذه الأغنية التي كان مشعل الأنوار مارتين، يتذكر بها موضع الأنوار عندما تلتقي المراكب المبحرة ليلا، وهي أغنية يرددها كل مشعل أنوار أو مدير دفة كيلا يخطئ الاتجاه الذي عليه اتخاذه في تلك الظروف.

لقد أضيئت الأنوار داخل الحانة أيضا، لأن الليل قد أرخى سدوله في الخارج، دون أن ينتبه البحارة لقدومه. إنهم عمال بحر، صيادون، يشربون بصخب، بينما الدخان القوي المنبعث من غلايينهم يملأ جو الحانة بسديم ثقيل. وبين الحين والحين يضع أحدهم قطعة نقد معدنية في شق صندوق الموسيقى الملتصق بالجدار، فتنطلق في الجو أنغام موسيقى عسكرية بولونية قديمة أو موسيقى فالس، مصحوبة بهدير طبول وصنجات.

نظر أحد البحارة من النافذة إلى الظلام، وتأمل بنظرة حزينة كيف كانت ندف الثلج تتلاعب على الزجاج، وكأنها سرب من الفراشات تسعى لاختراق الزجاج نحو النور، ثم تنزلق كدموع كبيرة تخدش الزجاج المغطى بالبخار. ربما تكون الموسيقى، وتراقص أقدام الثلج المجنحة على الزجاج في إيقاعها المضطرب...، هي التي استدعت إلى ذهن البحار فكرة ملحة، فنهض ليتحدث همسا مع أحد العاملين في الحانة، ثم وقف ساهما لبرهة، وقد أسند مرفقيه إلى منضدة الكونتر وهو ينظر إلى رفاقه الأربعة، كان فوستر العجوز غافيا والثلاثة الآخرون يشربون بصورة متقطعة، وقد غرقوا في الخمر. أطلق صفيرا مكتوما لم يدركه سوى ذي الشعر الأحمر والوجه المجرح، الذي اقترب من منضدة الكونتر فورا.

عرض عليه الأول:

- أتذهب معي لنستمتع في الخارج؟

وأجاب ذو الشعر الأحمر وهو يفرقع بلسانه:

- آول رايت!

ولكنه تردد على الفور، وأضاف:

- ومارتين؟

فرد الآخر وهو يشير إلى الذين ما زالوا على الطاولة:

- فليدفنوه هم ... إذا كانوا يستطيعون ذلك!

خرجا متسللين وابتلعهما الليل. وبعد مرور وقت طويل انتبه من بقوا في الداخل إلى غيابهما، ولكن السكر كان متمكنا منهم، إلى حد أنهم ما عادوا يولون اهتماما للوقت والظروف التي هم فيها.

قال أحدهم متلعثما:

- هيا بنا... لندفن مارتين.

فقال الآخر:

- عندما يرجع الآخران!

وكان فوستر ما يزال نائما نوما ثقيلا، ويستيقظ بين حين وآخر ليمد يده فقط، ويرفع بها - وهي تترنح - الكأس إلى شفتيه الذاويتين، اللتين كانتا تنتعشان للحظات بملامسة الكحول الملتهب.

نشج أحدهم:

- يا لمارتين المسكين!

وكرر الآخر مرتلا:

- المسكين!

- أتذكر عندما دعانا جميعنا للشرب في توكوبيلا؟

- أجل أذكر، لقد دفع ثمن شرابنا جميعا بظرافته!
- لقد كان يعزف بالهورمونيكا التي لديه أفضل من هذه الموسيقى الشيطانية...

ومرت في ذهن السكارى للحظة صورة مشعل الأنوار في السفينة «غاستيلو» التي لا تُنسى، لقد كان أفضل رفيق على متن السفينة، وتذكروه وهو يبعث فيهم السعادة بهورمونيكته الفموية، أو في تلك المناسبات، عندما لم يكن يملك سنتا واحدا في جيبه، في أي بار من بارات أحد الموانئ، حيث كان يخرج للرقص مع أحد رفاقه، وهو يعزف الهورمونيكا مع إيقاع حقيقي من ملعقتين متعاكستين بين الأصابع، ويضبط إيقاع الرقص بالرأس، بالجبهة، بالجذع، في رقصة وحشية وغريبة. وبعد الرقص الذي يبعث الضحك في الزبائن، كان مارتين ينحني محييا، فيدعى في الحال ليحل ضيفا على جميع الموائد؛ ولكنه لا يستطيع عندئذ أن يشرب دون مشاركة رفاقه المقربين...

- أتتذكر غرق السفينة «ماريا كريستينا»؟
- عندما خلع صدرية النجاة وألبسها لفوستر...
- لينقذه من الغرق، لأنه كان عجوزا أكثر منه...
- وكاد يغرق وهو يضرب بذراعيه في البحر دون قميص نجاة...
- وها هو ذا العجوز الوغد ينام، دون أن يكلف نفسه عناء دفن من أنقذ حياته...
- ونحن أيضا...
- وهذان الخائنان اللذان ذهبا ولم يرجعا بعد...

- لا أحد... هيب...، هب ... إنها لدنيا كلبة... ما يكاد المرء يدير ظهره حتى ينساه الجميع ولا يذكره أحد ...

نشج أكثرهما سكرا وقد امتلأ وجهه بدموع كثيفة، وأضاف ما بين التفجع والنحيب:

- يا لمارتين المسكين!... «إذا التقى الأخضر بالأخضر، والأحمر التقى بمثيله، فلن يضيع شيء حينئذ، وكل سيواصل طريقه...»

أخذت صفارة إحدى السفن تثقب الليل المتقدم بصوت متقطع ومكروب، وسُمع الصوت داخل الحانة، أعلى من الصخب والموسيقى. لقد كان نباحا فيه شيء من صوت بشري يأتي من الفضاء الفسيح؛ كان صوتا زاعقا، مؤثرا. لقد كانت صفارة «غاستيلو»، تطالب ببحارتها الخمسة الذين نزلوا إلى البر في مهمة رحمة...

- هيا...، أيها البحارة...، هناك سفينة تنادي بحارتها منذ نصف ساعة...!

هكذا هتف صاحب الحانة وهو يهز اثنين من البحارة الذين اغفوا على الطاولة التي جلسوا إليها في الساعة الخامسة.

لقد كلفه إيقاظهما جهدا كبيرا. ولحسن الحظ أنه استطاع إيقاظهما في اللحظة نفسها التي عادت بها صفارة السفينة إلى إطلاق حسراتها المكروبة والطويلة، منادية من جديد على بحارتها ليلتحقوا بها قبل أن يحملها المد إلى مخرج المضيق.

وبينما هما يفركان عيونهما، تعرف البحاران في الصفير المتقطع على صوت صفارة «غاستيلو».

- إنها هي، سفينتنا!

وقال الآخر:

- إنها تنادي للإسراع!

فتساءل أحدهما وقد جلا عنه النعاس قليلا:

- ورفاقنا؟

ورد عليه صاحب الحانة:

- لقد ذهبوا... منذ عدة ساعات...، بحثا عن متع أخرى!

- وفوستر أيضا؟

- ومن هو فوستر؟

- الاثنان الآخران ذهبا بحثا عن نساء، أما فوستر، العجوز، فيجب أن يكون معنا!

- آه...! العجوز، أجل؛ رأيتُ أنه بقي معكم، ولكنه اختفى منذ بعض الوقت... لا بد أنه كلما صار أكبر سنا ازداد حبا للنساء!

وفي هذه اللحظة أخذت صفارة «غاستيلو» تنادي من جديد، بصفيرها المتقطع، على رجالها الذين ابتلعتهم المدينة، فانطلق آخر زبونين في حانة هامبورغو، وهما يضعان قبعتيهما على عجل.

اصطدما في الخارج بالليل، لكن اللسعات الثلجية التي كانت تخرج لهما من الظلمات صفعت وجهيهما وانتزعتهما من السكر قليلا.

فقال أحدهما، وقد تذكر بغتة التابوت الذي تركوه على الأرض:

- ومارتين؟

فهتف الآخر، بصوت كأنه صدى لهذا الترتيل الثمل:

- لن ندفنه...!

- فلنصمت إذن...، ولنتفق مع الآخرين في الزورق.

- سيدفنه أحدهم غدا عندما يجدونه! - رد الآخر بذلك الآخر، واختفيا كظلين أكثر قتامة من الليل ذاته، باتجاه الميناء.

ولكن أحدا في الميناء لم يجد أي تابوت في اليوم التالي، لأن الثلج قد هطل طوال الليل مكونا طبقة ارتفاعها حوالي متر من السماكة غطت ببياضها كل الأشياء، وكان الثلج مستمرا بالهطول. كان متقطعا، ولكنه غزير بشكل لا يسمح لأحد بالتفكير في البحث عن نعوش على جوانب الشوارع في ذلك اليوم، بل لا في ذلك اليوم ولا في الأيام الأخرى التالية التي راحت ترسخ من متانة الطبقة الثلجية، وبدا ما حدث كما لو أن مشعل الأنوار مارتين قد عاد إلى البحر من جديد، بعد مماته، مثل أرواح أولئك الغرقى الذين يلاحقون آثار سفنهم في الماء أو آثار من سببوا لهم العذاب في الحياة أو في ساعة مماتهم.

وفي ساعة متأخرة من صباح ذلك اليوم، بدأ دون إيريكو، صاحب حانة هامبورغو، بتنظيف محله، وكيف لا تكون دهشته عظيمة حين وجد وراء مجموعة من البراميل، في حجرة مجاورة لمرحاض الحانة، تُستخدم كمستودع، بحارا عجوزا أشيب، لا يزال نائما بعد السكر.

- وأنت؟ - قال له وهو يوقظه بمقدمة حذائه:

فردّ فوستر متلعثما، بينما هو ينهض واقفا ويفرك عينيه دون أن ينتبه بعد إلى المكان الذي هو فيه:

- أنا...؟ أنا من بحارة «غاستيلو»...

- من السفينة التي نادت على بحارتها طول الليل؟

- أجل ...!

ثم أضاف متلعثما:

- هل ذهب... رفاقي... وتركوني؟

- الآن تذكرت، لقد سألوا عن شخص يدعى فوستر! هل أنت فوستر؟

- أجل، أنا فوستر!

فقال دون إيريكو بلا مبالاة، وبقهقهة بهيمية:

- وأنا الذي قلت لهم بأنك ذهبت مع الآخرين...، بحثا عن نساء!

- والسفينة؟

- لا بد أنها ابتعدت كثيرا! فليس هناك سفينة تنتظر بحارا!

- أعطني كأس جن من فضلك! - دمدم فدمدم فوستر وهو يتلمس جيوبه بحثا عن نقود:

- لقد كنتُ بحارا فيما مضى أيضا! - قال له صاحب الحانة - وأبحرتُ خلال سنوات عديدة في السفينة «هاباخ»، وقد تركتني السفينة أكثر من مرة وكنتُ أعود لألتحق بسفينة أخرى!

توقفت أسنان فوستر عن الاصطكاك بتأثير الجن، فقد كان مخدرا بفعل برودة الليلة الماضية، وبعد أن استعاد تماسكه بكأس أخرى، اتجه إلى المرفأ.

قال له دون إيريكو محذرا:

- لا تخرج، فالثلج يهطل بغزارة!

فأجاب:

- ليس مهما، فربما لا تزال السفينة هناك.

ورد عليه صاحب الحانة:

- لو أنها كانت هنا لأطلقت صفارتها من جديد.

ومع ذلك، نزل فوستر إلى المرفأ ليتفحص الخليج المختفي وراء غمامة من الثلج المتساقط، وليجد هناك زوارق فقط مربوطة بقيودها، ومراكب ساحلية، وسفينة أو اثنتين من سفن شحن الصوف التي تأخرت لأمر مهم. لم تكن «غاستيلو» في أي ناحية؛ ولا بد أنها الآن في طريقها للخروج من فتحة المضيق الشرقية، لتتجه إلى أفريقيا، ثم إلى أوروبا بعد ذلك، وإلى البحر المتوسط، في رحلاتها الطويلة. وكما سمع كثيرا فإن هذه هي الرحلة الأخيرة للسفينة، فهي قديمة جدا، وقد صدر أمر بمنعها من الإبحار. لا بد أن أحد تجار هياكل السفن سيقتنيها ليفككها ويستغل بعض قطعها... قلبه المحزون انشق كأنه طعن بخنجر... فإذا هو لم يلتق بالسفينة «غاستيلو» في ميناء آخر من موانئ العالم، أو إذا ما فككوها كما هو الاحتمال الأكبر، فأين ستنتهي النقود التي خبأها مارتين في أعلى الصاري الأمامي، تحت أحد المصابيح، بجانب منصة الصاري؟ من هو المحظوظ الذي سيكون سيد ذلك الكنز الصغير الذي اقترف هو من أجله أحقر عمل في حياته، عندما لم يقدم لرفيقه كأس الماء والدواء في لحظات احتضاره؟

حدث ذلك في منطقة القنالات، بعد قليل من اجتياز ممر أبيسمو، عندما أحس مارتين بأن حالته تسوء وناداه ليكشف له عن المكان حيث خبأ مدخراته خلال سنوات إبحاره في سفينة الشحن «غاستيلو»، وهو المال الذي كان يفكر بأن يتقاعد به ويعود إلى القرية التي نشأ فيها، في الأراضي الداخلية من منطقة بونتي فيدرا، حيث ما زالت تعيش أمه العجوز، التي ستتحول إليها هذه

المدخرات الآن. إنهم يعرفونه في مركز قيادة شرطة «بيغو» بسبب المبالغ الشهرية التي اعتاد إرسالها إليها؛ وهناك يستطيع فوستر أن يترك لها المدخرات؛ ولكن إذا ما أتيح له بعض الوقت، فمن الأفضل أن يمضي بنفسه إلى القرية ليسلمها النقود. كانت هذه هي رغبته الوحيدة والأخيرة!

ومنذ تلك اللحظة بدأت تبرز في أعماق فوستر، غمامة بطيئة ولكنها متسلطة وقاسية. وقال لنفسه: «ما هذا؟ أيمكن لي أن أكون شريرا إلى هذا الحد؟» لقد قام على العناية بمارتين بحرص خلال مرضه؛ ولكن بعد أن كشف له السر، أخذ شيء مريب يشوش كل ما يفعله مع المريض. فأصبح يعرض عنه، بل واجتاحته رغبة جامحة في أن يموت بأسرع ما يمكن لكي يتوقف عن كل ذلك الخداع... ولماذا يريد له الموت بعد كل شيء؟ أمن أجل المال الذي في أعلى الصاري؟ لا! لا يمكنه أن يكون شريرا إلى حد الاستيلاء على ذلك المال الذي ادخره الآخر لنفسه ولعجوز بائسة!

وأخيرا... سيرى ما الذي سيحدث لهذه النقود... لا بد أن يوصل شيئا منها إلى يدي العجوز...، لأنه مبلغ وفير يكفي له ولها.

ارتعش وهو يكتشف في نفسه، للمرة الثانية، هذا الخاطر المشؤوم! أهو شرير إلى هذا الحد؟ وإذا ما كان خبيثا جدا هكذا في الواقع، ولم يكتشف نفسه إلا الآن أمام هذا الحدث، أمام هذا الامتحان من القدر، فلماذا لا يحتفظ لنفسه بكل المال ويعتزل إلى الأبد العمل في هذه السفن القديمة، التي تتخذ لها مسارات مريبة وتحمل شحنات أكثر ريبة، والتي تنتهي إليها حثالة الموانئ؟ المال هو كل شيء في الحياة وها هي ذي فرصته!

أكان هذا هو ما جعله يتردد كثيرا، في أثناء احتضار مارتين، عندما أراد إعطاءه كأس ماء مع الدواء الذي طلبه منه بإلحاح يائس! ألم يكن كأس الماء ذاك يعني الاستمرار في الحياة لبعض الوقت! ومن يدري إذا ما كانت الحياة كلها...، فمن ذا الذي يعرف نوايا الرب؟

ومع ذلك، فقد تباطأ في تقديم كأس الماء والدواء له، كما لو أن قيدا لا مرئيا كان يعوقه، مكبلا قدميه.

حتى أن مارتين نفسه تنبه إلى نوايا صديقه، وكان عندئذ أن وجه مشعل الأنوار تلك النظرة الغريبة إلى زميله الشرير. لقد كانت النظرة الأخيرة، نظرة لحظة الموت؛ لكن وميضها غمر القمرة، وعبق في الجدران، ولم تدعه ينعم بعدها ولو بالنوم.

وبوميض الرعب والكراهية ذاك، انتقلت تلك النظرة إلى الأبدية، وبقيت في الجو كنفحة أخرى من نفحات الألم أمام الشر الإنساني. وبدأ يلفه هواء متخلخل أينما حلّ منذ اليوم الذي مات فيه مارتين، سواء أكان يدير ذراع دفة السفينة أم كان يكشط الطلاء في الخارج، وكان ذلك الهواء يضمخه على الدوام بقلق غريب.

وفي ساعة الهجران القاسية هذه، عندما تأكد له بصورة حاسمة إبحار السفينة «غاستيلو» مع كنزه الصغير المخبأ في أعلى الصاري إلى بحار أخرى، ازداد تخلخل الجو، على الرغم من هطول الثلج، الذي كانت أزهاره البيضاء تأتي متعددة لتلامسه، كأن أحدا من بعيد يحاول التعرف على الرجل...، متفاجئا أن بإمكانه أن يبدل نفسه فجأة بإنسان آخر، بهذا الشكل وبهذه...

انطلق فوستر يتسكع في الميناء مثل شبح يبحث عن شبح آخر... وشيئا فشيئا راح يتنبه برعب إلى أن الخرافة البحرية

آخذة بالاكتمال فيه، وأنه هو نفسه من كان يحمل ذلك الشبح الآخر في داخله.

الضياع، الهجران، افتقاد المال، ضاعفت كلها من تأنيب الضمير وأحدثت أثرا في سنوات حياته. واحتفظ بالسر وهو يضمحل، فلم يسأل أحدا ولم يخبر أحدا بمسألة التابوت الغريبة، الذي كان يبحث عنه باجتهاد... فقد توالت الأحداث أيضا بصورة جعلته يجهل تماما المكان الذي ترك رفاقه التابوت فيه. ثم بعد ذلك، جاءت تلك السكرة...، حسن، لقد كانت تلك السكرة هي السبب في كل ما تلاها...

أين جثة مارتين؟ أتكون قد انزلقت بصورة سحرية مبهمة على المنحدرات الثلجية، عائدة إلى البحر من جديد، كي لا تتركه يحيا بسلام؟ أتكون روح مارتين قد اندمجت في روحه شاطرة إياها إلى روحين وباعثة فيها الألم، بينما لا يزال جسده على وجه الأرض أو هائما في الأعماق البحرية؟

استقصى في المقبرة بتكتم، ولكن أحدا لم يفده بشيء. ولم يكن دون إيريكو، صاحب الحانة، يعرف شيئا كذلك. الجميع كانوا يجهلون ذلك الحدث السحري.

صارت حياته ضيقا لا يطاق. وهام على وجهه مثل متسول من باب إلى باب، يشعل المواقد صباحا في الحانات والبارات مقابل كسرة من الخبز أو كأس من الخمر. ثم لم يعد بمقدوره بعد ذلك الاستمرار في أداء هذه الأعمال البيتية التافهة، فغاب عنه الكحول الذي كان يقيم أوده.

وفي صباح أحد الأيام عثروا عليه متجمدا في مغارة صغيرة كونتها عوامل النحت في الجروف الصخرية خارج الميناء، في

الجهة الشرقية من البلدة. كانت سحنته تحمل ملامح من يتجمدون، وكانت عيناه المفتوحتان، الثابتتان، تنظران بحدة نحو الشرق، نحو مصب المضيق الذي تضيع في أفقه صواري تلك السفن القديمة المتشردة في البحار، والتي تمر عرضا في المرفأ أو تدخله إذا كانت تريد إصلاح عطل ما أو إنزال مريض إلى البر فقط.

وأتى ما يسمى «صيف سان خوان القصير»، فضاعفت شمس الجنوب الشاحبة من حرارتها لبضعة أيام، مذيبة طبقة الجليد السميكة التي كونتها العواصف السابقة، وفي أحد الشوارع الخارجية، المؤدية إلى المقبرة، ظهر في أحد الأيام صندوق ميت غريب الشكل، مطلي باللون الأخضر وفيه جثة متجمدة. لقد استنفرت تلك اللقية السلطات؛ فقامت الشرطة بإجراء التحريات، وتشريح الجثة؛ ولكن أحدا لم يتوصل إلى أي شيء مؤكد.

ميكي وحده، الابن نصف المجنون لصانع الحلوى، عندما رأى التابوت وهم يُخرجونه من حجرة الجثث لينقلوه إلى المقبرة، حمل قبعته في يده وأنزلها إلى أحد جانبيه ليرافقه، وحاول أن يقول شيئا، فأشار بأصابعه الخمسة، وتمايل مثلما يفعل البحارة، وأشار إلى التابوت بإلحاح؛ ولكن أحدا لم يفهم أنه إنما أراد بتلك الإيماءات أن يقول لهم:

«خمسة بحارة وتابوت أخضر».

فيرخيليو بينيرا

Virgilio Piñera

(كوبا)

- ولد فيرخيليو بينيرا عام ١٩١٢، وتوفي عام ١٩٧٩.
- كاتب مسرحي وقصاص وروائي وشاعر.
- شارك في إصدار مجلة «أوريخينس» التي لمت شمل الكتاب الكوبيين الطليعيين في الأربعينيات، وعمل سكرتيرا لتحرير مجلة «تيكلون».
- هاجر عام ١٩٤٦ إلى الأرجنتين، وأقام في بوينس آيرس حتى عام ١٩٥٨.
- كتابات فيرخيليو بينيرا مفاجئة في إطار الأدب الأمريكي اللاتيني، فهي مشحونة بالغم والتشاؤم، ولكنها تعبق في الوقت نفسه بالسخرية والهلوسات، مما جعل النقد يعتبره رائد الاتجاه العبثي في الأدب الأمريكي اللاتيني.
- أهم عمل يمثل توجهه هذا هو مسرحية «هواء بارد»، حيث يقدم تحليلا قاسيا للبورجوازية الصغيرة الأمريكية اللاتينية.
- من أبرز أعماله:

في الرواية:

«لحم رينه» (١٩٥٢)، «مناورات صغيرة» (١٩٦٣)، (ضغوط وألماس) (١٩٦٦)

في القصة:

«قصص باردة» (١٩٥٦)، «القصص الكاملة» (١٩٦٤)، «الذي جاء لإنقاذي» (١٩٧٠).

في الشعر:

«الغضب» (١٩٤١)، «يشعر ونثر» (١٩٤٤).

في المسرح:

«إليكترا غاريو» (١٩٤٨)، «إنذار زائف» (١٩٤٨)، «الزفاف» (١٩٥٨). «النحيل والبدين» (١٩٥٩)، «هواء بارد» (١٩٥٩).

السيد الوزير

El señor Ministro

السيد الوزير هو الآن شخص آخر. «زلة» خفيفة مقترفة في ظروف مريبة كان لها فضيلة قلب حياة السيد الوزير رأسا على عقب، إلى حد أنه صار من المعهود، بين شخصيات الحكومة، والسلك الديبلوماسي المعتمد، والبيروقراطية العليا، القول، لدى الإشارة إلى مسيرة السيد الوزير اللامعة: قبل الزلة وبعد الزلة... ولكن، فلنذهب إلى الوقائع.

لا، فلنذهب قبل ذلك إلى الوزير. متكلف، متأنق، جليدي، متحفظ، منطقي. سيدات وأطفال. أصدقاء متنفذون؛ ومتنفذ هو نفسه. وقبل كل شيء، واثق؛ شديد الوثوق بنفسه. «لا، لا يمكن لشيء أن يحدث. من المكان الذي أنا فيه إلى حيث يصل البصر هناك أمتار كثيرة». إنه واثق على الدوام. هذه الكلمات لهذا الشيء وهذه الكلمات الأخرى لذاك... لا يمكن الإنكار بأنه لا بد من الانحناء أمام رجل كهذا.

في أحد المساءات، في تمام الساعة الخامسة، يخرج الوزير من بيته. من المهم إبراز هذا الحدث، الذي يبدو بريئا في الظاهر، لأن خروجه من بيته في الخامسة لا علاقة له، ولا يشبه في شيء خروج ملايين الأشخاص الآخرين في هذه الساعة من بيوتهم. لا، فالوزير له خروجه. الخروج الواثق.

إذن، يا للثقة التي أشعر بها وأنا أروي هذه الحكاية! خرج الوزير... كان هناك مجلس وزراء في هذا المساء. المساء البديع. المدينة مع

مُربِّيات أطفال وعربات مثلجات. الحياة البديعة. السائق يقود واثقا، يمضي هكذا. ينعطف هناك، الآن ينحني بعض الشيء، نفير، السيارة تتوقف. قصر الاجتماعات الصارم. إنها الخامسة والنصف.

الثقة تسبق الوزير. لاحظ أن الوزير يمشي فوق سجادة من الثقة. لا يمكنه أن يتعثر، مستحيل! ولا عثرة، غير معقول! ولا يمكنه الوقوع في كمين، هراء! ولا تلقي خبر سيئ، حماقة! ويمشي. ويحيّي. ويدخن بتلذذ. ويقترب أكثر فأكثر وثوقا. يجتاز ردهات، يخلّف وراءه قاعات، يبتعد عن قاعات انتظار صاخبة. وينتهي كل شيء في قاعة الاجتماعات الفخمة. لا، لماذا الافتراض، لماذا التخمين، لا، فخلال لحظة ستضعه الثقة هناك (لينا وبقفازات).

ها هو ذا يدخل، ها هو يلج لينا وبقفازات، الباب ينغلق. كم هي واثقة قصتي! يضع حقيبته فوق منضدة، والمعطف على كرسي يتركه؛ يضع يدا هنا، والأخرى هناك. ليستا أقل من يديّ السيد الوزير! لا حاجة إلى القول إن المكان كله، وبصورة آلية، صار مفروشا بسجادة من الثقة. وعندئذ يسمح الوزير لنظرته بأن تجول برشاقة على حقيقة مؤثرة.

النظرة تَجُول، تَجُول... فراشة شاردة. وفجأة تتوقف عن التجوال. آه، كم هي واثقة قصتي! النظرة تُفاجأ. السيد الوزير يُفاجأ. فذاك الذي رأته النظرة، أليس هو، بالمصادفة، المطبخ الكبير لقصر الاجتماعات؟ أليست الحقيبة على منضدة لتقطيع اللحم؟ أليس المعطف على مقعد بلا مسند؟ وهذه اليد، ألا تضغط، دون وعي، ولكنها تضغط، على حبة بطاطس، وهذه اليد الأخرى، هناك، ألا تبعثر بعض أدوات المائدة.

لا يمكن للوزير أن ينكر ما هو جلي: إنه في المطبخ الكبير. تمر في ذهنه عوالم، هاويات. الوضع بالغ الحرج. ولا يمكن التراجع، الخروج، العودة على خطاه، التفسير. لا! إلى الأمام دوما! فيما بعد ستأتي التفسيرات، التفجعات، الدعابات، الأيام الجديدة. أما الآن فالسيد الوزير في المطبخ الكبير، إنه مُحتَجَزٌ في المطبخ. يتواصل مرور العوالم في ذهنه. هذه اليد تتحرك، وتتحرك اليد الأخرى. يبدو كما لو أن الثقة تستحوذ مجددا على السيد الوزير. فهو يظهر الآن واضعا المئزر؛ يُرى بقلنسوة الطهاة على رأسه؛ إنه يكسر بيضا ويخفقه باندفاع صحي؛ يضيف لحم الخنزير؛ وبطاطا ما زالت تعبق برائحة الأرض؛ وبصلا، وكرَفسا، ودقيق قمح، وملحا. كل شيء يُنَفَّذُ خطوة خطوة؛ دون تسرع، دون رعونة. الثقة تتعزز. عملية قذف العجة في الهواء هي انتصار للهدوء على الهلع. ويتلقاها طبق ضخم مذهب. يحمل السيد الوزير الطبق بين يديه. يخرج من الباب. الثقة، كالعادة، تسبقه. ويمشي ويتقدم، وتنتشر رائحة لذيذة. قصتي تنفجر بالثقة! يجتاز الوزير ردهات، يخلّف وراءه قاعات، يبتعد عن قاعات انتظار صاخبة. الشارع يتبدى الآن مستحما بنور محتضر. وأخيرا بوابة القصر المهيبة. خطوات أخرى ويجتازها السيد الوزير. السيارة اللامعة تنتظر؛ السائق إلى جانب بابها. السيد الوزير يترك نفسه يهوي، لينا وبقفازات، على المقعد. تنطلق الليموزين. المساء بديع. المدينة مع مُرَبِّيات أطفال وعربات مثلجات. الحياة رائعة. السائق يقود واثقا، يمضي هكذا، ينعطف هناك، الآن ينحني بعض الشيء، السائق يتوقف. بيت السيد الوزير. إنها السادسة والنصف.

رباه، يا للثقة التي اشعر بها حيال قُرَّائي! الثقة تُثملني! السيد الوزير يخرج. السيارة، المساء، السائق، القصر، البوابة. قاعات يخلفها في مروره، قاعات انتظار صاخبة، ردهات أبهاء تزخر برجال البلاط. ويترك النظرة يتركها تتجول. والنظرة تتجول، تتجول... والطبق يتركه على منضدة تقطيع اللحم. ينفجر من شدة الثقة! بيض، لحم خنزير، بطاطس، كرفس، ملح، بصل. الثقة تخنق قرائي! العجة تطير في الهواء. الطبق الذهبي. ردهات، قاعات انتظار، صالونات، المساء المحتضر، البوابة، الليموزين، السائق، عربات المثلجات، مربيات الأطفال. الثقة تنفجر مثل رمانة يدوية! وأنا لا أستطيع الحيلولة دون عدم تمكن الوزير من عمل شيء آخر.

خوليو كورتاثر

Julio Cortázar

(الأرجنتين)

● ولد في بروكسيل (بلجيكا) عام ١٩١٤، حيث كان أبوه يقوم بمهمة ديبلوماسية. ورجع إلى الأرجنتين مع أبويه عام ١٩١٩.

● تلقى دراسته الابتدائية والثانوية في الأرجنتين، ثم اضطرته ظروفه المادية إلى التخلي عن الدراسة الجامعية، ليعمل مدرسا للغة الفرنسية.

● في عام ١٩٥١ حصل على منحة قصيرة للدراسة في فرنسا، وبعد انتهاء فترة المنحة، مارس عددا من الأعمال للبقاء في باريس، إلى أن حصل على وظيفة مترجم في اليونسكو، فاستقرت إقامته منذ ذلك الحين في العاصمة الفرنسية، لكنه كان يقوم بزيارات شبه سنوية إلى بلدان أميركا اللاتينية (وخصوصا الأرجنتين وكوبا والمكسيك ونيكاراغوا).

● دخل عالم الأدب بمجموعة شعرية بعنوان «حضور»، أصدرها بالاسم المستعار «خوليو دينيس» ثم أتبعها بعمل مسرحي «الملوك» عام ١٩٤٩.

● يعتبر إلى جانب غارسيا ماركيز وكارلوس فوينتس وماريو بارغاس يوسا، أحد أعمدة ما عرف بتيار الواقعية السحرية في أميركا اللاتينية.

● توفي في باريس عام ١٩٨٤.

● من أبرز أعماله:

في الرواية:

«الجوائز» (١٩٦٠)، «لعبة الحجلة» (١٩٦٣)، «٦٢: موديل للتركيب» (١٩٦٨) «كتاب مانويل» (١٩٧٣)، «الامتحان» (١٩٨٦)، «يوميات أندريس فافا» (١٩٩٥).

في القصة:

«كتاب الحيوان» (١٩٥١)، «نهاية اللعبة» (١٩٥٦)، «الأسلحة السرية» (١٩٥٩)، «كل النيران النار» (١٩٦٦)، «أحدهم يمضي هناك وقصص أخرى» (١٩٧٧)، «نحب غليندا كثيرا» (١٩٨٠).

نصوص متنوعة:

«حول اليوم في ثمانين عالما» (١٩٦٧)، «الجولة الأخيرة» (١٩٦٩)، «فانتوماس ضد مصاصي الدماء متعددي الجنسيات: يوتوبيا قابلة التحقيق» (١٩٧٥)، «المدعو لوقا» (١٩٧٩)، «نيكاراغوا، عذبة بعنف شديد» (١٩٨٣)،

دراسات:

«رحلة حول منضدة» (دراسة حول الأدب والالتزام ١٩٧٠)، «أراض» (١٩٧٨)، «نصوص سياسية» (١٩٨٤)، وثلاثة مجلدات من الأعمالً النقدية.

استمرار الحدائق

Continuidad de los parques

كان قد بدأ بقراءة الرواية قبل بضعة أيام. وتركها بسبب أعمال تجارية مُستعجَلة، وعاد إلى فتحها وهو عائد في القطار إلى المزرعة؛ كان يستسلم ببطء لحبكة الرواية، لرسم شخصياتها. وفي هذا المساء، بعد أن كتب رسالة إلى وكيل أعماله وناقش مع مدبر المنزل قضية تتعلق بعقد محاصصة المزرعة، رجع إلى الكتاب في هدوء مكتبه المطل على حديقة أشجار البلوط. كان يقبع باسترخاء على مقعده المفضل، موليا ظهره للباب الذي يضايقه كاحتمال مزعج للتدخُّلات، ترك يده اليسرى تداعب، مرة بعد أخرى، مخمل المقعد الأخضر وراح يقرأ الفصول الأخيرة. كانت ذاكرته تحتفظ دون مشقة بأسماء الأبطال وصورهم؛ واستغرق من فوره تقريبا في الوهم الروائي. كان يستمتع باللذة المنحرفة إلى حد ما في الأخذ بالانفصال، سطرا فسطرا، مبتعدا عما يحيط به، والإحساس في الوقت نفسه بأن رأسه يستند بصورة مريحة إلى مخمل مسند المقعد المرتفع، وبأن السجائر ما زالت في متناول يده، وأن هواء الغروب يتراقص تحت أشجار البلوط فيما وراء النوافذ الواسعة. وكلمة بعد كلمة، كان يستغرقه خيار البطلين الدنيء، منقادا للصور التي كانت تنتظم وتكتسب لونا وحركة، فكان شاهدا على اللقاء الأخير في الكوخ الريفي. دخلت المرأة أولا بحذر ووجل؛ وها هو ذا العشيق قد وصل الآن، وجهه مجروح بضربة غصن. وبصورة مدهشة، راحت هي توقف نزيف الدم بقبلاتها، ولكنه كان يصد

مداعباتها، فهو لم يأت لتكرار طقوس عاطفة سرّية، يحميه عالم من الأوراق اليابسة والدروب المختلسة. كان الخنجر يكتسب دفئا بالتصاقه بصدره، وإلى أسفل تنبض الحرية الكامنة. حوار لاهث يجتاز الصفحات مثل جدول أفاع، وإحساس بأن كل شيء محسوم منذ الأزل. حتى هذه المداعبات التي تورط جسد العشيق كأنها تريد كبحه وثنيه عن عزمه، ترسم بصورة منكرة صورة جسد آخر لا بد من تدميره والقضاء عليه. لم يُنس أي شيء: إثبات البعد عن مسرح الجريمة، المصادفات، الأخطاء الممكنة. وكل لحظة، ابتداء من هذه الساعة، لها وظيفتها المقدرة بدقة. كانت المراجعة المزدوجة الخالية من الرحمة تكاد لا تتوقف إلا لتداعب يدٌ خداً. وبدأ الليل يخيم.

دون أن يتبادلا النظر، مرتبطين بمتانة إلى المهمة التي تنتظرهما، افترقا عند باب الكوخ. كان عليها أن تتخذ الدرب المتجه شمالا. ومن الدرب المقابل، التفت هو هنيهة ليراها تركض بشعرها المُفلت. ركض بدوره، متواريا بالأشجار والأسيجة، إلى أن ميّز أخيرا، في ضبابية الغسق الخبازية، الممر المؤدي إلى المنزل. ما كان ينبغي للكلاب أن تنبح، وهي لم تنبح. والقهرمان، في هذه الساعة، ليس موجودا، ولم يكن موجودا. صعد درجات المدخل الثلاث ودخل. ومن الدم الذي يعدو خببا في أذنيه، كانت تصله كلمات المرأة: في البدء قاعة زرقاء، ثم رواق، وبعده درج مغطى بالسجاد. وفي الأعلى بابان. لا أحد في الغرفة الأولى، ولا أحد في الثانية. باب الصالون، وعندئذ، والخنجر بيده، أضواء النوافذ الواسعة، ومسند مقعد أخضر مخملي مرتفع، ورأس الرجل الذي على المقعد مستغرقا في قراءة رواية.

الليل مستلقيا

La noche boca arriba

وكانوا يخرجون في بعض العهود لاصطياد الأعداء؛
ويطلقون على ذلك الاسم الحرب المُزْهرة.

فكر وهو في منتصف رواق الفندق الطويل بأنه لابد أن يكون الوقت قد تأخر، فأسرع بالخروج إلى الشارع، وبإخراج الدراجة النارية من الركن الذي سمح له بواب المبنى المجاور أن يوقفها فيه. ورأى في محل المجوهرات، الذي على الناصية، أن الساعة تشير إلى التاسعة إلا عشر دقائق؛ سيصل قبل الموعد إلى حيث هو ذاهب. كانت الشمس تنفذ بين العمارات العالية في مركز المدينة. وقد ركب، هو - لأنه من أجل أن يفكر، لم يكن يملك اسما لنفسه - الآلة مستمتعا بالمشوار. كانت الدراجة النارية تهدر بين ساقيه، وريح باردة تسوط ساقي بنطاله.

خلّف وراءه أبنية الوزارات (الوردية والبيضاء) وسلسلة المتاجر ذات الواجهات المتلألئة في الشارع المركزي. وإنه يدخل الآن أكثر أجزاء طريقه متعة، حيث النزهة الحقيقية: شارع طويل تحف الأشجار بجانبيه، وحركة مرور قليلة، وفيلات فسيحة تمتد حدائقها حتى الرصيف، وتكاد لا تفصلها عنه سوى أسيجة واطئة. ربما كان ساهيا بعض الشيء، لكنه كان يلزم الجبهة اليمنى كما تقتضي الأنظمة، ويمضي مستسلما لصفاء هذا النهار الذي لم يكد يبدأ وتوتره الخفيف. وربما كان استرخاؤه غير الإرادي هو الذي حال دون تفاديه الحادث. حين رأى المرأة الواقفة عند الناصية تندفع إلى

الشارع على الرغم من الضوء الأخضر، كان الوقت قد فات للجوء إلى الحلول السهلة. ضغط المكابح بقدمه وبيده، وانحرف نحو اليسار؛ سمع صرخة المرأة، ثم فقد الرؤية في لحظة الاصطدام. كان ذلك أشبه بالإغفاء بغتة.

صحا من الغيبوبة بصورة مفاجئة. كان هناك أربعة أو خمسة شبان يسحبونه من تحت الدراجة النارية. وكان يحس بطعم ملح ودم، وبألم في إحدى ركبتيه، وحين رفعوه صرخ، لأنه لم يستطع أن يتحمل الضغط على ذراعه اليمنى. شجعته، بالمزاح والتطمينات، أصوات بدا له أنها لا تنتمي إلى الوجوه المتدلية فوقه. وكان عزاؤه الوحيد هو سماعه أحدهم يؤكد أن اجتيازه المنعطف كان صحيحا. سأل عن المرأة محاولا السيطرة على الغثيان الذي كان يصل إلى حنجرته. وبينما هم يحملونه إلى صيدلية مجاورة ووجهه إلى أعلى، علم أن المرأة التي تسببت في الحادث لم تصب إلا بخدوش في ساقيها. «لم تكد تلمسها إلا قليلا، لكن الصدمة طوحت بالدراجة جانبا... » آراء، ذكريات، بتمهل، أدخِلوه على ظهره، هكذا جيد، وقدم له شخص يرتدي رداء طويلا رشفة من سائل سكّنت من آلامه في عتمة صيدلية صغيرة من صيدليات الأحياء.

وصلت سيارة الإسعاف الشرطية بعد خمس دقائق، فوضعوه على حمالة لينة تمدد فوقها براحة. وبوعي كامل، مع معرفته أنه تحت تأثير صدمة فظيعة، قدم المعلومات المطلوبة للشرطي الذي يرافقه. لم تعد ذراعه تؤلمه تقريبا؛ وكان الدم يقطر على وجهه كله من جرح في حاجبه. وقد لحس شفتيه مرة أو مرتين ليرشف قطرات الدم تلك. أحس بأنه على ما يرام، فالأمر عبارة عن حادث،

سوء حظ؛ سيمضي بضعة أسابيع ساكنا، ثم ينتهي كل شيء. قال له الحارس إن الدراجة لم تصب بأضرار كبيرة كما يبدو. فقال هو: « هذا طبيعي، فقد تلقيتها بجسدي...» ضحكا كلاهما، وصافحه الشرطي لدى الوصول إلى المستشفى وتمنى له حظا طيبا. عاوده الغثيان رويدا رويدا، وبينما هم يحملونه على نقالة ذات عجلات إلى جناح في أقصى المستشفى، تحت أشجار تغص بالعصافير، أغمض عينيه وتمنى لو أنه كان نائما أو مُخدرا بالكلوروفورم. لكنهم استبقوه فترة طويلة في حجرة تعبق برائحة مستشفى، حيث ملأوا استمارة ونزعوا عنه ملابسه، وألبسوه قميصا رماديا خشنا. كانوا يحركون ذراعه بحذر، دون أن تؤلمه. وكانت الممرضات يمزحن طوال الوقت. ولولا المغص في معدته، لأحس بأنه على ما يرام، بل ولكان أحس بالسعادة تقريبا.

نقلوه إلى صالة الأشعة، ثم نُقل إلى غرفة العمليات بعد عشرين دقيقة من ذلك، وفوق صدره الصورة الشعاعية التي ما تزال رطبة، وقد بدت كأنها لوحة قبر سوداء. دنا منه شخص طويل ونحيل يرتدي ثوبا أبيض، وراح يتفحص الصورة الشعاعية. كانت يدا امرأة تسويان وضع رأسه، وأحس بأنه ينقل من عربة نقالة إلى أخرى. اقترب منه الرجل ذو الرداء الأبيض ثانية، وكان يبتسم، ويحمل في يده اليمنى شيئا لامعا. ربت له على خده وأشار إلى شخص يقف وراءه.

• • •

لو أنه حلم لكان حلما عجيبا، لأنه مترع بالروائح، وهو لم يحلم بروائح قط. في البدء رائحة مستنقع، فإلى يسار الطريق، كانت تبدأ المستنقعات، والوحول الرجراجة التي لا يعود منها أحد. لكن

الرائحة تلاشت، وحل محلها عبق مُرَكَّب وقاتم مثل الليل الذي كان هو نفسه يتحرك فيها هاربا من الأزتيك[1]. وكان كل شيء طبيعيا جدا، لأنه ينبغي عليه الهرب من الأزتيك الذين يسعون إلى اصطياد رجل، وكانت فرصته الوحيدة هي في الاختباء في اكثر أنحاء الغابة كثافة، مع الحرص على عدم الابتعاد عن الطريق الضيقة التي كان الموتيك[2] وحدهم يعرفونها.

كانت الرائحة هي أكثر ما يعذبه، وكأنما هناك، حتى في القبول المطلق للحلم، شيء يتمرد ضد هذا الأمر غير المألوف، الذي لم يشارك في اللعبة حتى ذلك الحين. وفكر: «إنها رائحة الحرب» ولمس بحركة غريزية الخنجر الحجري المتقاطع مع حزامه الذي من صوف منسوج. وجعله صوت مفاجئ ينحني، ويبقى ساكنا، مرتجفا. لم يكن الإحساس بالخوف مستغربا، لأن الخوف كان كثيرا في أحلامه. انتظر، مستترا بأغصان شجيرة وبالليل الخالي من النجوم. وبعيدا جدا، ربما في الجانب الآخر من البحيرة الكبرى، لابد كانوا يوقدون نيران المخيم؛ لأن بريقا محمرا كان يصبغ ذلك الجزء من السماء. لم يتكرر الصوت. لقد كان أشبه بصوت انكسار غصن. لعله حيوان يفر مثله من رائحة الحرب. نهض ببطء، متشمما ما حوله. لم يعد يُسمع شيء، لكن الخوف بقي هناك مثلما بقيت الرائحة، رائحة بخور الحرب المزدهرة ذي الحلاوة الباهتة.

---

(١) الأزتيك Los aztecas شعب من سكان أميركا الأصليين، كان يقطن المكسيك قبل الفتح الإسباني، وقد أقام فيها حضارة باهرة. وكان تقديم القرابين البشرية أحد الطقوس الدينية لدى الأزتيك، إذ كانوا يعمدون إلى استخراج قلب الضحية ليكون قربانا. وكانت القرابين عادة من أبناء الشعوب التي يغزونها

(٢) الموتيك Los motecas شعب آخر كان يقطن المكسيك قبل الغزو الإسباني، وكان في حالة حرب مع الأزتيك.

عليه أن يواصل تقدمه، عليه الوصول إلى قلب الغابة متجنبا المستنقعات. خطا بضع خطوات متلمسا طريقه، ومنحنيا في كل لحظة ليلمس أرض الدرب الأكثر صلابة. كان يرغب في الانطلاق راكضا، لكن الوحول الرجراجة كانت تنبض بجانبه. بحث عن الاتجاه في الدرب الذي تكتنفه العتمة. وأحس حينئذ بدفقة فظيعة من الرائحة التي كان يخشاها أكثر من كل ما عداها، فقفز بيأس إلى الأمام.

- ستسقط عن السرير. لا تتقلب كثيرا يا صديقي - قال له ذلك المريض الذي بجانبه.

فتح عينيه، وكان الوقت مساء، فالشمس قد انحدرت إلى ما دون نوافذ القاعة الطويلة. وبينما كان يحاول أن يبتسم لجاره، انفصل جسديا تقريبا عن الرؤيا الأخيرة في الكابوس. كانت ذراعه، الملفوفة بالجص، معلقة بجهاز مزود بثقالات وبكرات. أحس بالظمأ، كأنه ركض عدة كيلومترات، لكنهم لم يشاءوا أن يقدموا له كثيرا من الماء، ما لا يكاد يكفي لأن يبلل شفتيه ويلعق جرعة صغيرة. كانت الحمى تجتاحه ببطء، وكان بإمكانه أن يغفو ثانية، لكنه تلذذ بمتعة البقاء مستيقظا، وهو يغمض عينيه ويصغي إلى حوار المرضى الآخرين ، ويردّ بين الحين والآخر على أحد الأسئلة. رأى وصول نقالة بيضاء أوقفوها إلى جانب سريره. ودلّكت ممرضة شقراء باطن فخذه بالكحول، ثم غرست فيه إبرة ثخينة موصولة بأنبوب يمتد إلى قارورة مملوءة بسائل لبني اللون. وجاء طبيب شاب يحمل جهازا من معدن وجلد، لفه حول ذراعه السليمة ليتحقق من شيء ما. كان الليل يخيم، بينما كانت الحمى تجره بلين إلى حالة للأشياء فيها طيف كذاك

الذي يضفيه منظار المسرح. وكانت الأشياء حقيقة وحلوة، ومنفرة بعض الشيء في الوقت ذاته؛ كمن يجلس لمشاهدة فيلم ممل، ويفكر بأن الأمر في الشارع أشد سوءا؛ فيبقى في مقعده.

جيء بفنجان حساء ذهبي رائع تتبعث منه رائحة الكُرّاث، الكَرَفس، البقدونس. وقطعة خبز صغيرة، أثمن من مأدبة كاملة، راحت تتفتت شيئا فشيئا. لم يعد يشعر بأي ألم في ذراعه، وصار يشعر في حاجبه فقط، حيث خاطوه، بوخزة حارة وسريعة أحيانا. وعندما تحولت النوافذ الكبيرة التي قبالته إلى مجرد لطخات ذات زرقة قاتمة، فكر في أنه لن يجد صعوبة في النوم. كان في وضع غير مريح بعض الشيء وهو مستلق على ظهره، لكنه حين مرّ بلسانه على شفتيه الجافتين والساخنتين أحس بطعم الحساء، فتنهد من السعادة، مستسلما.

في البدء كان هناك اضطراب، وأحس للحظة كما لو أنه يجتذب إليه كل الأحاسيس، مخدرة ومختلطة. كان مدركا أنه يركض في ظلمة كاملة، مع أن السماء التي تخترقها قمم الأشجار، في الأعلى، كانت أقل سوادا من بقية المشهد. وفكر «الطريق. لقد خرجتُ عن الطريق». وكانت قدماه تغوصان في فراش من الأوراق والوحل، ولم يعد قادرا على التقدم خطوة دون أن تصفع أغصان الشجيرات صدره وساقيه. انحنى لاهثا ليصغي وهو يعلم أنه محاصر على الرغم من الظلام والصمت. ربما كان الطريق قريبا، وسيراه ثانية مع أول أنوار النهار. لا يمكن لشيء أن يساعده في العثور عليه الآن. واليد التي كانت تقبض بشدة، دون أن يشعر، على مقبض الخنجر، صعدت مثل عقرب المستنقعات حتى عنقه، حيث كان يعلق التعويذة الحامية. حرك

شفتيه بصعوبة متمتما بصلاة الذرة التي تجلب الأقمار السعيدة، وتوسل إلى الربة العالية جدا، موزعة الخيرات الموتيكية. لكنه كان يشعر في الوقت نفسه أن كاحليه يغوصان ببطء في الوحل، وأن الانتظار في ظلمة الدغل المجهول صارت لا تطاق. كانت الحرب المزهرة قد بدأت مع القمر الجديد، وها قد مضى عليها ثلاثة أيام وثلاث ليال. لو أنه يستطيع الاختباء في أعماق الغابة، ومغادرة الطريق إلى ما وراء منطقة المستنقعات، فقد يعجز المحاربون عن اقتفاء أثره حينئذ. وفكر بالأسرى الكثيرين الذين وقعوا في أيديهم حتى الآن. لكن العدد لا يؤخذ بالحسبان، وإنما الوقت المقدس هو المهم. ولسوف تستمر حملة المطاردة والصيد إلى أن يعطي الكهنة إشارة العودة. فلكل شيء رقمه وغايته، وهو ما يزال ضمن الوقت المقدس، في الجهة الأخرى لأولئك الصيادين.

سمع الصيحات، فنهض واثبا والخنجر في يده. وكما لو كانت السماء تشتعل في الأفق، رأى مشاعل تتحرك بين الأغصان، في مكان شديد القرب منه. كانت رائحة الحرب لا تطاق، وحين انقض العدو الأول على عنقه، أحس بلذة تقريبا وهو يغرس النصل الحجري في منتصف صدره. وكانت قد أحاطت به حينئذ الأنوار والصيحات المبتهجة. وتمكن من طعن الهواء مرة أو مرتين قبل أن يقيده حبل رمي عليه من الخلف.

قال المريض الذي في السرير المجاور:

- إنها الحمى. لقد جرى لي شيء مماثل حين أُجريت لي عملية جراحية في الاثني عشر. اشرب ماء وسترى كيف أنك ستنام جيدا.

بدت له عتمة القاعة الدافئة لذيذة بالمقارنة مع الليل الذي عاد منه. كان هناك مصباح بنفسجي خافت في أعلى الجدار المقابل، يبدو أشبه بعين حامية. وكانت تُسمع أصوات سعال وتنفس شديد، وحوار بصوت خافت أحيانا. كان كل شيء ممتعا وآمنا لولا هذه المطاردة، لولا... لكنه لا يريد مواصلة التفكير بالكابوس. هُنالك أشياء كثيرة يتسلى بها. وراح يتأمل جص ذراعه، والبكرات التي تحمله براحة كبيرة في الهواء. كانوا قد وضعوا زجاجة مياه معدنية على الكوميدينو من أجله. فشرب بشراهة من الزجاجة مباشرة، بدأ يميز الآن الأشكال التي في الغرفة، والأسرة الثلاثين، والخزائن ذات الواجهات الزجاجية. لابد أن الحمى قد انخفضت، فقد أحس ببرودة في وجهه. وصار ألم حاجبه خفيفا جدا، وكأنه مجرد ذكرى. ورأى نفسه يخرج من الفندق ثانية، ويُخرج الدراجة النارية. من كان يتصور أن الأمر سينتهي على هذا النحو؟ كان يحاول تثبيت لحظة الحادث، واعتراه السخط حين لاحظ وجود فجوة في ذاكرته... فراغ يعجز عن ملئه. فبين الصدمة واللحظة التي رفعوه فيها عن الأرض، هناك إغماءة أو أمر آخر لا يتيح له رؤية أي شيء. وكان يحس في الوقت نفسه بأن تلك الفجوة، أو ذلك اللاشيء، قد استمر أبدية. لا، يبدو كأنه لم يكن زمنا، بل كأنه هو نفسه، في تلك الفجوة قد مر عبر شيء أو اجتاز مسافات هائلة. الصدمة، الضربة الفظة على بلاط الرصيف. وكان قد أحس على أي حال، لدى خروجه من البئر السوداء، بما يشبه الراحة بينما كان الرجال يرفعونه عن الأرض. وعلى الرغم من ألم الذراع المكسورة، والدم النازف من الحاجب المجروح، والرض في الركبة؛ على الرغم من كل

هذا، شعر بارتياح لعودته إلى النهار، ولإحساسه بأن هناك من يحمله ويساعده. كان ذلك غريبا. ولسوف يسأل طبيب المكتب عن ذلك في يوم ما. ها هو ذا النوم يعود للسيطرة عليه، ويشده ببطء إلى أسفل. الوسادة وثيرة جدا، وبرودة الماء المعدني في حلقه المحموم. ربما يستطيع أن يستريح راحة حقيقية، دون الكوابيس اللعينة. وراح ضوء المصباح البنفسجي الذي في الأعلى ينطفئ رويدا رويدا.

ولأنه كان ينام على ظهره، لم يفاجئه الوضع الذي وجد نفسه فيه مجددا، لكن رائحة رطوبة، رائحة صخر ينز ارتشاحا، أطبقت حلقه، وأرغمته على الإدراك. لا جدوى من فتح العينين والنظر في جميع الاتجاهات؛ فقد كان يلفه ظلام مطلق. أراد أن ينهض ، فأحس بالحبال في معصميه وكاحليه. كان مقيَدا إلى الأرض ، فوق أرضيّة رطبة مرصوفة بأحجار مثلجة. كان البرد يتسلل إلى ظهره العاري، وإلى ساقيه. وبتثاقل، بحث بذقنه علّه يلمس تعويذته، وعرفَ أنهم قد انتزعوها منه. لقد انتهى أمره الآن، فلن تستطيع أي صلاة أن تنقذه من النهاية. ومن بعيد، سمع طبول الاحتفال، كأنها تتسرب بين أحجار السجن. لقد حملوه إذن إلى معبد التيوكالي، وهو الآن في زنازين المعبد، بانتظار مجيء دوره.

سمع صراخا، صرخة مبحوحة تردد صداها على الجدران. ثم صرخة أخرى، انتهت بأنّة. كان هو من يصرخ في الظلام، وكان يصرخ لأنه حيّ، جسده كلّه يدافع عن نفسه من النهاية التي لا مفر منها. وفكر برفاقه الذين يملأون زنازين أخرى، وبأولئك الذين بدأوا يصعدون أدراج مذبح القرابين. وصرخ صرخة

مخنوقة أخرى، إذ لم يعد قادرا على فتح فمه تقريبا، وكان فكاه قد توقفا عن الحركة، وبديا في الوقت نفسه كأنهما من المطاط، لا ينفتحان إلا ببطء، وبعد جهد لا حدود له. هزه صرير المزاليج مثل ضربة سوط. وكافح مرتعشا ومتلويا للتخلص من الحبال التي كانت تتغرس في لحمه. كانت ذراعه اليمنى، وهي الأقوى، تشدّ بقوة، إلى أن صار الألم لا يطاق، واضطر إلى الاستسلام. رأى الباب ذا المصراعين ينفتح، ووصلت إليه رائحة المشاعل قبل وصول ضوئها. اقترب منه مساعدو الكهنة، وكانوا لا يكاد يغطي وسطهم سوى «الوزرات» الطقوسية، ونظروا إليه بازدراء. كانت الأضواء تنعكس على الصدور الناضحة بالعرق، وعلى الشعر الأسود المكلل بالريش. فكّوا الحبال التي تقيده، وأمسكت به بدلا منها أيد حارّة، صلبة كالبرونز؛ وأحس بأنه يُرفع، ووجهه إلى أعلى دائما، ما بين المساعدين الأربعة الذين حملوه عبر السراب. كان حملة المشاعل يمضون في المقدمة، مضيئين بنور خافت ممر الجدران الرطبة والسقف الواطئ إلى حدّ جعل المساعدين يحنون رؤوسهم. إنهم يحملونه الآن، يأخذونه، وتلك هي النهاية. وجهه إلى أعلى، يفصله متر واحد عن السقف المنحوت في الصخر، والذي يتوهج للحظة بانعكاس ضوء أحد المشاعل. وحين ستظهر له النجوم فجأة بدلا من السقف، وتنتصب أمامه الأدراج الملتهبة بالصراخ والرقص، ستكون النهاية. يبدو كأن السرداب بلا نهاية، لكن ها هو يوشك على الانتهاء، وسيشم فجأة رائحة الهواء المفعم بالنجوم، ولكن ليس بعد، فهم ما يزالون يحملونه بلا نهاية في العتمة الحمراء، ويهزونه بفظاظة، وهو لا يريد ذلك، ولكن كيف

يمكن له أن يحول دونه إذا كانوا قد انتزعوا منه تعويذته التي كانت قلبه الحقيقي، ومركز حياته.

خرج بوثبة واحدة إلى ليل المستشفى، حيث السماء العالية الصافية اللطيفة، إلى الظلمة الرخوة التي تحيط به. وفكر بأنه قد صرخ دون شكّ، لكن جيرانه كانوا ينامون ساكنين. وكان في زجاجة الماء التي على الكوميدينو شيء من الفقاعات، صورة شفافة مقابل ظل النوافذ الضارب إلى الزرقة. لهث، باحثا عن الراحة لرئتيه، ولنسيان هذه الصور التي ما تزال ملتصقة برموشه. فكلما أغمض عينيه رأى تلك الصور تتشكل على الفور، فينهض فزعا، ولكن سعيدا في الوقت نفسه لإدراكه بأنه مستيقظ، وأن اليقظة تحميه، وأن الشمس ستشرق عما قريب، ومعها ستأتي الإغفاءة الحميدة العميقة التي يمكن الاستمتاع بها حينئذ، دون صور، ودون أي شيء... كان يجد مشقة في إبقاء عينيه مفتوحتين، فقد كان النعاس أقوى منه. بذل محاولة أخيرة، ومدّ يده السليمة نحو قارورة الماء؛ لكنه لم يستطع الإمساك بها، وانطبقت أصابعه مجددا على فراغ أسود، وبقي السرداب بلا نهاية، صخرة بعد صخرة، تشع فيه أنوار حمراء مباغتة، وأنَّ هو، بوجهه المتجه إلى أعلى، أنينا منطفئا لأن السقف يوشك على الانتهاء، فقد بدأ يعلو، منفتحا مثل فم الظلام، وانتصبت قامات أعوان الكهنة، وانعكس قمر غير مكتمل على وجهه، حيث العينان اللتان لا تريدان رؤية ذلك القمر، واللتان راحتا تتفتحان وتغمضان بيأس، كأنهما تحاولان الانتقال إلى الجانب الآخر، ورؤية سماء قاعة المستشفى الملساء الدافئة من جديد. وكلما انفتحت العينان، واجهتا الليل والقمر، بينما هم

يصعدون به على الأدراج، وقد تدلى الآن رأسه إلى أسفل. وفي أعلى المذبح، كانت المحارق وأعمدة الدخان المعطر الحمراء. وفجأة رأى الحجر الأحمر، وكان يلمع بالدم الذي يقطر منه، ورأى كذلك تأرجح قدمي القربان البشري الذي قدّم للتو، وكانوا يسحلونه لدحرجته على الدرج الشمالي. أطبق جفونه بقوة، يراوده أملٌ أخير، وأخذ يئن، لعلّه يستيقظ. وظنّ لهنيهة أنه قد نجح في ذلك، إذ وجد نفسه ثانية على السرير دون حراك، اللهم إلا تأرجح رأسه المتهدل. لكنه كان يشم رائحة الموت، وحين فتح عينيه رأى كاهن القرابين المخضب بالدم يدنو منه حاملا المدية في يده. استطاع أن يُطبق جفونه مرة أخرى، على الرغم من أنه كان يعلم الآن أنه لن يستيقظ، وأنه كان مستيقظا، وأن الحلم الرائع هو الحلم الأخر، العبثي مثل جميع الأحلام؛ الحلم الذي مشى أثناءه في شوارع غريبة، في مدينة عجيبة، ذات أنوار خضراء وحمراء تشتعل دون لهب ولا دخان، وكان عندها يمتطي حشرة معدنية ضخمة تهدر بين ساقيه. وفي أكذوبة ذلك الحلم اللامتناهية، رفعوه أيضا عن الأرض، ودنا منه أحدهم وفي يده مدية أيضا، وكان هو مستلقيا ووجهه إلى أعلى وعيناه مغمضتين بين المحارق الطقوسية.

بيدرو خورخي فيرا

Pedro Jorge Vera

(الإكوادور)

- ولد عام ١٩١٤.
- صحافي، وروائي، وكاتب مسرحي وقاص إكوادوري.
- من أبرز الكتاب الإكوادوريين المنتمين إلى ما يسمى جيل الـ ٣٠ أو جماعة غواياكيل.
- حازت مجموعته القصصية «حداد أبدي» جائزة «خوسيه دي لاكوادور» في الإكوادور عام ١٩٥٢، ومنحت هذه المجموعة القصصية مؤلفها شهرة واسعة في وطنه وفي البلدان الأمريكية اللاتينية الأخرى.
- من أهم أعماله الأدبية:

في الشعر:

«طريق جديد» (١٩٣٧)، «أغنيات مبكرة» (١٩٣٩)، «نفق مظلم» (١٩٤٩)، «أشعار الأمس واليوم» (١٩٧٩).

في المسرح

« إله الغابة» (١٩٤٣)، «يد الرب» و«يسوع الأبدي» و«الدروب الملتهبة» (١٩٥٦)

في القصة القصيرة:

«حداد أبدي وقصص أخرى» (١٩٥٣)، تابوت مهجور« (١٩٥٥)، «وصايا قانون الرب» (١٩٧٢)، «عودة يسوع» (١٩٧٥)، «حكايات لا أكثر» (١٩٧٩).

في الرواية:

«الحيوانات المحضة» (١٩٤٦)، «البذرة المجدبة» (١٩٦٢)، «أزمنة الدمى» (١٩٧١)، «أنا الشعب» (١٩٧٦).

صورة الضحية

El retrato de la víctima

إلى لويس مارتينث مورينو

كانت المدينة التي استيقظت لتوها تخطو خطواتها الأولى: رجال ما زال النعاس يسيطر عليهم يدفعون عرباتهم البدائية، حمالون قذرون يغادرون مضاجعهم في مداخل العمارات، امرأة متدينة مستعجلة تصطدم بساهر متأخر.

وكان الصغير فيليبه بارثيا يحتمي من البرد الذي ينفذ حتى العظام وهو ماض في طلب بضاعته: الجرائد التي ما زالت دافئة بعد أن قذفتها المطابع الرجراجة للتو.

لقد أصبحت مسيرته الصباحية أقصر الآن. فمنذ أسبوع وهو يقيم في حانة عمه، في ساحة فيكتوريا. لكن ما دفعه إلى مغادرة بيت أمه، هناك في حي غاراي، ليس بُعد المسافة، وإنما وجود «دون أورالا» الذي أثار دمه إلى حد جعل أمه توافق على انتقاله.

سيبقى بعيداً عنها إلى أن يعود ميداردو بارثيا. قد يتأخر، لكنه سيعود مثلما عاد في المرة السابقة. لم يتأخر يومذاك طويلاً. لقد ذهب بعد أن ربت على ظهر ابنه وعانق زوجته. وانتظرته هي، دومينغا، بصمت. وعندما رجع المانابي[1] الصارم، عاد كل شيء إلى ما كان عليه من قبل.

ولكنه مضى مرة أخرى بعد مدة قصيرة. وقد ترك في هذه المرة تحذيره:

---

(١) نسبة إلى مدينة في الإكوادور.

- أنتِ تعرفين يا دومينغا... من المطبخ إلى بيتك. وإذا أساء الولد التصرف، فاضربيه.

من المطبخ إلى البيت... لقد نفذت دومينغا الأمر بحذافيره، فكانت تمر مترفعة أمام نظرات الرجال الجشعة وكلماتهم الوقحة. وبعد مرور سنة، أخرجت فيليبه من المدرسة وحوّلته إلى بائع صحف، لأن أجرها من العمل كطاهية، لم يكن يكفي لتغطية الميزانية البيتية. وبعد ستة شهور أخرى، ربما كانت الوحدة قد هزمتها. فقد جاء «دون أورالا» وأقام في البيت محتلاً مكان ميداردو بارثيا.

كرهه فيليبه منذ اللحظة الأولى. لأنه كان يسلبه حنان أمه، ولأنه كان يضربه بكثرة، ولأنه - قبل كل ذلك - يحتل الموقع المقدس لميداردو بارثيا.

عندما ضربه آخر مرة، هدده فيليبه قائلاً:

- سأريك عندما يأتي أبي.

ضحك «دون أورالا» ساخراً. وقد احتج الدخيل لأن دومينغا تدخلت لمواساة الطفل:

- أنت لا تعاقبينه أبداً يا امرأة. ستجعلين منه مخنثاً.

أيقول هذا الكلام عن ابن ميداردو بارثيا!

وكان حقده على الغاصب يتعاظم، ويتعاظم كذلك شوقه إلى ميداردو بارثيا، الرجل الذي منحه القلب الرجولي، والمخيلة القلقة، والدم الفائر.

وفي إحدى الليالي، في عتمة صالة للسينما، عندما ظهر على الشاشة بطل مكسيكي قوي، يفرض هيبته بمجرد حضوره وحسب،

وذكّرته تقاطيعه بميداردو بارثيا، هتف فيليبه وسط ضحكات جمهور المتفرجين: «إنه أبي!».

وفيما بعد، أثناء نومه، أتى ميداردو بارثيا، متسلطاً وصارماً مثلما هو عادة. وصل بينما كان دون أورالا يضرب الطفل على أضلاعه ويوبخ دومينغا، لتدخلها لحمايته: «أنت لا تعاقبينه أيتها المرأة...» وضربة واحدة من ميداردو بارثيا جعلت الدخيل يختفي، وبقي ميداردو بارثيا في بيته، إلى الأبد هذه المرة.

لكن الواقع كان قاسياً في اليوم التالي. فقد غضب دون أورالا لأن الطفل ذهب إلى السينما دون إذن منه، وضربه بقسوة. عندئذ قرر الذهاب للعيش في حانة عمه، إلى أن تتحقق عودة ميداردو بارثيا ولا تعود مجرد حلم فقط.

سيعود. لا يمكنه أن يتأخر، لأنه لا يمكن لشجرة أن تحيا من دون جذورها.

عند ناصية شارع المطبعة، نبهه زميل له صغير كان قد تسلم كميته من الصحف قائلاً:

- أسرع، ففي الصحيفة صورة للضحية.

وما إن حصل فيليبه على بضاعته حتى خرج يركض مسرعاً وهو يصرخ:

- «اليونيفيرسو»، مع صورة الضحية!

في الساعة السابعة صباحاً انتهى من بيع صحفه وعاد ليشتري كمية أخرى منها. وراح يتوغل الآن في الأزقة البائسة، حيث تبسط الرذيلة أجنحتها الواسعة القاتمة. إن صورة الضحية هي طُعم فعّال في هذه الأوساط، فحتى النساء ذوات الحياة الحزينة، اللواتي

أمضين الليل بطوله دون أن ينمن، كن ينهضن مستعجلات ليستعلمن عن الدم الأخير المهدور.

في الساعة التاسعة لم يكن قد بقي معه سوى نسخة واحدة. وقبل أن يظهر مشتر لها، سيقرأ هو الشيء المشوق الوحيد فعلاً في الجريدة: صفحة الفكاهة. يجلس على مقعد في شارع سان فرانسيسكو ويفتح الجريدة بحثاً عن مادته التي يقرأها. لكن، قبل أن يجدها، اكتشفت عيناه حضور ميداردو بارثيا. لقد عاد، مثلما كان قلبه يحدثه. ها هو ذا، مثلما كان دائماً: عابس، ومُتَحدٍ. إنه هنا إلى جانب دومينغا. ويتهجى فيليبه الخبر بتعثر:

موت امرأة شقية بطعنات سكين زوجها

... وقد أُلقي القبض على الجاني ميداردو بارثيا.

لقد عاد ميداردو بارثيا إذن. لكنه لن يكون منتقمه المنتظر. ها هو ذا، ليس المنتصر على دون أورالا، وإنما على أسيرته. وتمتم قلبه العبارة المؤنِبة: «أرأيت يا أبي؟ كان عليك أن تقتل دون أورالا وليس أمي...».

وبينما هو كذلك، تحركت شفتاه، بحركة آلية، لتعرضا على العابر الذي كان يمر أمامه في تلك اللحظة:

- «اليونيفيرسو» مع صورة الضحية!

برناردو كوردون

Bernardo Kordon

(الأرجنتين)

● ولد برناردو كوردون في العاصمة الأرجنتينية بوينس آيرس عام ١٩١٥.

● دخل عالم الأدب بنشر روايته «آفاق إسمنتية» عام ١٩٤٠.

● مارس كتابة مختلف الأجناس الأدبية، لكنه برز في مجال القصة القصيرة. وصار واحدا من أبرز كتّاب القصة القصيرة في أميركا اللاتينية.

● نُقلت قصته «الشهير بغارديليتو» إلى السينما، وحققت للمؤلف شعبية واسعة.

● ينقل بأسلوبه الواقعي المحكم مزيجا من الجنون والعنف والأمل الذي تعيشه الفئات الهامشية في مجتمع استهلاكي، وأولئك الذين تشكل المدينة بالنسبة إليهم مسرحا مؤلما وغيريا، عليهم أن يجتازوه يوما بعد يوم، دون توقف.

● من أبرز أعماله القصصية، المجموعات التالية:

- متشرد في تومبوكتو (١٩٥٦).
- يوم أحد على النهر (١٩٦٠).
- أحسِن إلى الناس (١٩٦٨).

ذهبنا إلى المدينة

Fuimos a la ciudad

بدأ كل شيء عندما رجعت أختي إلى البيت. رآها أبي قادمة فقفز عن كرسي القش. أمسك العكاز وخرج مقطبا. لم يذهب بعيدا: فقد بقي هناك في ظل شجيرة المُستحِية. أما أمي، فقد صرخت: فلوريندا! وعانقت أختي.

لقد جاءت بفستان أخضر له لون الببغاوات وحذاء جديد. كانت تبدو جميلة بوجهها الذي بيضته المساحيق، وفمها الريان المطلي بالأحمر مثل شريحة بطيخ. بدت كأنها آنسة المدرسة أو ابنة الصيدلاني، أو أي واحدة أخرى من أولئك الفتيات اللواتي يخطرن في مشيتهن ويبدُنَّ طيبات جدا. لكن أختي مختلفة عنهن. قالت إنها تريد التحدث إلى أمي وألقت بي خارج الكوخ.

لقد كانت هكذا دائما. فعندما كنا نذهب معا إلى المحطة لنبيع الجبن، كانت تُحمِّلني كل شيء، وتمشي أمامي دون أن تعمل شيئا سوى هز مؤخرتها وجر قدميها على التراب مستمتعة ببرودة الليل. وكنا بعد ذلك ننتظر القطار، لعدة ساعات أحيانا، ولكنها لم تكن تتبادل الحديث مع البائعات الأخريات، بل كانت تنضم إلى الفتيان، وخصوصا تشولو، وتترك لي مهمة حراسة قوالب الجبن. وويلي لو ابتعدتُ عن السلة، لأنهم قد يسرقون شيئا منها، ويا لسوء مصيري عندئذ.

كنتُ أرغب دائما في أن أعرف ما الذي تفعله أختي، وأن أرى خصوصا كيف يكون وجهها آنذاك. ولكن اللعينة لم تكن تسير

أمامي حين نعود إلى البيت، بل كانت تمضي خلفي، ولم يكن بإمكاني حينئذ أن أرى ما الذي تفعله مع تشولو الذي كان يرافقها دائما حتى الوصول إلى مقربة من الكوخ. فما أن أتوقف عن المشي أو ألتفت إلى الخلف، حتى يصرخا بي أن أتابع قُدما، كأنهما يُخوِّفان كلبا، وكانا يرميانني بالأحجار لكي أجري مسرعا. وما كان يثير سخطي هو أن الأحجار التي يرميني بها تشولو كانت تصيبني في ظهري أو ساقيّ، ولكنني كنت أتألم أكثر من ضحك أختي، فقد كانت تطلق ضحكة ممتدة لا تنتهي أبدا، تبقى أصداؤها ترن في أذني إلى ما بعد وصولنا إلى الكوخ.

هكذا كانت أختي إلى أن أخذها أحدهم يوما، ولم يكن من أخذها هو تشولو، الذي بقي في القرية يوزع الخبز على عربته، وإنما سائق شاحنة من روساريو، والأدهى أنه كان متزوجا، وقد تخلى عنها في منتصف الطريق، في كوردوبا. ومن هناك ذهبت وحدها إلى بوينس آيرس. وكانت مشكلتها هناك في الحصول على غرفة تأوي إليها: فعملت خادمة وسارت أمورها على ما يرام. وعندما حان موعد إجازتها السنوية جاءت إلى القرية لزيارتنا لأنها كانت في شوق لرؤيتنا جميعا. هذا ما قالته لأمي بينما أنا أتنصت مقعيا تحت النافذة. وقد قالت لها أمي إن كل شيء مازال على ما كان عليه في السابق، أو أنه أسوأ في الواقع، لأنه لم يبق أحد سواي لبيع الجبن في المحطة. وقالت أيضا إن الأب العجوز لن يغفر لفلوريندا ذهابها؛ فهو لا يبيع كثيرا من الجبن والأمور لم تعد كالسابق، لأنه يمكن لفتاة تخرج ليلا لتعرض قوالب الجبن لدى مرور القطار أن تبيع أفضل، ويمكنها أن تجد دوما طريقة للحصول

على مساعدة إضافية. لهذا فإن الأب العجوز يتألم لما لاقاه من جحود ونكران للجميل، ولم يبق لديه أحد سواي يأتيه ببضعة بيزوات تكفي لشراء أشياء أقل يوما بعد يوم. وردت عليها أختي بأن العجوز هو شخص أناني، وأنه لم يأبه يوما لكون بناته يمضين دون أحذية، وللقروح التي تتشكل في أرجلهن، ولهذا ذهبن جميعهن. وأنني أنا نفسي قد أبقى، ولكن ريثما أكبر فقط، وهذا لأني بليد جدا، وأن أولادا آخرين من القرية في مثل عمري يعرفون كيف يتدبرون أمورهم على أحسن وجه ودون مساعدة من أحد، أما أنا فأكاد لا أعرف، إلا بأسوأ شكل، كيف أبيع أفضل قوالب جبن في القرية، بل إنني أترك الآخرين يسرقونها مني أيضا. لم يعجبني إحجام أمي عن قول أي شيء دفاعا عني. فرفعت رأسي عندئذ ونظرت من خلال النافذة: وكانت أمي تهز رأسها وكأنها تقول أجل، إنني بليد جدا. كان هناك ما هو صحيح في ذلك، لأني لم أخفض رأسي في الوقت المناسب، فرأتني أختي، وصرخت: يا قليل الحياء! وبحثتْ عن شيء على الأرض لتقذفه نحو رأسي. فكان عليّ أن أهرب راكضا. ضربة أخرى على ظهري! وكانت هذه المرة بحذاء قديم. التفت ورأيتُ أختي وقد زمت شفتيها وعينيها. لم تكن تضحك الآن مثلما كانت تفعل حين كان تشولو يصيبني بحجر، وقد بدا وجهها هذا أسوأ من ضحكها.

لم أجرؤ على الاقتراب مرة أخرى للتنصت، ولم أعرف كيف تواصل الحديث. ذهبت إلى طرف الفناء. وهناك كان أبي يقلّب الجبن المنشور تحت الشمس ليجف. كانت الأرض الجافة تحرق قدميّ. أما العجوز، فبدا بالمقابل في غاية الراحة. فقدمه الوحيدة

خشنة وسوداء وممتلئة بالشقوق، مثل قاع النهر في موسم الجفاف الكبير. ولكن تلك القدم بحجم قدمين اثنتين وطاقتهما على التحمل، كأنه يحتفظ فيها بقوة الساق الأخرى التي بترها القطار عندما لم أكن قد ولدت بعد. ولكن العجوز كان يعاني بالمقابل ضعفا في عينيه، مع أنه يملك العينين كلتيهما. فقد كانتا تدمعان لأي سبب؛ سواء بفعل الشمس أو حين تغادره إحدى بناته.

طلب مني أن أساعده. وقد قال لي ذلك بطريقة غريبة، كما لو أنه يريد التحدث معي حديث رجل لرجل. والحقيقة أنه لم يكن هناك عمل كثير يتعين القيام به، فلم أعرف ما هو الأمر الذي يمكنني مساعدته فيه.

قال لي:

- ها هي ذي فلوريندا. أختاك الأخريان ذهبتا إلى الأبد. فلأي براز عادت هذه الآن؟

هززت كتفيّ. فما سمعته لم يكن أمرا عظيما يستحق الذكر، ولكن ذلك الوجه المقطب غضبا لم يكن يدعو إلى تأمل الخير من أختي. فضلتُ ألا أقول شيئا للعجوز، ورحنا نصفّ قوالب الجبن الطازج في السلة معا ونحن صامتان.

عندما حلّ الليل، نادتنا أمي لتناول الطعام. مضينا متمهلين، كما لو أنه لم يحدث أي جديد، سار العجوز أمامي بتلك القفزات التي يقفزها مستندا إلى العكاز الذي صنعه بنفسه من فرع شجرة خروب.

بدت تلك المائدة كأنها مائدة مأتم: فقد كانت هناك زجاجتا نبيذ وأشياء كثيرة لذيذة أحضرتها أختي من بوينس آيرس، ولكن السعادة

لم تكن بادية على أحد. جميعنا كنا نأكل بصمت إلى أن بدأت أمي بالكلام:

- فلوريندا حملت إلينا تحيات هيرميندا.

فزمجر العجوز دون أن يرفع نظره عن الطبق:

- وماذا تعمل؟

- تعيش في بوينس آيرس، ولديها ابنان.

- ابنان، ممن؟

لم تعرف أمي، أو أنها لم تشأ أن تجيب. ووخزت أختي بمرفقها لكي تكمل هي الحديث.

فقالت فلوريندا:

- إنها في أحسن حال، وهي تبعث إليكم تحياتها. تقول إنه سيكون رائعا أن نجتمع ثانية معا كأسرة واحدة.

تظاهر العجوز بأنه لم يسمع شيئا، والتفت نحو أمي:

- ما الذي تفعله هيرميندا في بوينس آيرس؟

- تقول إن لديها بيتا هناك. لماذا لا تسأل فلوريندا؟ فهي التي رأتها.

تجاهل العجوز الإشارة، وملأ الكأس نبيذا وشربه دفعة واحدة. وبقينا صامتين دون أن نتبادل النظر تقريبا. وأخيرا قلتُ:

- سأذهب بالجبن إلى المحطة.

حينئذ نظر العجوز إليّ، وأظن أنها كانت نظرة امتنان، وقد ملأني ذلك بالفخر. فدعوتُ أختي قائلا:

- ألا ترافقينني؟

فالتوى وجهها المطلي بالأصبغة وهي تقول:

- إلى أين؟

- إلى المحطة.

- هل أنت مجنون!

تململ أبي في كرسيه كما لو أن أحدا بصق في وجهه.

فقلت مُذَكِّرا أختي:

- كنتِ تستمتعين في المحطة من قبل.

- لقد كنتُ حمقاء من قبل.

- إذا جئت معي ستقابلين تشولو. إنه يسألني عنكِ دوما.

فضحكتْ:

- ياه! يا له من مُقمِّل بائس!

عندئذ أيقنتُ بأن فلوريندا قد تبدلت. فقد بدت حينئذ قاسية مثل عكاز العجوز، قطعة باردة من خشب الخروب بدلا من قلب دافئ. لقد كنت أحب فيما مضى أن أرى ما الذي تفعله أختي، وكيف يكون وجهها وهي مع تشولو، عندما كانا يمشيان ورائي وأحدهما يمسك بالآخر، ثم يختفيان فجأة في الجبل، ويبتلعهما صرير الزيزان. هذا ما تذكرته وأنا ماض نحو المحطة وسلة الجبن معلقة على ذراعي. الزيزان على الأرض والنجوم في السماء: هكذا يجب أن تكون الأمور. وحدها أختي هي التي صارت أكثر غرابة من أي وقت آخر ولديها رغبة في قلب كل شيء رأسا على عقب.

في المحطة دنا مني تشولو:

- قيل لي إن أختك قد عادت في الحافلة. لماذا لم تأتِ لتراني؟

فقلت له:

- إنها لا تريد المجيء إلى المحطة. وتقول إنها لم ترجع إلى القرية لكي ترى أي مقمل.

كبح تشولو رغبته في توجيه صفعة إلي، وقال:

- هذا ما أخبروني به. لقد تحولتْ إلى قمامة، حتى أنها تضع على رأسها قبعة. ولكنك سترى؛ سوف نؤدبها هنا.

أحسست برغبة في مساعدته، ولكن تشولو دار على عقبيه ومضى بحثا عن أصدقائه. بعد قليل كانت الجماعة كلها تتناقش في أشد أركان المحطة ظلمة، عند الجهة التي يظهر منها القطار القادم من بوينس آيرس. ولم أكن أرى إلا الشرر المتطاير من سجائرهم التي يصنعونها من أوراق كيزان الذرة مع اليانسون. دنوت بحذر، ملتفا حول دورة المياه.

كان تشولو يبدو غاضبا، لكن الآخرين كانوا يضحكون.

وسمعت روكي البدين يقول:

- هذا أمر يمكن تدبيره بسهولة. ننتظرها جميعنا في الطريق ونستعملها كما يجب، ولتواصل التصرف بعد ذلك مثل فتيات بوينس آيرس!

كان بإمكاني أن أستمع إلى المزيد، ولكن هذه الأمور لا تكتمل لي على الدوام. لقد كنت أختبئ جيدا؛ لكن الغفلة كانت في تركي السلة ظاهرة للعيان.

صاح بي تشولو:

- ما الذي تفعله هنا؟ هل تتجسس علينا؟

فخطر لي أن أقول:

- بطني يؤلمني.

- ادخل إلى المرحاض إذن، لا تفعل ذلك خارجا.

ولحسن الحظ أن قطار توكومان وصل حينئذ وركضت لأبيع قوالب الجبن، ولكنهم كانوا قد سرقوا لي عددا منها. لا شك أن

روكي البدين هو الذي فعل ذلك. ولكنني لم أشعر بالحقد عليه، لأن خطته بدت لي جيدة.

عندما رجعت إلى البيت كان الحوار ما يزال متواصلا. وكانت أختي تتحدث بنبرة انتصارية، بينما كانت عينا والدي العجوز تدمعان. ولكن هذا كان يحدث له على الدوام تقريبا، والشيء المهم في الواقع أخبرتني به أختي:

- سنذهب جميعنا إلى بوينس آيرس.

وسألتنا أمي:

- ما رأيكم؟

أبي قال لا بحركة من رأسه. أراد أن يُسمع صوته. ولكن أختي هي التي تكلمت، بذلك الصوت المتسلط الذي جاءت به من بوينس آيرس:

- هيرميندا ستقدم لنا البيت كبداية. ماذا تريدون أكثر من هذا؟ أي شخص آخر مكانك سيرقص على ساق واحدة من الفرح. هناك يوجد عمل ونقود للجميع.

لم يقل أبي شيئا. بل تناول عكازه وخرج. ولم يهتم بأمره أحد. طلبت مني أمي النقود. عدّتها، وبدت لها قليلة.

- ألم تبع شيئا؟

وكان علي أن أقول لها إنهم سرقوا مني بعض قوالب الجبن. وإنني كنت في أقصى المحطة عند وصول القطار، لأن بطني كان يؤلمني، وهكذا سبقني البائعون الآخرون.

فانفجرت أختي:

- ألم أقل لك يا أماه؟ إنه أخرق بليد!

لم أفتح فمي بكلمة، وجلست على المقعد الذي في الركن. بقيت هناك صامتا أنظر إلى الأرض وأتمنى ألا تخفق خطة روكي والآخرين.

في اليوم التالي جاء تشولو على دراجته الجديدة. آلة بديعة، كل أجزائها مطلية بالنيكل ومزينة بأشرطة ملونة. ولكنها لم تبد استثنائية لأختي. فاستقبلت تشولو ودراجته بوجه جامد مثل قطعة حطب.

- لماذا جئت إلى هنا؟

- لأسلم عليكِ. هل نسيت أننا أصدقاء

كان يرتدي ملابس يوم الأحد ويعقد منديلا حول عنقه. وكان زيت تثبيت الشعر يقطر منه تحت الشمس، بينما هو يبتسم مثل فنان سينمائي.

- ياه! إنك تبدين جميلة!

فقالت أختي ساخرة منه:

- صحيح؟

- جئت أدعوك للخروج.

- لنتفرج على مرور القطار؟

- يبدو الآن أنكِ أصبحت غريبة عن القرية، فهذه الليلة لا يوجد قطار. إنني أريد دعوتك إلى محل الحلويّات.

- ومنذ متى صرت تذهب إلى محل الحلويات؟

- مذ توقفت عن توزيع الخبز. أنا الآن موظف، ألا تعرفين ذلك؟

- لم أكن أعرف.

- حسن، أنا آت لأدعوك إلى محل الحلويات.

- يمكننا الذهاب هذا المساء.

فاقترح تشولو:

- من الأفضل ليلا. سيكون هناك رقص، وهذا يجعل المكان ألطف.

- تعال لمرافقتي فقط.

عند الغروب تجملت أختي وارتدت فستانها الأخضر، وانتعلت الحذاء الجديد. وعندما رأتني أتمشى في الفناء حذرتني قائلة:

- لقد صرتَ كبيرا على السير ورائي. لا أريد أي حركات صبيانية. مفهوم؟

ذهبتُ إلى الطرف الآخر من الفناء لمساعدة العجوز. وعندما رجعنا إلى الكوخ كانت أختي قد ذهبت. قدمت أمي لنا الحساء، فتناولتُه بسرعة كبيرة أحرقت معها لساني. ثم انسللت خارجا وانطلقت أجري في الطريق إلى القرية.

بعد أن تجاوزت تقاطع الطرق، رأيت كتلة غريبة عند حافة الطريق، فتجمدت في مكاني مثل حمار حرون. كانت تلك هي دراجة تشولو. في أي جحيم هم الآن؟ لم أشعر مطلقا بمثل تلك الرغبة وتلك الرهبة في رؤية ما يحدث. توغلت في الجبل. وفي بقعة مكشوفة بدت مجموعة أشباح صامتة ومطرقة الرؤوس. لا بد أنهم كانوا يحيطون بأختي مثلما يحيط المفجوعون بجثة فقيدهم.

كانوا يبدون مثل قطيع خيول يرعى في ظلمة الجبل: كانوا صامتين ومتثاقلين، يطلقون التأوهات أحيانا.

تراجعت كي لا يروني، على الرغم من أن شيئا كان يدفعني بقوة أكبر فأكبر نحو الأمام. كان قلبي يضرب مثل طبل، وبدأت ركبتاي

ترتعشان. احتضنتُ شجرة، وبدا لي أن جذعها بدأ يرتعش ويهتز كذلك بقوة متزايدة. كنت على وشك أن أصرخ بملء صوتي، ولكنني عضضت جذع الشجرة عندئذ. وفجأة استكنت أنا والشجرة وبقينا هادئين، ثم انهرت على الأرض، متخلصا من حالة الاختناق، ولكنني كنت متعبا إلى حد ظننت معه أنني سأموت. ومن مكاني سمعت وقع أقدام الفتيان وهم يخرجون إلى الطريق. ثم جاءت أختي وراءهم. كانت تطلق نواح طفلة، ثم توجه الشتائم فجأة إلى الجميع بكل ما فيها من روح وحياة. ركب تشولو دراجته ومضى. وتبعه الآخرون مطأطئي الرؤوس، ودون تلك السعادة التي كانت تبدو عليهم في المحطة. أما أنا فبقيت على الأرض إلى أن ابتعدوا. وبعد ذلك ذهبت في أثر أختي.

كان الحر شديدا. وكان العجوز ينام تحت إفريز السطح. وإلى جانبه كان فراشي. دنوت من النافذة وأصغيت.

- انظري كيف فعلوا بفستاني! - كانت أختي تصرخ - ليت جميع من في هذه القرية يموتون الآن فورا!

رفعت رأسي لأتلصص من النافذة. كانت أختي تدير ظهرها. وكانت بملابسها الداخلية وحدها، تتفحص شقوق فستانها الجديد. وكان مصباح الكيروسين يضيء شعرها الممتلئ بنتف القش ومؤخرتها الملوثة بالتراب والأوراق الجافة.

وفجأة التفتت ونظرت إلي بضراوة شديدة:

- ما الذي أصابك؟

فأحسست بطمأنينة تامة، وقلت:

- أنا لم يصبني أي شيء. وأنتِ؟

نظرت إليّ بوجه مجنونة. يا للعنة كم كانت قبيحة! وكانت هي من اضطرت إلى خفض بصرها.

- سأجعلهم يدفعون الثمن. قالت أختي متوعدة الجميع.

نمتُ تحت إفريز السقف، إلى جانب أبي الذي كان يتظاهر بأنه نائم.

وفجأة بدت أختي كأنها قد استعادت قواها، فأطلت من النافذة وصاحت بنا قائلة:

- سنذهب إلى الأبد من قرية البراز هذه!

وهذا ما حدث. فخلال يومين ملأنا الأكياس بقدور وصحون وأمتعة أخرى، وطوينا الفراش. ولكن والدي العجوز بقي يتظاهر بأنه نائم كلما كلمته فلوريندا.

أنا شعرت بالحزن لتركه بساقه الوحيدة وعينيه اللتين تدمعان لأي سبب. وحزنت كذلك لفراق المحطة والقرية، ولأنني لن أبيع بعد اليوم الجبن في قطار توكومان الذي يغص بأناس حالمين ومحبين للمزاح. ولكنّ الحقيقة أن فضولا كبيرا كان ينمو في داخلي لمعرفة بوينس آيرس، وكان هذا الإحساس يدغدغني مثل تلك الرغبة التي كنت أشعر بها فيما مضى لرؤية ما الذي تفعله أختي مع تشولو.

أما أبي العجوز، بالمقابل، فلم يكن يريد أن يعرف شيئا عن أي شيء. بل إنه لم يذهب إلى المحطة لوداعنا. وبقي في فراشه متظاهرا بالنوم. فقلت له:

- سأذهب الآن مع فلوريندا وأمي. غدا ستأتي إليك هورتينسيا مع بانتشو. لقد أخبرتهما بأنك ستبقى وحيدا. وقد وعداني بمرافقتك إلى المحطة كل يوم لتبيع الجبن. هكذا سيساعدانك، لأنه

لا بد لك من شيء تعيش عليه. قلت لهما هذا ووعداني بالمجيء إليك كل يوم.

عندئذ توقف عن التظاهر بالنوم وقال لي إنني ابن طيب. وكنا على وشك أن نتعانق، ولكن أختي صرخت بي في تلك اللحظة بأن الوقت قد تأخر، وأنه علينا أن نحمل حزم الأمتعة إلى المحطة. وعندما وصلنا إلى هناك كان الجميع بانتظارنا: ابتداء من تشولو وروكي البدين وحتى العجائز بائعات الفطائر. لقد تأسفنا لمغادرتنا هذه القرية التي يحبوننا فيها كثيرا. وحتى أختي نفسها بدت متأثرة لحظة انطلاق القطار. فكرتُ بأبي العجوز: ربما كان محقا تماما بعدم موافقته على مغادرة الكوخ.

انطلق القطار، وكل شيء كان يبدو أسوأ: هناك أناس كثيرون، ولكنني لم أجد أي وجه مألوف. أحسست بأنني لا أحد، أو مجرد حزمة متاع أخرى في عربة القطار المزدحمة.

وعندما طلع الصباح لم تكن هناك جبال، وإنما سهول البامبا الخضراء الممتلئة بالقمح والذرة وبأعداد كبيرة من الأبقار. كم هي كبيرة البلاد! وكانت الرغبة في الوصول إلى بوينس آيرس تذوب مع الحر وتُنسى مع التعب.

الحقيقة أن الرحلة لم تكن ممتعة على الإطلاق. فبعد ليلة طويلة جدا ونهار كامل في القطار، خلفنا وراءنا كوردوبا وروساريو، ثم بدأ يظهر من جديد أناس كثيرون وبيوت كبيرة لا تنتهي، وكانت تلك هي بوينس آيرس. ولكن الليل كان قد حلّ ثانية. وفي محطة ريتيرو كانت تنتظرنا أختي الأخرى مع شاب «فتوة» يقود شاحنة صغيرة. واصلنا الرحلة، عبر المدينة الآن، إلى أن بلغنا بيت هيرميندا.

وهذا الحديث عن البيت هو مجرد كلام، لأنه كان عشة من الخشب فقط. ففي تلك المنطقة لم تعد تظهر عمارات كبيرة ولا أضواء كثيرة. بل كانت تحيط بنا أكواخ أخرى، ملتصقة ببعضها البعض مثل نعاج مذعورة. أردت أن أسأل عن أشياء كثيرة، ولكنهم أمروني فورا بالذهاب لإنزال حزم الأمتعة من الشاحنة... ثم إلى النوم.

تيتو معوج الساقين هو الذي أوضح لي بعض الأمور. كان يعيش في كوخ مجاور، ولم أعرف أول الأمر لماذا يسمونه معوج الساقين. وقد رغبت في سؤاله عن ذلك، ولكنني كبحت نفسي.

كانت لدى تيتو عادة تحريك فمه دائما، كما لو أنه يمضغ طوال الوقت. وكان يتكلم بأقصى سرعة وبصوت يخرج من أنفه. في اليوم الأول لم أفهم شيئا مما يقوله، ولكننا أصبحنا صديقين. أراد أن يعرف من أين جئنا وماذا نعمل. أهالي بوينس آيرس هؤلاء يسألون دائما عن كل شيء لكي يسخروا منا. لم أجبه بشيء. وبعد عدة أيام سألني إذا كنت أريد الذهاب إلى مركز المدينة. أجبته نعم، ولكنني لا أملك نقودا. عندئذ أعطاني خمسين بيزو:

- خذ هذه النقود وستعيدها إلي فيما بعد.

صعدنا الحافلة رقم ١٥٠ ونزلنا في شارع كونغريسو لنمشي في شارع ريفادافيا. وفجأة، بدأ تيتو يلوي ساقيه كأنهما دون مفاصل، ويترنح مثل مشوه. ثم مدّ يده، ولم يعدم من يمنحه بعض القطع النقدية في ذلك العالم المزدحم بالناس.

شعرت بالخوف حين رأيته يعرج لأول وهلة؛ ولكنني تذكرت أنهم يسمونه معوج الساقين، فراودتني رغبة في الضحك. ولكن

الناس غـريبـو الأطوار: لا خـوف ولا ضـحك. كـانـوا ينظرون إلينا كـأننا غيـر مـوجـودين، وقـد يكون فـي نظـرتهم بعض الأسـى أحيـانا ولا شيء سوى ذلك.

همس تيتو قائلا لي:

- مدّ يدك أنت أيضا.

لم أكن أريد عـمل ذلك. ولـكنه كـان أكـبـر مني سنا، وتطلع إلي بنظرة غاضبة:

- لا تتصنع الحرج، واطلب دون قرف!

أظهرت أفضل وجه يمكن لي إظهاره ومددت يدي. كان الجميع يمرون دون أن ينظـروا إلي. ولكنني وجـدت فـي يـدي فـجـأة قطعـة نقـدية، ثم اثنتين.. ثم ثلاثا. كـان النـاس يصطدمـون بي تقـريبـا، كـأنهم لا يرونني. ولكنهم كـانوا يتـوقـفـون أحـيـانا ثم يـرجـعـون ليـمنحوني شيئا. ولاحظت عندئذ أن أولئك الأشخاص لا يرغبون فـي منح الصـدقات، ولكنهم حين يفكرون فـي الأمـر قليلا ينتبهون إلى فـائدة ذلك، لأنهم كانوا يواصلون طريقهم بعد منحي الصدقة وقد بدت على وجوههم مـلامح من أنجز صفقة رابحـة بقطعة نقد واحدة. وقـد شجعني ذلك، لأني أحـسست بأنني أمنحهم شيئـا ما، فضـلا عن أن هذا العـمل كان مـربحـا بالـنسـبـة إليّ أكـثـر من بيع قوالب الجبن.

بعد قليل التقيت مع تيتو ثانية وقال لي إن هذا يكفي. جلسنا فـي مقهى وطلبنا قهوة بالحليب وطبقا مزدوجا من شطائر القشدة. بعد ذلك أحـصينا النـقود. وكـعـادته، لم يـتوقـف تيـتو عن تحـريك فـمـه، ولكنه بدا حينئذ كأنه يمضغ شيئا مرا:

- هل لاحظت؟ لقد جمعتَ نقودا أكثر مني.

ثم صوب إليّ نظرة باردة وسامّة:

- طبعا؛ أنت أصغر سنا. وبوجهك هذا الذي مثل وجه طفل وقع لتوه من المهد!

أردت أن أردّ إليه الخمسين بيزو التي أقرضني إياها، ولكنه قال لا، لأننا شركاء. وطلب بالمقابل نصف ما معي. أجبته بأن هذه النقود هي لي، ولي وحدي. ولكننا لم نتشاجر، لأني دفعت ثمن فنجاني القهوة بالحليب وكل الأشياء الأخرى التي طلبناها. بعد ذلك مشينا حتى ساحة أونسي. ودخلنا إلى محل لبيع المثلجات. وأكلنا قطع المثلجات واحدة بعد أخرى، من سبعة أصناف، إلى أن شعرنا ببطنينا ينتفخان ويتصلبان مثل طبل. وكان الوقت قد صار ليلا عندما ذهبنا لنجلس في الساحة. ومع أني دفعت ثمن المثلجات أيضا، فقد كان تيتو ما يزال غاضبا. أراني الساحة الفسيحة والمدينة التي تحيط بنا مثل جبل عال من الأنوار:

- في هذا المكان تكون أختك دائما.

سألته:

- فلوريندا؟

- ربما تأتي هي الأخرى. لكن التي أراها دائما هي هيرميندا. أم أنك لا تعرف أنها تخرج للتعهر كل يوم؟

عرفت ما الذي يعنيه، ولكني تظاهرت بعدم الفهم. لكن تيتو لم يعترف بالهزيمة وبدأ يشرح لي مسهبا في التفاصيل. وقد تعمد ذلك لكي يذلني بالطبع؛ فحدثني عن الطريق الذي تقطعه أختي في ريفادافيا، ابتداء من كونغريسو وحتى أونسي، وبعد ذلك من

بويريدون حتى سارمينتو. وأحسست برغبة في سؤاله عن أشياء أخرى، لكن الشارع نفسه علمني الدرس: بالصمت وتصنع وجه الملاك سيجري كل شيء على ما يرام.

في تلك الليلة كانت أمي تنتظرني هلعة:

- أين كنت؟

لم أخبرها بشيء، وتركتها تتكلم وحدها. لم يكن يبدو على المسكينة أنها سعيدة أبدا. فقد كان عليها الاعتناء بابني هيرميندا المخاطيين، القذرين والبكاءين. وكان عليها كذلك أن تغسل كل الملابس وتكويها، وتهتم بالبيت طول النهار وقسطا طويلا من الليل. لأن أختيّ كانتا ترجعان متأخرتين دوما.

- ولكننا في بوينس آيرس، وكل شيء سيتبدل إلى الأفضل، أليس صحيحا يا بني؟

قلدتُ أبي العجوز: تظاهرت بالنوم ولم أجب بشيء.

بعد عدة أيام قالت هيرميندا إن سائق الشاحنة الصغيرة سيجد لي عملا، وإن الأجر سيكون قليلا بالطبع. قلتُ لا، وحين سألوني لماذا، لم أقل شيئا ونظرتُ إلى الجهة الأخرى. فهددتني هيرميندا:

- أنت لا تفكر في أنك ستقضي الوقت بطّالا، أليس كذلك؟ علينا جميعنا أن نتعاون هنا!

وفي مساء اليوم نفسه خرجت كعادتي مع تيتو وذهبنا لنتسول في كونغريسو. بدأنا من كاياو ووصلنا إلى سانتا فه، ثم واصلنا المسير إلى ريتيرو. بعد ذلك عدنا بالحافلة ١٥٠ وقد أنهكنا التعب، ولكن جيوبنا كانت ممتلئة بالنقود.

وفي اليوم التالي بدأ الشجار عند الغروب. فقد جاءت هيرميندا للبحث عني في الأرض الخلاء، حيث وجدتني أتفرج على مباراة لكرة القدم. فأخذتني إلى البيت وهي تسحلني على الأرض تقريبا. وهناك كانت الأسرة كلها بانتظاري. بدأت هيرميندا بتوجيه صفعتين إلى وجهي جعلتا المخاط يسيل من أنفي. ضغطتُ على أسناني كي لا أبكي مثلما كان يفعل ابنا أختي في أقصى الكوخ.

صرخت بي:

- يالك من قذر! كاتشو أخبرني بكل شيء! لقد رآك تتسول مع تيتو ولحق بكما في شاحنته عدة كوادرات.

لم أفتح فمي بأي حرف، فبث موقفي اليأس في نفوس أفراد أسرتي.

- كم جمعت من النقود خلال هذه الأيام؟ - سألتني فلوريندا ذلك ثم أمسكت بأذني وراحت تشدها.

وكانت هيرميندا بدورها تشد ذراعي كأنها تريد انتزاعها وهي تقول:

- أين تخبئ النقود؟

وبدأت أمي تتوسل:

- لماذا لا تسلمهما هذه النقود يا صغيري؟

لم أرد على صفعات أختيّ؛ وكان تأثري أقل بتوسلات أمي. صفعتني هيرميندا صفعتين أخريين وابتعدت عني كأنها تريد رؤية وجهي بصورة أفضل:

- أعرف ما حدث: لقد تركت تيتو يضحك عليك. أي مخنث أنت؟ ولكن تيتو لن يتذاكى عليّ أنا! سأذهب للبحث عنه الآن حالا!

– لم أعطِ تيتو أي شيء قط. كل هذه النقود أنفقتها أنا. اشتريت بها مثلجات وبسكويت وحلوى البرتقال، وأشياء أخرى كثيرة.

– أنفقت كل شيء، كل شيء؟ – قالتا متحسرتين كأنهما هما من تلقتا الصفعات وليس أنا. أطبقت فمي وانتظرت أن تنتهيا من تقريعي وضربي. وأخيرا تركتاني وحيدا مع أمي، فلعلها تجعلني أتكلم ببكائها. ولكنني استخدمت الوسيلة التي تعلمتها من أبي العجوز: تظاهرت بالنوم، بفم مفتوح ووجه صبي طيب: وهي الملامح نفسها التي كنت أتصنعها لأطلب الصدقات.

وفي أثناء ذلك كنت أفكر في أن اللحظة المناسبة قد جاءت، وهذا ما لم يكن يعرفه تيتو ولا أي شخص آخر. وحتى أنا نفسي كنت لا أكاد أتصور ما الذي يمكن أن يحدث فيما بعد. فكل شيء كان أشبه بتلمس طريق في ظلام الليل الذي يخيم على حي البؤس.

كان لا بد من عمل ذلك فورا، لأن أختيّ خرجتا إلى مركز المدينة، وأمي كانت تهوي من النعاس. انتظرت إلى أن نامت في السرير الكبير، إلى جانب جرويّ هيرميندا. وعندئذ نهضتُ. وكان من عادتي أن أمشي في الكوخ ليلا دون صعوبة، مثل قط أو لص. وبعينين مغمضتين أو مفتوحتين في الظلام كنت أعرف كيف أصل إلى قن الدجاج الخاوي في أقصى الفناء. وهناك رفعت طوبة آجر، وثانية، وثالثة. وتحتها كنت قد خبأت في كيس نايلون أوراقا نقدية من فئة المئة بيزو.

لم آخذ شيئا من ممتلكات أختيّ كي أُظهر لهما ترفعي وابصق عليهما احتقارا. لم آخذ إلا ثيابي التي كنت ألبسها والنقود التي كانت لي وحدي. ولحسن الحظ أني كنت أعرف الطريق وأعرف ما

علي عمله: الحافلة رقم ١٥٠ أوصلتني إلى ريتيرو. وعلى امتداد شارع كاياو ودعت بوينس آيرس دون حزن أو سعادة. فهي ستبقى إلى الأبد لأناس آخرين. أما أنا فسأمضي إلى ما هو لي: قضيت الليل في قاعة الانتظار بمحطة القطار، وفي الصباح ركبت القطار إلى القرية.

كل ذلك حدث بسرعة كبيرة، ولكنني وصلت متأخرا مع ذلك. لم أكن بحاجة للوصول إلى الكوخ. فما أن نزلت من القطار حتى التقيت ببانتشو وهورتينسيا. وقد فتحت هذه الأخيرة فمها الذي بلا أسنان، وكأنه جحر رطب لتقول لي:

- ألم تعلم؟ أبوك المسكين كان عند التحويلة يبيع الجبن حين ظهر فجأة قطار شحن الفواكه السريع. ولم يستطع المسكين، بساقه الوحيدة، أن يقفز بعيدا بالطبع. لم يبق من العجوز عضو كامل، ولم يبق كذلك شيء من سلة أجبانه. ألم تعلموا بذلك؟

أجبتها:

- لم نعرف شيئا. لقد كنت أريد أن أفاجئه بعودتي لمساعدته!

قال بانتشو:

- لا بد أنه كان سيفرح كثيرا بعودتك. فقد تركتموه وحيدا.. وهذا بالضبط ما خوزقه!

ومثل أبي، بدأ الماء عندئذ يسيل من عينيّ.

عينا سيلينا

Los ojos de Celina

في الأصيل الأبيض من الحر، بدت لي عينا سيلينا بئري ماء بارد. فلم أعد ابتعد عنها، كأنني وجدت إلى جانبها ظل شجرة صفصاف، في وسط حقل القطن الذي تلهبه الشمس. ولكن أمي كان لها رأي مخالف: «هي التي سعت إليك، عديمة الحياء»، هذه كانت كلماتها. وكالعادة، لم أتجرأ على مخالفتها، ولكنني أنا، إذا لم تخني، من بقيت إلى جوار سيلينا وبي رغبة في النظر إليها في كل لحظة. ومنذ ذلك اليوم صرت أساعدها في القطاف، ولم يرق هذا لأمي أيضا، وهي المعتادة على الأساليب التي علمتنا إياها في الأسرة. أعني، العمل الشاق والمتواصل، دون التفكير بأي شيء آخر. وكل ما نكسبه كان لأمي، دون أن نُبقي لأنفسنا بيزو واحدا. فعجوزنا هي التي تتولى كل نفقات البيت ونفقاتنا.

لقد تزوج أخي قبلي، لأنه أكبر مني سنا، وكذلك لأن زوجته روبيرتا بدت محبة للعمل وصموتا مثل بغلة. فهي لم تتدخل في شؤون الأسرة واستمر كل شيء مثلما كان من قبل. حتى أننا لم نعد ننتبه بعد وقت قصير إلى وجود امرأة غريبة في البيت. أما سيلينا فكان أمرها مختلفا. فهي تبدو ضعيفة ولم تكن جيدة في العمل. ولهذا كانت أمي تكلفها بأقسى أعمال الحقل، لترى إن كانت ستتعلم أخيرا.

وقد زاد أمور سيلينا سوءا ما خطر لها بأنه يمكننا، بعد أن تزوجنا، أن نقيم في بيت مستقل وأن أحتفظ بنقودي لنفسي. قلت

لها إنني لن أفعل مثل هذا بأمي مقابل أي شيء في الدنيا. وشاء سوء الطالع أن تعلم العجوز بفكرة سيلينا. فعاملتها على أنها مجنونة ولم تغفر لها قط. وقد خجلتُ بدوري لأن زوجتي تفكر بطريقة مختلفة عنا جميعا. وآلمني أن أرى أمي شاكية. كما أنها أنّبتني لأني أنا نفسي لم أعد أشتغل كما في السابق، وكانت تلك هي الحقيقة الخالصة. فالواقع أنني كنتُ أقضي وقتا طويلا إلى جانب سيلينا. وكانت المسكينة تنحل يوما بعد يوم، لكن عينيها بالمقابل كانتا تتسعان. وهذا بالتحديد ما كان يفتنني: عيناها الكبيرتان. ولم أكن أمل من النظر إليهما قط.

مرت سنة أخرى وساءت الأمور أكثر. فروبيرتا تعمل في الحقل مثل أتان وقد أنجبت ابنها الثاني. وكانت أمي تبدو سعيدة، لأن روبيرتا مثلها، تنجب ذكورا للعمل. أما سيلينا بالمقابل فلم تنجب أولادا، حتى ولا مولودة أنثى. لم أكن أشعر أنني بحاجة إلى أبناء، لكن أمي كانت تؤنبنا. ولم أجرؤ على مخالفتها قط، وخصوصا حين تكون غاضبة، مثلما كانت في تلك المرة عندما استدعتنا، نحن ابنيها، لتقول لنا إنه لا بد من التخلص من إزعاج سيلينا في البيت، وإنها ستتولى بنفسها هذا الأمر. بعد ذلك بقيت تتحدث مع أخي على انفراد، وقد أحزنني ذلك كثيرا، لأن الحال لم تعد كالسابق، حين كنا نحلّ كل المسائل معا. فالآن تتفاهم أمي وأخي وحدهما. وعند الغروب رأيتهما يذهبان في العربة ومعهما قدر وحزمة من الخيش. فكرت بأنهما ذاهبان إلى الجبل للبحث عن عشبة برية أو عن طلسم لإصلاح حال سيلينا. لم أجرؤ على سؤالهما شيئا. فقد كنت أخشى على الدوام رؤية أمي غاضبة.

في اليوم التالي أخبرتنا والدتي أننا سنخرج يوم الأحد في نزهة إلى النهر. لم تكن تبدي على الإطلاق ميلا إلى النزهات في أيام الآحاد أو في أي يوم آخر، لأن هناك دوما عملا نقوم به في البيت أو في الحقل. ولكن أكثر ما أثار استغرابي هو أنها أمرت سيلينا بالمجيء معنا، بينما كان على روبيرتا البقاء لتعتني بالبيت وبالصغيرين.

لقد تذكرت في يوم الأحد ذاك الأزمنة القديمة، عندما كنا صغارا. وبدت أمي سعيدة وأصغر سنا مما هي عليه. فقد جهزت الطعام للنزهة وربطت الحصان إلى العربة. ثم أخذتنا بعد ذلك إلى منعطف النهر.

كان الوقت ظهرا، وكان الجو حارا كأنه الفرن. طلبت أمي من سيلينا أن تذهب لتدفن دمجانة النبيذ في رمال النهر الباردة. وأعطتها كذلك القدر الملفوفة بقطعة الخيش:

- افتحي هذه عند النهر. واغسلي الطماطم التي فيها جيدا من أجل السلطة.

بقينا وحدنا وليس لدينا، كالعادة، ما نقوله. وفجأة سمعتُ صرخة تطلقها سيلينا أوقفت شعر بدني. ثم أنها نادتني بعد ذلك بصرخة كصرخة حيوان ضائع. أردتُ أن أركض نحوها، ولكنني فكرت بأعمال السحر وساورني خوف شديد. ثم إن أمي طلبت مني ألا أتحرك من مكاني.

جاءت سيلينا مترنحة كأنها قد شربت وحدها كل النبيذ الذي حملته إلى النهر لتبرده. ولم تفعل شيئا آخر سوى النظر إليّ نظرة عميقة بهاتيك العينين وهوت على الأرض. انحنت أمي فوقها،

وتفحصت جسد سيلينا بدقة. وأشارت:

- هنا، تحت المرفق.

وقال أخي:

- هنا بالضبط لدغت الأفعى.

كانا يتفحصان بعيون متفاهمة. وفتحت سيلينا عينيها وعادت تنظر إليّ، وتلعثمت قائلة:

- أفعى. كانت هناك أفعى في القدر.

نظرتُ إلى أمي، فوضعت عندئذ إصبعها على جبهتها لتشير إلى أن سيلينا قد أصيبت بالجنون. الحقيقة أنها لم تكن تبدو بكامل وعيها: كان صوتها يرتعش، ولم تكن تكمل نطق الكلمات، مثل مخمور متلعثم اللسان.

أردت أن أضغط على ذراعها كيلا يسري السم فيها، لكن أمي قالت إن الوقت قد فات، ولم أجرؤ على مخالفتها. عندئذ قلتُ إنه يتعين علينا أن ننقلها بالعربة إلى القرية. لم تردّ أمي عليّ. كانت تزم شفتيها، فأدركتُ أنها آخذة بالغضب. عادت سيلينا تفتح عينيها وتبحث عن نظرتي. حاولت النهوض. وخطر لنا جميعنا أن السم لم يكن قويا بما يكفي. حينئذ أمسكت بي أمي من ذراعي وقالت لي:

- هذا لا يمكن إصلاحه إلا بطريقة واحدة. يجب أن نجعلها تركض.

ساعدني شقيقي على رفعها عن الأرض. قلنا لها إنه عليها أن تركض لتشفى. الحقيقة أنه من الصعب على أي شخص الركض في مثل تلك الحال: فالسم يصبح أسوأ عند الركض ومفعوله أسرع. لكنني لم أجرؤ على مجادلة أمي، ولم يكن يبدو على سيلينا

أنها تفهم شيئا يُذكر. كانت كلها عينين - وأي عينين! - لتنظر إليّ وتشير لي برأسها أن نعم، لأنها لم تعد قادرة على تحريك لسانها.

عندئذ صعدنا إلى العربة، وبدأنا طريق العودة إلى البيت. وكانت سيلينا تكاد تعجز عن تحريك ساقيها، ولم أعرف إذا ما كان ذلك بفعل السم أو لخوفها من الموت. كانت عيناها تكبران أكثر فأكثر، ولم تكن ترفع بصرها عني، كأنه لا وجود لشيء آخر في الدنيا سواي. كنت أفتح لها ذراعي وأنا في العربة مثلما يفعلون حين يعلمون طفلا صغيرا المشي، وكانت هي تفتح لي ذراعيها كذلك، مترنحة مثل سكران. وفجأة وصل السم إلى قلبها وهوت على الأرض مثل عصفور صغير.

سهرنا على جثمانها في البيت، ودفناها في اليوم التالي في الحقل. ذهبت أمي إلى القرية للإبلاغ عن الحادث. وتواصل الحياة مشابهة لما عهدناه، إلى أن جاء في مساء أحد الأيام مفوض تشانيارال مع شرطيين واقتادونا إلى القرية، وبعد ذلك إلى سجن ريسيستنشيا.

يقال إن روبيرتا هي التي روت في القرية قصة الأفعى في القدر. ونحن الذين كنا نظنها صموتا مثل بغلة! لقد كانت تتظاهر دوما بأنها ذبابة ميتة، ولكنها استولت أخيرا على البيت وعلى العربة وعلى كل شيء.

ما أسفنا عليه حقا، أنا وأخي، هو فصلنا عن أمنا العجوز حين نقلوها، إلى الأبد، إلى سجن النساء. لكنني لا أشعر في الحقيقة بأنني في حالة سيئة. فالعمل في السجن أقل والأكل أفضل مما كان عليه في الريف. ولكنني أرغب فقط لو أنني أستطيع أن أنسى، لليلة واحدة، عيني سيلينا وهي تركض وراء العربة.

خوان رولفو

Juan Rulfo

(المكسيك)

● ولد خوان رولفو في مقاطعة خاليسكو المكسيكية عام ١٩١٨، وتوفي في مدينة مكسيكو عام ١٩٨٦.

● عاش في طفولته الانتفاضات الفلاحية التي عصفت بالمكسيك، وكانت أشد عنفا في مقاطعته منها في مناطق البلاد الأخرى. وقد كان لهذه التجربة أثر كبير في تكوينه الأدبي اللاحق.

● توفي أبواه منذ طفولته المبكرة، فعاش عدة سنوات في ملجأ للأيتام، واضطر إلى العمل منذ سنوات صباه.

● بدأ حياته الأدبية بالكتابة لمجلة «خبز» التي كانت تصدر في مدينة غوادي لاجارا، حيث ظهرت قصصه القصيرة الأولى.

● انتقل إلى مدينة مكسيكو، وهناك كتب ونشر مجموعته القصصية «السهب الملتهب» عام ١٩٥٣، وروايته الشهيرة «بيدرو بارامو» (١٩٥٥).

● عكس في قصصه القصيرة حياة الفلاحين البائسة والموحشة في مقاطعة خاليسكو حيث الأرض الجافة القاحلة، وصراع أولئك الفلاحين في سبيل الحياة تحت ظروف قاسية من الظلم الاجتماعي.

● على الرغم من أن رولفو لم يكتب سوى رواية واحدة ومجموعة قصصية تضم خمس عشرة قصة قصيرة، فإنه برز كأحد ممثلي الرواية الأمريكية اللاتينية المعاصرة.

●كتب عددا من السيناريوهات السينمائية. ومثّل دورا قصيرا مع لويس بونويل وغابرييل غارسيا ماركيز، في فيلم مأخوذ عن قصة «لا يوجد لصوص في هذه القرية» لغارسيا ماركيز.

لأننا جد فقراء

Es que somos muy pobres

كل شيء هنا يمضي من سيئ إلى أسوأ. ففي الأسبوع الماضي توفيت عمتي خاثينتا، ويوم السبت، عندما كنا قد دفناها، وبدأ حزننا يتضاءل، أخذ المطر ينهمر كما لم يحدث من قبل. وسبب ذلك لوالدي إحساسا بالغيظ، لأن كل محصولنا من الشعير كان منشورا تحت الشمس في الفناء. وقد هطل وابل المطر فجأة في دفقات كبيرة، حتى أنه لم يكن لدينا متسع لرفع ولو حفنة واحدة من الشعير وتخبئتها. والشيء الوحيد الذي استطعنا عمله، نحن جميع من في البيت، هو احتماؤنا تحت السقف، بينما كنا نرى كيف كان الماء البارد الذي يسقط من السماء، يحرق ذلك الشعير الأصفر الذي حصدناه حديثا.

وبالأمس فقط، عندما أتمت أختي تاتشا اثني عشر عاما من عمرها، علمنا أن النهر قد حمل معه البقرة التي أهداها إليها والدي في يوم عيد ميلادها.

لقد بدأ النهر بالتعاظم قبل ثلاث ليال، عند الفجر. كنت نائما حينئذ بعمق، ومع ذلك فإن الهدير الذي كان يأتي من النهر المندفع جعلني أستيقظ في الحال، وأثب من السرير حاملا الدثار في يدي، كما لو أنني ظننت بأن سقف البيت ينهار. ولكنني عدت إلى النوم بعد ذلك، لأنني تعرفتُ على صوت النهر، ولأن هذا الصوت صار له إيقاع متشابه حمل النعاس إليّ من جديد.

عندما استيقظتُ، كان الصباح يغص بالغيوم، ويبدو أن المطر قد هطل دون توقف. وقد لاحظت أن هدير النهر صار أقوى، وصار يسمع كما لو أنه أقرب. بينما انتشرت في الجو رائحة كأنها رائحة الحرق... إنها رائحة العفونة المنبعثة من الماء الصاخب.

وعندما ذهبتُ لألقي نظرة، كان النهر قد فقد ضفتيه، وأخذ يرتفع شيئا فشيئا على الطريق العام. وكان ينفذ بسرعة كبيرة إلى بيت تلك المرأة التي يسمونها «لاتمبورا». وكان هدير الماء يُسمع وهو يدخل إلى الحظيرة ويخرج بدفقات كبيرة من الباب. وكانت «لاتمبورا» تمضي وتجيء متنقلة في ما صار جزءا من النهر، وهي تحمل دجاجاتها وترمي بها إلى الشارع لتذهب وتختبئ في مكان بعيد لا يصله التيار.

أما في الجهة الأخرى، حيث المنعطف، فكان النهر قد جرف، ومن يدري منذ متى، شجرة التمر الهندي التي كانت تنتصب في فناء بيت عمتي خاثينتا، حيث لا تظهر هناك الآن أي شجرة تمر هندي. لقد كانت تلك هي شجرة التمر الهندي الوحيدة في القرية، ولهذا السبب فقط، تنبه الناس إلى أن هذا الفيضان الذي نشهده هو أكبر فيضان عرفه النهر منذ سنوات بعيدة.

رجعنا أنا وأختي مرة أخرى في المساء لنتفرج على تراكم الماء ذاك الذي يصير شيئا فشيئا، أكثر كثافة وقتامة، والذي ارتفع الآن أعلى بكثير من المكان الذي يجب أن يكون فيه الجسر. وبقينا هناك لساعات وساعات نتفرج دون ملل على تلك الأشياء. وبعد أن صعدنا من المنخفض، لأننا أردنا أن نسمع ما الذي يقوله الناس، فتحت، إلى جانب النهر، كانت الضجة كبيرة، وكنا نرى فقط أفواه الكثيرين

وهي تُفتح وتُطبق كأنهم يريدون أن يقولوا لنا شيئا؛ ولكننا لم نكن نسمع شيئا. ولهذا صعدنا من المنحدر، إلى حيث كان الناس يتطلعون إلى النهر وهم يحصون الأضرار التي أحدثها. وهناك عرفنا أن النهر قد حمل معه أيضا «سربينتينا»، بقرة أختي تاتشا البديعة، التي أهداها إليها والدي في عيد ميلادها، وقد كانت بقرة جميلة، لها أذن بيضاء وأخرى حمراء، وعينان بديعتان.

لم استطع أن أفهم لماذا خطر لـ «سربينتينا» أن تجتاز النهر، وهي ترى أنه ليس النهر نفسه الذي تعرفه يوميا. لم تكن «سربينتينا» بمثل هذا التهور قط. والاحتمال الأكبر هو أنها أتت وهي نائمة، وإلا ما كانت لتدع نفسها تموت هكذا. لقد كان عليّ أن أوقظها في أحيان كثيرة عندما أفتح باب الحظيرة صباحا، لأني إذا ما تركتها لتنهض على سجيتها فإنها ستبقى طول النهار مغمضة عينيها وساكنة، وهي تزفر كما تزفر الأبقار عندما تنام.

لا بد أن يكون قد حدث لها ما حدث هنا وهي نائمة. ربما تكون قد استيقظت عندما شعرت بالماء الثقيل يصفع أضلاعها. وربما تكون قد ارتعدت عندئذ وحاولت الرجوع؛ ولكنها وجدت نفسها حين استدارت متورطة ومحمومة وسط تلك المياه السوداء القاسية كأنها الوحل اللزج. وربما أطلقت خوارها طالبة المساعدة... أطلقت خوارها بصورة لا يعلمها إلا الله.

سألتُ رجلا رأى البقرة عندما سحبها النهر، إذا ما كان قد رأى كذلك العجل الصغير الذي يمضي معها. ولكنه قال إنه لا يعرف إن كان قد رآه. وقال إن البقرة المرقشة مرت وقوائمها إلى أعلى قريبا جدا من المكان الذي كان يقف فيه، ثم انقلبت ولم يعد يرى بعد ذلك

قرنيها ولا قوائمها ولا أي أثر لها. لأن النهر كان يحمل جذوع أشجار كثيرة بجذورها وكل ما فيها، وكان هو مشغولا جدا بسحب قطع الحطب من الماء، وهكذا لم يكن بمقدوره التأكد مما إذا كانت جميعها جذوع أم حيوانات تلك التي يجرفها النهر.

وبهذا لم نتوصل إلى معرفة إذا ما كان العجل حيا، أم أنه ذهب وراء أمه في النهر. فإذا كان هذا هو ما حدث، فليرحمهما الله معا.

إن الحرج الذي وقع في بيتنا هو مما يمكن أن يحدث في المستقبل، بعدما لم تعد أختي تاتشا تملك شيئا الآن. لأن أبي استطاع بعد عمل طويل، الحصول على «سربينتينا» عندما كانت ما تزال عجلة صغيرة، وأهداها إلى أختي ليصبح لديها رأس مال بسيط، ولا تمضي لتصير مومسا كما فعلت شقيقتاي الكبيرتان الأخريان.

فهما، كما يقول والدي، أضاعتا نفسيهما لأننا في بيتنا فقراء جدا، وهما كانتا عنيدتين. ومنذ صغرهما كانتا متذمرتين. وما أن كبرتا فيما بعد، حتى صارتا تخرجان مع رجال من النوع السيئ، وهؤلاء علموهما أمورا خبيثة. وقد تعلمتا بسرعة وصارتا تفهمان جيدا إشارات بالصفير عندما ينادونهما في ساعات متأخرة من الليل. فتخرجان عندئذ ولا تعودان حتى الصباح. أو تذهبان في أي وقت بحجة جلب الماء من النهر، وفي بعض الأحيان، وفي وقت لا يخطر على بال أحد، تكونان هناك في الحظيرة، تمارسان الخطيئة مع اثنين من الرجال.

عندئذ طردهما أبي من البيت. لقد تحمّلهما في البداية بقدر ما استطاع؛ ولكنه لم يعد يحتمل فيما بعد، وألقى بهما إلى الشارع.

فذهبتا إلى «ايوتلا» أو إلى مكان آخر لا أدري ما اسمه، ولكنهما تحولتا إلى ماجنتين.

ولهذا يتألم والدي كثيرا الآن من أجل تاتشا - لأنه لا يريد لها أن تنتهي إلى ما انتهت إليه شقيقتاها الأخريان - حين يرى أنها صارت فقيرة معدمة بعد أن فقدت بقرتها، ويرى أنه لم يعد لديها ما تتسلى به ريثما تكبر وتتمكن من الزواج من رجل طيب، يحبها إلى الأبد. وهذا سيكون صعب التحقيق الآن. فمع وجود البقرة كانت الأمور مختلفة، إذ لم تكن لتعدم حينئذ من يتحمس للزواج منها، ليحصل أيضا على تلك البقرة البديعة.

الأمل الوحيد الذي بقي أمامنا هو أن يكون العجل الصغير على قيد الحياة... عسى ألا يكون قد عبر النهر وراء أمه. لأنه إذا كان قد فعل ذلك، فإن أختي تاتشا لن تتأخر كثيرا حتى تتحول إلى بنت هوى... وأمي لا تريد لها هذا المصير.

أمي لا تدري لماذا عاقبها الله هكذا بمنحها بنات من هذا النوع، مع أن أسرتها - منذ جدتها حتى الآن - لم تعرف أناسا سيئين. وقد تلقوا جميعهم تربية تستند إلى مخافة الله، وكانوا مطيعين، ولا يسيئون احترام أحد... جميعهم كانوا من هذا النمط. فمن يدري من أين أتت هاتان الابنتان بذلك المثال الخبيث. هي لا تتذكر. وكلما فكرت بهما تبكي وتقول: «فليحمهما الله كلتيهما».

ولكن والدي يقول إن أمرهما قد انتهى وليس ثمة حل. وإن الخطر إنما يكمن في من بقيت هنا: تاتشا. التي تمضي مثل قضيب ألبان، تنمو وتنمو، وقد أخذت تبرز في صدرها بدايات نهدين يتوعدان بأنهما سيكونان مثل أثداء شقيقتيها: منتصبين،

متعالين، وهائجين ليلفتا الانتباه.

والدي يقول:

- أجل... إنها ستملأ عيني أي رجل يراها في أي مكان.

وستنتهي نهاية سيئة... إنني أرى أنها ستنتهي نهاية سيئة.

هذا هو العذاب الذي يكابده والدي.

وتاتشا تبكي وهي تشعر بأن بقرتها لن تعود لأن النهر قد حملها معه. إنها الآن هنا، إلى جانبي، ترتدي فستانها الوردي وتتطلع إلى النهر من فوق الأكمة دون أن تتوقف عن البكاء. تسيل على وجهها خيوط ماء عكر وكأن النهر قد دخل إلى أعماقها.

وأنا أحتضنها محاولا مواساتها، ولكنها لا تفهم ذلك، بل تزداد رغبة في البكاء. ومن فمها يخرج صرير شبيه بذاك الذي يصدر عن حواف النهر، فيجعلها ترتجف وتختلج بكاملها، وفي أثناء ذلك يستمر ماء الفيضان بالارتفاع. طعم العفونة الذي يأتي من النهر يرش وجه تاتشا المبلل، بينما نهداها الصغيران يرتعشان ويهتزان إلى أسفل وإلى أعلى، دون توقف، وكأنهما سيأخذان بالانتفاخ فجأة لتبدأ السير في طريق ضياعها.

قل لهم ألا يقتلوني!

Diles que no me maten!

- قل لهم ألا يقتلوني يا خوستينو! هيا، اذهب وقل لهم هذا، رحمة بي. قل لهم هذا. قل لهم ألا يفعلوا ذلك رحمة بي.

- لا أستطيع. هنالك رقيب لا يود سماع أي شيء عنك.

- اجعله يسمع. استغل مهارتك وقل له إنني نلت ما يكفي من الخوف. قل له أن يطلقني لوجه الله.

- ليست المسألة هي تخويفك وحسب. يبدو أنهم يريدون قتلك فعلا. وأنا لا أريد العودة إلى هناك مرة أخرى.

- اذهب مرة أخرى. مرة واحدة أخرى فقط، ولنر ما الذي ستتوصل إليه.

- لا، لستُ راغبا في الذهاب. فأنا ابنك، وإذا ما أكثرت من الذهاب إليهم، فسوف ينتهي بهم الأمر إلى معرفة من أكون، وقد تخطر لهم فكرة إعدامي أنا أيضا. من الأفضل وقف الأمور عند هذا الحد.

- اذهب يا خوستينو. قل لهم أن يشفقوا عليّ. قل لهم هذا وحسب.

ضغط خوستينو على أسنانه وهز رأسه قائلا:

- لا.

وواصل هز رأسه لوقت طويل.

- اطلب من الرقيب أن يسمح لك بمقابلة العقيد. وأخبره كم أنا هرم. وكم أنا تافه القيمة. أي مكسب سيجنيه من قتلي؟ ليس في

ذلك أي مكسب. ولا بد أن لديه روحا في نهاية المطاف. قل له أن يفعل ذلك من أجل خلاص روحه المباركة.

نهض خوستينو عن كومة الحجارة التي كان جالسا عليها ومشى حتى باب الحوش. ثم استدار بعد ذلك ليقول:

- إنني ذاهب. ولكن إذا ما أعدموني أنا أيضا؟ فمن سيعتني بزوجتي وبالأبناء؟

- العناية الإلهية يا خوستينو. العناية الإلهية ستتولى أمرهم. اهتم الآن بالذهاب إلى هناك، ولنر ما الذي تستطيع عمله من أجلي. هذا هو الأمر المُلِّح الآن.

جاءوا به عند الفجر. وقد تقدمت ساعات الصباح الآن وهو ما زال هناك، ينتظر مقيدا إلى العمود الخشبي. لم يكن بإمكانه البقاء هادئا. لقد حاول النوم قليلا ليهدئ من روعه، لكن النوم جافاه. وقد فارقه الجوع أيضا. لم يكن يرغب في شيء. إنه يريد العيش وحسب. فبعد أن أيقن تماما الآن أنهم سيقتلونه، داخلته رغبة كبيرة في العيش لا تدانيها إلا الرغبة التي قد تعتري من يبعث لتوه حيا.

من كان يصدق أن تعود تلك القضية القديمة، المغرقة في القِدم، والتي ظن أنها قد دُفنت نهائيا. تلك القضية التي كان عليه فيها أن يقتل دون لوبي. وهو لم يفعل ذلك لمجرد أن يفعله، كمن يريد أن يُري أهالي «أليما» ما يفعله، وإنما كانت لديه أسباب. وهو يتذكر ذلك:

دون لوبي تيريروس، صاحب مزرعة «الباب الحجري» وهو، من أجل مزيد من المعلومات، صديقه. وقد اضطر هو، خوفينثيو نافا، إلى قتله لهذا السبب؛ لأنه مالك «الباب الحجري» ولأنه أنكر عليه، بالرغم من كونه صديقه، المرعى لماشيته.

لقد تحمل ذلك في البدء لمجرد الالتزام. ولكنه فيما بعد، عندما حلّ الجفاف، ورأى كيف كانت مواشيه تموت جوعا الواحدة تلو الآخرى، بينما استمر صديقه دون لوبي على حرمانه من عشب مراعيه، قام عندئذ بنزع السياج وإدخال قطيع مواشيه الضامرة إلى المرعى كي يشبع أكلا. لم يرق ذلك لدون لوبي الذي أمر بإعادة إغلاق السياج، لكي يعود هو، خوفينثيو نافا، لفتح الثغرة فيه ثانية. وهكذا، كانت الثغرة تُسد في النهار ويُعاد فتحها في الليل، بينما الماشية ملتصقة بالسياج، تنتظر هناك دوما؛ ماشيته تلك التي كانت تعيش من قبل متشممة رائحة العشب دون أن تتمكن من تذوقه.

وكان هو ودون لوبي يتجادلان ويعودان إلى الجدال دون أن يتوصلا إلى اتفاق.

إلى أن قال له دون لوبي يوما:

- انظر يا خوفينثيو، سأقتل أي حيوان آخر تُدخله إلى مربعي.فأجابه هو:

- انظر يا دون لوبي، لستُ مذنبا إذا كانت الحيوانات تبحث عما يريحها، فهي بريئة. ولكنك ستتحمل المسؤولية إن أنت قتلتها.

«وقتل لي عجلا».

«حدث ذلك قبل خمس وثلاثين سنة، في شهر مارس، لأنني كنت في شهر أبريل أختبئ في الجبل يطاردني القضاء. ولم تُجدني نفعا البقرات العشر التي أعطيتها للقاضي، ولا الحجز على داري لأدفع له بدل إخراجي من السجن. فقد استولوا بعد ذلك على ما تبقى لي لمجرد الكف عن ملاحقتي، لكنهم ظلوا يلاحقونني على أي حال. ولهذا جئت لأعيش مع ابني في قطعة الأرض الصغيرة هذه التي

كنت أملكها، والتي تدعى «قرن الغزال». وكبر ولدي وتزوج من كنّتي إغناسيا، وأنجب حتى الآن ثمانية أبناء. وهكذا فإن القضية قديمة، وبناء عليه يجب أن تكون منسية. ولكن هذا الذي يحدث لي، يدل على أنها لم تُنس.

«لقد قدرت آنذاك بأن حوالي مئة بيزو ستحل الأمر كله. فالمرحوم دون لوبي كان وحيدا، ليس له سوى امرأته، وولدين صغيرين يحبوان. وقد ماتت الأرملة أيضا بعده بقليل، وقيل إنها ماتت من الحزن. وأخذوا الطفلين بعيدا، عند أقارب لهما، وهكذا لم يكن هناك ما أخشاه من جهتهما، بيد أن الآخرين أصروا على أنني مطلوب للعدالة ولم أُحاكم، لكي يخيفوني ويواصلوا سرقتي. فكلما وصل أحدهم القرية يحذرونني:

– هناك غرباء في البلدة يا خوفينثيو، فأهرع إلى الجبل وأتوغل بين أشجار القَطلب، أقضي الأيام هناك في أكل الفرفحينة وحسب. وكنت أضطر أحيانا إلى الهروب في منتصف الليل، كمن تلاحقه الكلاب. وقد دام ذلك طوال حياتي كلها. لم يحدث لسنة أو لسنتين. بل طوال الحياة». وها هم قد جاءوا الآن بحثا عنه، في وقت لم يعد ينتظر فيه قدوم أحد، مطمئنا للنسيان الذي أسلمه إليه الناس؛ ومعتقدا أنه سيقضي أيامه الأخيرة، على الأقل بهدوء. وفكر: «هذا ما سأناله على الأقل من كوني مسنا. سيتركونني وشأني».

كان قد استسلم كليا لهذا الأمل. ولهذا وجد صعوبة في تصور أنه سيموت فجأة بهذه الطريقة، بعد أن تقدم إلى هذا الحد في الحياة، وبعد صراعه الطويل للتهرب من الموت؛ وتمضيته أفضل مراحل حياته في التنقل من مكان إلى آخر يجرجره الخوف، وبعد

أن تحول جسده إلى مجرد جلد رخو مدبوغ بتلك الأيام الصعبة التي كان عليه أن يمضي فيها متواريا عن أعين الجميع.

أولم يستسلم حتى لهجر زوجته له؟ فعندما طلع عليه الصباح في ذلك اليوم ليعلم أن زوجته قد غادرته، لم تخطر في باله، بأي حال، فكرة الخروج للبحث عنها، استسلم لرحيلها دون أن يتحرى مطلقا لمعرفة مع من ذهبت وإلى أين، تجنبا للنزول إلى القرية. أذعن لذهابها مثلما أذعن لتسرب كل الأشياء من بين يديه، دون أن يتدخل في الأمر. فالشيء الوحيد المتبقي له للحفاظ عليه هو حياته، وهذه سيحافظ عليها كيفما اتفق. لا يمكنه أن يتركهم يقتلونه. لا يمكنه ذلك. ولا سيما الآن بالذات.

لكنهم جاءوا به لهذه الغاية من هناك، من «قرن الغزال». لم يكونوا بحاجة إلى تقييده كي يتبعهم، لقد مشى بنفسه، لا يقيده سوى الخوف. وقد لفتوا انتباهه إلى أنه لن يستطيع الركض بذلك الجلد الهرم، وتينك الساقين الضعيفتين مثل قصبتين يابستين، متشنجتين خوفا من الموت. لأنه ماض إليه، إلى الموت، وقد أخبروه بذلك.

ومنذ علم بالأمر، بدأ يشعر في معدته بذلك التآكل الذي ينتابه فجأة كلما رأى الموت عن قُرب، والذي يُظهر الجزع من عينيه، ويملأ فمه بجرعات من ذلك السائل الحامض الذي يتعين عليه ابتلاعه على مضض. ويشعر كذلك بهذا الشيء الذي يثقل قدميه بينما يجعل رأسه يرتخي، وقلبه يضرب أضلاعه بكل قواه. لا، لم يكن قادرا على تقبل فكرة أنهم سيقتلونه.

لا بد من وجود أمل ما. يمكن أن يكون هناك بصيص من الأمل

في مكان ما. ربما يكونون قد أخطأوا، ربما هم يبحثون عن خوفينثيو نافا آخر وليس عن خوفينثيو نافا الذي كانه هو.

مشى بين أولئك الرجال صامتا، ذراعاه متهدلان، كان الفجر مُعتما، بلا نجوم، وكانت الريح تهب خفيفة، فتذرو التراب الناشف وتأتى بغيره، ينضح بتلك الرائحة الشبيهة برائحة البول التي تنبعث من غبار الدروب.

عيناه اللتان رهلتهما السنون تنظران إلى الأرض، هنا، تحت قدميه، على الرغم من العتمة. ففي هذه الأرض أمضى كل حياته. ستين سنة عاشها فوق أديمها، ممسكا بها بين يديه، ومتذوقا إياها مثلما يذاق طعم اللحم. أمضى وقتا طويلا وهو يفتتها بعينيه، متلذذا بكل قطعة منها كأنها القطعة الأخيرة، مدركا تقريبا أنها ستكون الأخيرة.

بعد ذلك، وكما لو أنه يريد أن يقول شيئا، راح ينظر إلى الرجال السائرين بجانبه. أراد أن يطلب منهم أن يطلقوا سراحه، أن يتركوه ينصرف: «أنا لم أُلحق الأذى بأحد يا شباب». هذا ما أراد أن يقوله لهم، لكنه ظل صامتا، وكان يفكر: «سأقول لهم ذلك فيما بعد». وكان يراهم وحسب. بل كان قادرا على أن يتصورهم أصدقاء له، لكنه لم يشأ. فهم ليسوا كذلك. إنه لا يعرف من يكونون. وكان يراهم بجانبه يتمايلون وينحنون بين الفينة والفينة ليروا أين هو الطريق.

لقد رآهم أول مرة عند بدء غبش المساء، في تلك الساعة الباهتة التي تبدو فيها الأشياء كلها شائطة. كانوا قد اجتازوا الأثلام ساحقين في طرقهم غراس الذرة الغضة. وقد نزل هو من

أجل ذلك: من أجل أن يقـــول لهم إن الذرة بدأت تتبت هناك. ولكنهم لم يتوقفوا.

لقد رآهم في الوقت المناسب. وهو محظوظ على الدوام برؤية كل شيء في الوقت المناسب. كان بإمكانه الاختباء، والسير بضع ساعات في الجبل ريثما ينصرفون ثم يعود إلى النزول بعد ذلك. فموسم الذرة لن ينجح على كل حال. لأن موعد الأمطار قد حلّ دون أن يهطل المطر، وقد بدأت الغراس تذوي. لن يمضي وقت طويل إلا وتجف تماما.

ولهذا لم يكن ثمة مبرر لنزوله إليهم، وزج بنفسه بين أولئك الرجال كمن يحشر نفسه في حفرة لا قدرة له على الخروج منها.

إنه يمضي الآن إلى جانبهم، كابحا رغبته في أن يطلب منهم إطلاق سراحه. لم يكن يرى وجوههم؛ وإنما كان يرى كتلا تقترب أو تبتعد عنه وحسب. لذا لم يعرف إذا ما كانوا قد سمعوه عندما تكلم قائلا:

- أنا لم أُلحق الأذى بأحد قط - هذا ما قاله. لكن شيئا لم يتغير. لم يبد على أي واحدة من تلك الكتل أنها فطنت إليه. ولم تلتفت الوجوه للنظر إليه. وواصلوا سيرهم كأنهم يسيرون نياما.

وفكر عندئذ في أنه ليس لديه ما يقوله أكثر من ذلك، وأن عليه أن يبحث عن الفرج في مكان آخر. فأرخى ذراعيه ثانية ودخل بين أول بيوت القرية محاطا بأولئك الرجال الأربعة المكللين بقتامة سواد الليل.

- ها هو ذا الرجل يا سيدي الكولونيل.

كانوا قد توقفوا عند عتبة الباب. وكان هو يمسك القبعة بيده

احتراما، وينتظر رؤية خروج أحد. ولكن لم يخرج سوى الصوت، يسأل:

- أي رجل؟

- رجل «قرن الغزال» يا سيدي الكولونيل. الذي أرسلتنا لإحضاره. فعاد الصوت الآتي من الداخل يقول:

- اسأله إذا ما سبق له أن عاش في أليما.

- هيه، أنت! هل سبق وسكنت في أليما؟ - كرر الرقيب الواقف قبالته السؤال.

- أجل. قل للكولونيل إنني من هناك بالذات. وقد عشت هناك إلى ما قبل وقت قصير.

- اسأله إذا ما كان قد عرف غوادا لوبي تيريروس.

- إنه يسأل عما إذا كنتَ قد عرفتَ غوادا لوبي تيريروس؟

- دون لوبي؟ أجل. قل له إنني كنت أعرفه، وإنه مات.

عندئذ تبدلت نبرة الصوت الآتي من الداخل:

- أعرف أنه قد مات - قال ذلك، وتابع الكلام كما لو أنه يتحدث إلى شخص هناك، في الجانب الآخر من الجدار.

- غوادا لوبي نيريروس هو والدي. عندما كبرت وبحثت عنه قيل لي إنه ميت. ومن الصعب علينا أن نكبر ونحن نعرف أن الشخص الذي يمكننا التمسك به لنمد جذورنا، قد مات. وهذا ما حدث لنا

«ثم عرفت فيما بعد بأنه قتل طعنا بمنجل ماتشيتي، وغُرس منساس ثور في معدته بعد ذلك. أخبروني أنه بقي مفقودا طوال أكثر من يومين، وأنهم عندما وجدوه، مرميا في جدول، كان ما يزال يحتضر، وقد أوصى بأن يرعوا أسرته.

«يبـدو أن هذا كله قـد نُسي مع مـرور الزمن. يحـاول أحـدنا نسيانه، ولكن، ما لا ينسى هو التوصل إلى معرفة أن من فعل ذلك ما يزال حيا، يغذي روحه العفنة بوهم الحياة الأبدية. لا يمكنني الصفح عن مثل هذا الشخص، على الرغم من أنني لا أعرفه؛ لكن واقع أنه قد استقر في المكان الذي أعرف أنه موجود فيه، يشجعني على القضاء عليه. لا يمكنني السماح له بمواصلة الحياة. بل ما كان عليه أن يولد أصلا».

وهنا، في الخارج، سُمع بوضوح تام كل ما قاله. ثم أصدر الأمر بعد ذلك:

- خذوه وأوثقوه لبعض الوقت كي يتعذب، ثم أطلقوا عليه النار!

فقال هو:

- انظر إلي أيها الكولونيل، لم تعد لي أي قيمة. عما قريب سأموت وحدي مهزوما من الشيخوخة. لا تقتلني...!

- خذوه! - كرر قول ذلك الصوت الآتي من الداخل.

- ... لقد دفعتُ الثمن أيها الكولونيل. دفعت الثمن مرات ومرات. لقد انتزعوا مني كل شيء. عاقبوني بأشكال عديدة. أمضيت قرابة أربعين عاما مختبئا كالمصاب بالطاعون. وكنت خائفا على الدوام من أنهم قد يقتلونني في أي لحظة. لا أستحق أن أموت هكذا أيها الكولونيل. دع الإله يغفر لي على الأقل. لا تقتلني! قل لهم ألا يقتلوني!

كان هناك، كمن أُشبع ضربا، يخبط قبعته أرضا ويصرخ.وعلى الفور قال الصوت من الداخل:

- قيدوه وقدموا له شيئا يشربه حتى يسكر فلا تؤلمه الطلقات.

لقد انطفأ الآن، أخيرا. كان مطروحا هناك عند أصل الشجرة.

وقد جاء ابنه خوستينو، وكان ابنه خوستينو قد ذهب وآب، وهو يعود مرة أخرى الآن.

ألقى به فوق الحمار. وربطه جيدا إلى البردعة كي لا يسقط في الطريق. وأدخل رأسه في أحد الخرجين حتى لا يخلف انطباعا كريها. ثم هش الحمار وانطلقا، متجاورين، على عجل، للوصول إلى «قرن الغزال» باكرا لترتيب أمر السهرة المأتمية على المرحوم.

- كَنَّتك وأحفادك سيفتقدونك- كان يقول له - سينظرون إلى وجهك ويظنون أنك لستَ أنت. سيتخيلون أن الذئب قد أكلك حين يرون وجهك الممتلئ بالثقوب من كثرة رصاصات الرحمة التي أطلقوها عليك.

ماريو بينديتي

Mario Benedetti

(الأوروغواي)

- ولد عام ١٩٢٠ في باسو دي لوس توروس (الأورغواي)
- درس في مدرسة ألمانية وبدأ يكسب عيشه من العمل طبّاعا على آلة كاتبة، ومحاسبا، وموظف مبيعات، وموظفا حكوميا، وصحافيا، ومترجما.
- مارس العمل الصحافي منذ ١٩٤٥ حتى ١٩٧٥ في مجلة «مارتشا» الأسبوعية، التي أغلقتها في ذلك العام الحكومة الدكتاتورية.
- شاعر وقصاص وروائي ومسرحي وناقد. ارتبط أدبه على الدوام بالواقع مع التزام سياسي جعل منه في المقام الأول شاهدا على التحولات التي شهدتها بلاده، وناطقا باسم المعارضة ومقاومة القمع فيها.
- نالت أعماله القصصية القصيرة شهرة واسعة وأطراها النقد باعتبارها نموذجا كاملا للبناء القصصي المحكم.
- أمضى عشرين سنة في المنفى ومنعت أعماله في بلاده خلال الدكتاتورية (منذ أواخر الستينيات وحتى منتصف الثمانينيات).
- عمل لسنوات طويلة في دار النشر الكوبية «كاسا دي لاس أمريكاس»، حيث أشرف على إصدار عدة سلاسل من الكتب النقدية والمختارات الأدبية.

● أصدر أكثر من أربعين كتابا، تُرجمت إلى عشرين لغة عالمية.

● من أبرز أعماله:

- «هذا الصباح وقصص أخرى»(١٩٤٩)؛ «قصائد المكتب»(١٩٥٦)؛ «ذهاب وإياب»(١٩٥٨)؛ «منتيفيديون»(١٩٥٩)؛ «الهدنة»(١٩٦٠)؛ «آداب الأوروغواي في القرن العشرين»(١٩٦٣)؛ «شكرا من أجل النار»(١٩٦٥)؛ «آداب القارة الخلاسية»(١٩٦٧)؛ «الموت ومفاجآت أخرى» (١٩٦٨)، «قائمة جرد/ الأعمال الشعرية الكاملة» (١٩٧٠)، «الأعمال القصصية الكاملة»(١٩٧٠)؛ «عيد ميلاد خوان آنخل»(١٩٧١)؛ «نقد متواطئ» (١٩٧١)، «أدب الطوارئ»(١٩٧٣)؛ «الكاتب الأمريكي اللاتيني والثورة الممكنة» (١٩٧٤)، «ملاذ البطريرك الأعلى»(١٩٧٧)؛ «البيت والطوبة»(١٩٧٩)؛ «شؤون يومية»(١٩٧٩)، «ربيع بزاوية محطمة» (١٩٨٢)، «سقالات» (١٩٩٧)، «صندوق بريد الزمن» (١٩٩٩).

نهاية الأسبوع

Fin de semana

انتظر أباه عند باب المدرسة. مثلما يفعل كل يوم جمعة. فمنذ طلاق أبويه، يعيش فرناندو مع أمه، ولكن عطلات نهاية الأسبوع كانت من حق الأب. فقبل أن يُفرض عليهما أي حكم قضائي، حلا الأمر بصورة ودية، من أجل عدم جرح مشاعر الابن في مواجهات غير مجدية. لم يكن الأب يصل في الموعد المحدد قط، ولكنه في هذه المرة تأخر أكثر من المعتاد. ولم يشعر فرناندو بالقلق بينما هو ينتظر مع صبية آخرين، ولكن الآباء راحوا يأخذون بقية الصبية واحدا بعد الآخر، ولم يبق في النهاية أحد سواه هو والبواب، وهو شخص يكره التلاميذ فوق ذلك.

وأخيرا ظهر مارثيلو، جاء وهو يركض تقريبا. وأذعن فرناندو لتقبيل الخد الأبوي المتعرق. لم يكن ذلك يروقه، لأن فمه يبتل وقد علموه بأنه ليس من اللائق مسح الفم باليد.

- هل كنت قلقا؟

- لا.

- أرجوك، لا تخبر أمك بهذا التأخر. أقول هذا حتى لا تسبب لها القلق. الحقيقة أنني لم أستطع التخلص من زبون ثقيل مثل الرصاص.

لا تخبر أمك. وفرناندو لا يفهم لماذا لا يقول له: لا تخبر لويسا.

ركبا سيارة أجرة إلى المطعم الذي يذهبان إليه كل يوم جمعة. لم يدقق فرناندو في قراءة لائحة الطعام. فهو وفي على الدوام للحم المشوي مع السلطة.

- ألا تريد أن تطلب شيئا آخر؟

- لا.

- أنا أملُّ من طلب الطعام نفسه دائما.

- أنا أحب ذلك. ولهذا لا أملّ.

أنجز مارثيلو واجبه الأبوي في سؤاله عن دروسه، عن معلماته، عن زملائه. وبما أنها الأسئلة المعهودة، فقد لجأ فرناندو إلى الإجابات المعهودة.

- وما هو أكثر ما يروقك من كل ما تتعلمه؟

- الحسابات والقصص.

وكمرافقة لسخرية شديدة البدائية، رسم فرناندو أولى ابتساماته ليوم الجمعة هذا، ولم يجد الأب مفرا من أن يضحك.

وعندما حان موعد تناول الحلوى لم يكن هناك أي جديد كذلك: مثلجات بطعم الفانيلا.

- وكيف هي حال أمك؟

- إنها وحيدة. وحيدة.

- حسن، ليست وحيدة تماما. إنها معك، أليس كذلك؟

- أجل، بالطبع.

وصلا إلى الشقة البديعة في شارع رامبلا وذهب فرناندو إلى حجرته. كان مارثيلو قد حجز له هذا الحيز من البيت، وكانت هناك، فضلا عن السرير ومفروشات أخرى، مجموعة ألعاب (لعبة تركيبية، قطار صغير كهربائي) للاستعمال والاستمتاع الفردي. كما كان هناك تلفاز صغير. وقد كان لديه في بيت أمه كذلك جوه الخاص، وألعاب أخرى بالطبع. وكان فرناندو معجبا

بهذا الازدواج في تسلياته. كان كمن يقفز من منطقة إلى أخرى والعكس بالعكس.

لعب لبعض الوقت باللعبة التركيبية (بنى شيئا، إذا ما نُظر إليه بطيب نية، يمكن أن يبدو كطاحونة)، وشاهد في التلفاز فيلما وثائقيا عن السناجب، وغفا قليلا، إلى أن استدعاه مارثيلو من الشرفة.

وهناك كان ثمة جديد في انتظاره: إنها فتاة، طويلة، شقراء ومفلتة الشعر، ترتدي ملابس رعاة البقر، وقد بدت لفرناندو جميلة ولطيفة.

قال الأب:

- فرناندو. هذه هي إنييس، صديقتي المقربة، وستكون صديقة جيدة لك أيضا.

الصديقة الجيدة لم تقل سوى: مرحبا! ولكنها أمسكته من أحد ذراعيه وقربته من كرسيها الهزاز. قبلته برقة، ولاحظ فرناندو براحة أن ذلك الخد لم يكن متعرقا. وقد أحس بالراحة أيضا لأن إنييس لم تستجوبه حول المدرسة، والدروس، والمعلمات، والتلاميذ الآخرين. ولكنها حدثته بالمقابل عن الأفلام وعن كرة القدم. بدا له من غير المعقول أن تكون هناك امرأة تعرف كل ذلك عن كرة القدم. أضف إلى ذلك أنها قالت، بصورة عابرة، إنها مشجعة لفريق ناسيونال. وهو أيضا كان من أنصار هذا الفريق. إنها بداية جيدة. أما مارثيلو بالمقابل، فكان من مشجعي بينارول، ولكنه حضر راضيا ذلك الافتتاح، مثل المؤلف السري لنص تمثيلي غنائي جيد.

كانت إنييس قد أحضرت بعض لفائف المأكولات، وهكذا تناولوا العشاء في البيت. ثم شاهدوا التلفزيون قليلا (أخبار عن مجاعات، وفيضانات، واغتيالات)، وبما أن عيني فرناندو أغمضتا، فقد أرسله الأب إلى السرير، ولكن ليس قبل أن يوصيه بتنظيف أسنانه.

في منتصف الليل أيقظته ضجة آتية من الحمام. هناك من شد سلسلة «السيفون». وبما أن باب حجرته كان مواربا، فقد استطاع فرناندو أن يترصد من هناك. خرجت إنييس، وهي بقميص نوم، من الحمام ودخلت إلى غرفة مارثيلو.

رجع فرناندو إلى سريره وبقي مؤرقا لبعض الوقت. إنييس جميلة ولطيفة، وهي فوق ذلك من مشجعي الناسيونال. ولكن فرناندو صمم، قبل أن ينام، على تعزيز وفائه للويسا. فأمه لا تهتم بكرة القدم، ولكنها تبدو له مع ذلك أكثر جمالا ولطفا.

وخلال يومي السبت والأحد استمتع فرناندو بأبيه، وهذا الأخير بفرناندو. لم يكن الوقت مناسبا لإجراء تقييم للوضع. ولم تعد إنييس إلى الحديث عن كرة القدم، كما لو أن سيناريو الفيلم قد انتهى. فقد كانت صامتة جدا، حتى أن مارثيلو دنا منها في مساء يوم الأحد، وداعب شعرها الجميل وسألها عما إذا كان هناك أي شيء.

فقالت:

- لا شيء ذو أهمية. ولكن عليّ أن أعتاد وحسب.

قالت ذلك همسا، ليسمعه مارثيلو فقط، ولكن فرناندو سمعه (لقد كانت الجدة تقول دوما: «لهذا الولد أذنا مسلول») وتوصل إلى القناعة بأن عليه هو أيضا أن يعتاد. هل سيعتاد؟

يوم الأحد ليلا، أعاد مارثيلو الصبي إلى الجو الأمومي. قرع الجرس من تحت وعندما سمع ما يشبه صوت زوجته السابقة، قال: «لويسا، لقد أوصلت لك فرناندو. تشاو». وقال الانترفون، بصوت أكثر صمتا من المعتاد: «شكرا. تشاو».

صعد فرناندو في المصعد إلى الطابق السادس. وهناك كانت تنتظره لويسا. قبلته، كان على وجهها قليل من البودرة، ولكنه لم يهتم بذلك.

وبعد قليل أعدت له عصير برتقال. وفجأة تأملت فرناندو بفضول. وفكرت بأن ذلك غير معقول، ولكن بدا لها أن ابنها قد كبر خلال ثمان وأربعين ساعة فقط.

ولمجرد أن تقول شيئا، سألته لويسا:

- وكيف حال أبوك؟

ففكر فرناندو: هي أيضا لا تقول «مارثيلو» وإنما «أبوك». وابتلع لعابه قبل أن يجيب:

- إنه وحيد. وحيد.

مصالحة الحلم

Conciliar el sueño

ما يحدث في حالتي يا دكتور، هو أن الأحلام تأتيني في دورات متسلسلة وفق موضوعاتها. فقد كانت هناك مرحلة حلمت فيها بالفيضانات. فجأة تفيض الأنهار وتغمر الحقول، والشوارع، والبيوت، وحتى سريري نفسه. تصور أنني تعلمت السباحة في الأحلام ونجوت بفضل ذلك من الكوارث الطبيعية. ولكن هذه المهارة بقيت للأسف صالحة للأحلام فقط، ذلك أنني حاولت بعد فترة أن أمارس السباحة، وأنا مستيقظ تماما، في مسبح أحد الفنادق، فأوشكت على الغرق.

بعد ذلك جاءت المرحلة التي حلمت فيها بالطائرات. أو بكلمة أدق، بطائرة واحدة تحديدا، لأنها كانت الطائرة نفسها في كل الأحلام. وكانت المضيفة قبيحة وتسيء معاملتي. تقدم الشمبانيا إلى الجميع، إلا أنا. سألتها عن السبب، فنظرت إليّ بغضب مبرمج مطولا وأجابتني: «أنت تعرف السبب جيدا». وقد فاجأني رفع الكلفة ذاك إلى حد كدتُ معه أن أستيقظ. أضف إلى ذلك أنني لم أستطع أن أتصور ما الذي تعنيه. وكنتُ في ذلك الشك عندما وقعت الطائرة في مطب هوائي، فتدحرجت المضيفة القبيحة في الممر، بحيث ارتفعت تنورتها القصيرة، واستطعتُ أن أتأكد من أنها لا تلبس شيئا تحتها. وكان أن استيقظتُ في تلك اللحظة بالذات، وكانت المفاجأة في أنني لم أكن نائما في سريري المعهود وإنما في طائرة، في الصف رقم ٧ المقعد D، وكانت

هناك مضيفة لها وجه الجيوكندة تعرض علي بإنكليزية مبسطة كأسا من الشمبانيا.

فالأحلام، مثلما ترى يا دكتور، تكون أحيانا أفضل من الواقع، والعكس بالعكس أيضا. أتتذكر ما قاله كانط؟ «الحلم هو فن شعري لا إرادي».

في مرحلة أخرى حلمت مرارا بأبناء. أبناء لي. وأنا عازب وليس لي حتى أبناء طبيعيين. ففي هذا العالم على ما هو عليه، يخيل إليّ أن إنجاب كائنات جديدة هو عمل غير مسؤول. هل لدى حضرتك أبناء؟ خمسة؟ اعذرني. فأنا أحيانا أتفوه ببعض الحماقات.

أطفال أحلامي كانوا صغارا جدا. بعضهم يَحبُون وبعضهم يمضون حياتهم في الحمام. يبدو أنهم كانوا أيتام الأم، فهي لم تكن تظهر مطلقا، والأطفال لم يتعلموا قول ماما. ولم يكونوا في الواقع ينادونني بابا، بل كانوا يدعونني بأنصاف ألسنتهم «توركو». يقولون لي هذا وأنا المتحدر من جدين من كورونيا وجدي جدين من لوغو. «توركو، تعال»، «توركو، أريد البطاطا»، «توركو، لقد بُلت». وفي أحد تلك الأحلام، كنت أنزل على سلم شبه مكسور، وفجأة وقعت. فنظر إليّ أكبر صغاري دون شفقة وقال «توركو، فلتتخوزق». وكان ذلك فوق طاقتي، فاستيقظت بسرعة إلى واقعي الذي لا وجود فيه لأولئك الملائكة الصغار.

وفي دورة أحلام تالية عن كرة القدم، كنت ألعب دائما حارس مرمى أو غولار، أو بواب أو غول كيبر. كم من الأسماء للمصيبة نفسها. وكان المطر يهطل دوما قبل المباراة، وهكذا فإن الملاعب

تبتل ولا يكون هناك مفر من أن تتشكل أمام المرمى بركة صغيرة. وعندئذ يظهر أحد المهاجمين يسدد إليّ بشهية، فأحاول بادئ ذي بدء أن أتصدى، ولكن الكرة المبتلة تنزلق، من بين قفازيّ وتجتاز خط المرمى مزهوة. وعند هذا الحد من المباراة، أتشوق بحرارة للاستيقاظ، ولكن يكون علي أن أسمع قبل ذلك كيف يصرخون بي بصوت واحد من المنصات وراء ظهري: خائن، مشترى، كم دفعوا لك، وتفاهات أخرى.

وأخيرا تعرضت مغامراتي الليلية لغزو سينمائي. ولستُ أعني سينما هذه الأيام التي هزلت تماما، وإنما سينما الأيام الخوالي، تلك التي كانت تهزنا وتستقر في حيواتنا بوجوه ومواقف نموذجية. إنني أنهمك في الحلم بالممثلات. وأي ممثلات: فلنقل مارلين مونرو، كلوديا كاردينالي، هاريت أندرسن، سونيا براغا، كاترين دينوف، آنوك إيميه، ليف أولمان، غلندا جاكسون وروائع أخرى (أما الممثلون فلا يمنحهم إله نومي «مورفيو» تأشيرة مرور). ومثلما ترى يا دكتور فإن معظمهن مخضرمات، أو لم يعدن في الوجود، ولكنني أحلم بهن مثلما كن يظهرن في أفلام تلك الأيام. فعندما أقول لك على سبيل المثال كلوديا كاردينالي، فإنني لا أعني كلوديا الحالية (وهي ليست بالقبيحة) وإنما تلك التي ظهرت في فيلم «الفتاة ذات الحقيبة» عندما كانت في الحادية والعشرين. ومارلين مثلا، تدنو مني وتقول لي بنبرة هامسة رقيقة: «I don't love Kennedy. I love you. Only you» ولتعلم حضرتك أن الممثلات يتكلمن في أحلامي أحيانا بنسخ مترجمة كتابة، وفي أحيان أخرى بنسخ مدبلجة إلى القشتالية. وأنا أفضل المترجمة

كتابة، لأن صوتا مثل صوت غليندا جاكسون أو صوت كاترين دينوف لا يمكن استبداله.

حسن، لقد جئت في الواقع لأستشيرك لأنني في الليلة الماضية حلمت بآنوك إيميه، ليس مثلما هي الآن (وهي ليست سيئة أيضا) وإنما مثلما هي في فيلم «مونبارناس ١٩»، عندما كان عمرها ستا وعشرين سنة رائعة. ولا تسيء الظن بي. فأنا لم ألمسها ولم تلمسني. لقد أطلّت بكل بساطة من إحدى نوافذ شقتي وقالت فقط (في نسخة مدبلجة): «غدا ليلا سآتي لأراك، ولكن ليس في شقتك وإنما في سريرك. لا تنس ذلك». وكيف سأنساه. ما أريد أن أعرفه يا دكتور، هو إذا ما كانت الواقيات الذكرية التي أشتريها من الصيدلية تنفع في الأحلام. لأنني، ألا تعرف؟ لا أريدها أن تحبل.

هارولدو كونتي

Haroldo Conti

(الأرجنتين)

● ولد عام ١٩٢٥ في بلدة تشاكابوكو، بمحافظة بوينس آيرس.

● بدأ الكتابة الأدبية متأخرا (في عام ١٩٦٢).

● عمل في مهن شتى، وذاع صيته الأدبي منذ أوائل الستينيات. وحازت أعماله جوائز عديدة، منها:

- «جنوب شرق» (رواية) جائزة فابريل ١٩٦٢.
- «كل الأصياف» (رواية) جائزة بلدية بوينس آيرس، ١٩٦٤.
- «حول القفص» (رواية) جائزة جامعة فيراكروث، ١٩٦٧.
- «مع أناس آخرين» (قصص) ١٩٦٧.
- «ماساكرو، الصياد الأمريكي» (رواية) ١٩٧٦.
- «أنشودة شجرة الحور كارولينا» (قصص) جائزة كاسا دي لاس أمريكاس.

● اختطفته عصابات اليمين الفاشي المتعاونة مع الحكومة الدكتاتورية عام ١٩٧٦، وما زال مفقودا منذ ذلك التاريخ، مثل مئات الأرجنتينيين الذين اختفوا ولم يعرف مصيرهم.

أنشودة شجرة الحور كارولينا

La balada del álamo Carolina

«يا شجرة الخوخ عند بابي؛

إذا لم أعد يوما

فالربيع دوما

آت. وأنت، ستزهرين».

(ياباني مجهول)

يظن أحدنا أن أيام الشجرة متشابهة جميعها، لاسيما إذا ما كانت الشجرة هرمة. لا، لأن يوما من حياة شجرة هرمة هو يوم من حياة العالم.

وشجرة الحور كارولينا هذه ولدت هنا بالضبط، ومع أن حور كارولينا يزرع بطريقة الفسائل، كما هو معروف، إلا أن هذه ولدت وحدها. أطلت يوما من بين الحشائش القاسية التي كانت تغطيها مثل نبتة شعير، مثل عشبة أخرى، عشبة صغيرة بائسة معرضة للرياح والشمس والدويبات. وظنت الشجرة، لبعض الوقت، أنها لن تكون غير ذلك، إلى أن لاحظت يوما أنها أخذت تتجاوز الأعشاب. وعندما اشتدت حرارة الشمس وبث الدفء في التراب، انتفخت من الداخل وتصلبت وبدأت تشعر بانجذاب كبير إلى الأعالي، وبالصعود نحو السماء، بل إنها أحست في داخلها بما يشبه الطريق، على الرغم من أنها لم تكن تعرف بعد ما هي الطريق، وقد عرفت ذلك في العام التالي عندما بقيت الأعشاب في الأسفل ورأت فيما وراء الأعشاب سياج أسلاك معدنية، ورأت

الطريق، وهو أشبه بشجرة مستلقية على الأرض لها غصن هنا وغصن هناك، وكل أغصانها على السواء يابسة وخشنة في الشتاء، ولكن أطرافها تزهر في الصيف، فكلها تنتهي بمجموعة أشجار حقيقية. وعليها يمشي البشر وتسفع الرياح المجنونة سحبا من الغبار. وكانت قد عرفت آنذاك ما هو الغصن، لأنها شعرت، بعد أمطار أغسطس، بأن بدنها ينتفخ بالفعل هنا وهناك، وأن بعضا منها بقي مكانه، ولم يواصل الصعود إلى أعلى، بل مال جانبا ونما فوق الأرض مجانبة مثل الطريق.

إنها الآن شجرة هرمة، فقد مضى عليها اثنا عشر صيفا على الأقل، ما لم تكن قد أخطأت في الحساب. وهي تنمو الآن ببطء أشد، بل إنها تكاد لا تنمو تقريبا. إنها تطلق الأوراق في الربيع من الأماكن نفسها التي كانت فيها في الصيف السابق، وتنبثق في أعلاها بعض أعراف ذات خضرة أكثر حيوية تبدو عند غروب الشمس كأنها تشتعل من داخلها، لكنها لا تبغي الآن أكثر من ذلك، أكثر من هذا النور الصيفي العذب الذي يكسوها كوشاح. وضمن هذا الضوء تكون هي، شجرة الحور الهرمة، ممتلئة بالذكريات. فقد كانت هكذا، بشكل أو بآخر، منذ اثني عشر صيفا، حين برزت فوق الأرض، ولم تكن مراحل نموها سوى تفكير بذلك. وكل ما هنالك هو أنها تتذكر الآن كل ذلك، تفكر القهقرى ولا تلد شجرة أخرى. وفي هذا تكمن الشيخوخة: ذاكرة خضراء.

الوقت الآن بداية الصيف تحديدا، وقد اكتست مرة أخرى بكل أوراقها للتو، ولأن الأوراق تطلق للتو خضرتها الشديدة (كل واحدة منها كشجيرة صغيرة)، فإن أغصان شجرة الحور تشتعل

في المساء، عندما تميل الشمس إلى الغروب، مثل مصباح أخضر، وعندئذ تأتي العصافير وتتقافز بصخب بين الأوراق باحثة عن مكان تقضي فيه الليل، وهي اللحظة التي تنهال فيها الذكريات على شجرة الحور كارولينا. وبمناسبة الليل، والعصافير، والصيف. تتذكر، مثلا، بمناسبة العصافير، أول عصفور وقف على أول غصن منها، ذلك الغصن الذي بقي هناك في الأسفل، ولكنه كان وقتذاك أعلى نقطة فيها، وهو لم يعد يعطي أورقا تقريبا وصار ثخينا مثل شجرة صغيرة. لقد كان في ذلك الحين أكثر أجزائها حيوية، وأحس يومها بالعصفور على بشرته، وبكتلة الريش الصغير المرتعشة. ارتاح العصفور برهة ثم عاد إلى التحليق مبتعدا. وبعد صيفين من ذلك، عندما لمحت أول بيت يسكنه إنسان، ووراءه يلمع خطا السكة الحديد، بنت عصفورة سُمّن عشا على شعبة الغصن الأخير. قطعت بصبر أعشابا وجدلتها، وهكذا تحولت شجرة الحور إلى بيت، ومثلما عرفت من قبل بأمر الطريق وروح الطريق، عرفت تلك الشجرة العريضة المزهرة بالأحلام ما هو البيت وروح البيت. كان العش يتأرجح عند طرف الغصن، فتحاول الشجرة عدم الاهتزاز كثيرا في ذلك الجانب، على الرغم من أنها تستلذ برياح الأصيل المجنونة، وتوفر للعصفور ما تستطيعه من حماية، فأطلقت هناك أوراقا أكثر مما في المرات السابقة.

مع نهاية الصيف خرجت الفراخ من العش وأحست بها تتنقل مرتعدة فوق الغصن بقوائمها الصغيرة النحيلة، وتستعد مرة بعد أخرى لتقذف بنفسها أخيرا وترتمي في الهواء كوريقة. والشجرة

في الصيف تكاد تكون عصفورا. فهي تكتسي بريش كروكانتي[1] يهتز مع الريح، وتصد، بمجرد الرغبة، من باطن الأرض إلى أعلى قمة فيها، وتقفز من غصن لآخر وكلها عصفور، طير خشبي في قفصه الأخضر من الأوراق الوارفة.

كان ذلك الصيف هو صيف اكتشاف سكة الحديد، وقبله صيف اكتشاف البيت. لم تر البيت كاملا، بل إنها لم تره كذلك عندما صعدت، بعد سنوات، أعلى كثيرا، وإنما رأت منه ما تراه اليوم بالذات من أعلى براعمها: سقفا من صفائح معدنية يشتعل تحت الشمس ومدخنة بيضاء تطلق عند الغروب قنزعة من الدخان. ويحدث أحيانا أن تحمل لها الريح بعض الأصوات، ولكن الشجرة وصلت مع ذلك إلى البيت بطريقة ما، من خلال أوراق الخريف التي تذروها الرياح. ورأت بعيونها الصفراء القديمة البيت من الداخل، ورأت الرجل، نحيلا وقاسيا، بقشرة متشققة، مثل لحاء أغصانها الأولى، ورأت المرأة التي تعبق برائحة دخان الحطب، وطفلين صامتين مشعثي الشعر كزغب فراخ عصفورة السمّن. وقد طرقت بأيديها الصفراء القديمة باب البيت الخشبي المشقق، وداعبت جدران الطوب المكلس، وركضت أيديها وعيونها وأجنحتها الخريفية الصفراء أمام المكنسة المصنوعة من الذرة الغينية، وطارت كلها من جديد إلى السماء في الدخان العابق لموقد يعلن قدوم البرد، زمن سبات الشجرة والأرض.

القطار يمر في ما وراء البيت، وقد كان لا بد للشجرة من الارتقاء في الصيف التالي، حين عادت الأوراق والعصافير، لكي

---

(١) كروكانتي crocante: نوع من الحلوى المصنوعة من اللوز والسكر.

تلمح البريق الخفي لسكتين تقطعان الأرض. كانت قد سمعت الجلبة من قبل، ذلك الضجيج الغامض الذي يهز الأرض، لأن الشجرة تنمو تحت الأرض كما فوقها. وهي تحت الأرض شجرة رطبة ذات أغصان طويلة رطبة وصدفية تتغلغل في ليل الأرض الفاتر. وفي ذلك الجانب كانت الشجرة تحيا وتحس أساسا، وهناك يكون يومها يوما من أيام الدنيا، واسعا وعميقا، لأن الأرض التي تنبض تحتها ترسل إليها كل أنواع الإشارات، فهي جسد ندي مفعم بالحياة يتنفس بعذوبة تحت الأوراق والأعشاب، وهي تحمل وتثبّت كل ما في هذا العالم، بما في ذلك أشجار أخرى كانت الحورة تتصل بأشجار الحور، تتواصل معها عبر ذلك القلب الرطب. فإلى الشرق، حيث تولد الشمس، كانت هناك غابة. وقد رأتها ذات صباح بعيونها الخضراء العالية فارتجفت كل أوراقها بوميض حراشف. كانت الغابة شجرة كبيرة، إنها أكبر الأشجار وأروعها. ومع حلول المساء، عندما مالت الشمس لتكنس الأعشاب التي بدت مثل شعلات لهب وديعة. اشتعلت تلك الأشجار كأنها نار عظيمة. وفي الليل، صوبت شجرة الحور أحد أغصانها الأرضية النحيلة بذلك الاتجاه وتلقت الجواب. لم تكن شجرة أكبر، وإنما هي غابة، أي أنها كومة من الأشجار، أرض مغطاة بريش شجري، أخوية عالية وصاخبة.

لماذا ليست شجرة الحور هناك؟ لماذا ولدت وحيدة؟ أليست اختصارا للغابة، وكل غصن فيها شجرة؟ فأجابت الغابة عن كل هذه التساؤلات، جاءها الرد من أخواتها، ليلة بعد ليلة. جاءها الجواب عن هذه الأسئلة وعن أسئلة أخرى كثيرة، لأنها كلما

هرمت وسط تلك العزلة، كانت تمتلئ بالأسئلة وبالعصافير عند الغروب. الأشجار لا تنام بكل معنى الكلمة، بل تتناوم، وخصوصا في الشتاء، عندما تنزلق النجوم العالية على أغصانها الجرداء كقطرات طلّ باردة. وعندئذ تحديدا، تُسمع بقوة أكبر تلك الأصوات والإشارات التي تطلقها الأرض. تخرج حيوانات الليل من أوكارها وتقرض الظلمة، ويحلق طير مؤرق باتجاه ضوء بيت ما، وتدب حزمة قاتمة على الدرب، تصر الجنادب بين العشب مثل أوتار بلورية، وينبح كلب في البعيد، فيتقلب الإنسان في فراشه مدا من القمح سيُغل كل دونم من الأرض. وفي هذه اللحظة نفسها، في هدأة الليل هذه، تكون البذرة منهمكة بعملها هناك تحت الأرض، الشجرة تشعر بها تنتش، تحس بمجهودها الصغير وهي تنتفخ وتنفلق وتقطع بوصة فبوصة الطريق نفسها التي رسمتها لها آمال الإنسان الذي عاد إلى النوم حالما بمدى رقيق من السنابل الصفراء.

ومن هناك، عبر الأرض، كان أن عرفت الشجرة بأمر القطار عندما سمعت في أحد الأيام الضجيج الذي سرى صاعدا من جذورها. وبعد زمن من ذلك، بعدما رأت مسكن الإنسان، شاهدت أخيرا ذلك البيت المجنون الصاخب الذي يندفع راكضا بمدخنته على الأرض، وعرفت بذلك أن هناك، فضلا عن العصافير، أشياء كثيرة من الأحياء تتحرك من مكان إلى آخر، وعندئذ أحست شجرة الحور الهرمة - ولم تكن آنذاك قد هرمت تماما، ولكنها كانت شجرة مكتملة - بالألم من ثباتها للمرة الأولى. فهي لا تستطيع التوجه إلا إلى أعلى قاطعة طريقا قصيرة تتجه في

الفضاء، والطيران في مطلع الخريف على شكل أوراق وفق مشيئة الريح وتحكمها. في بعض الأحيان، في ما وراء البيت، كان القطار ينقل هياجه ما بين أغصانها، وتصل قنزعة دخانه أحيانا إلى شجرة الحور نفسها. وهذا يعتمد على الريح، وكانت شجرة الحور الهرمة، بإرشاد من العصافير، قد تعلمت أن تستخلص من الريح أحداثا كثيرة أخرى. فحسب هبوب الريح تهز الشجرة أوراقها كريش أخضر وتتصنع تحليقا مرتعشا. كانت الريح تصعد وتنزل في دوامات باردة داخل ذلك القفص النباتي محدثة، تبعا لتوزع الأوراق، وشوشات وصفيرا يروق للشجرة الموسيقية.

كل هذا يمكن تعلمه مع انقضاء السنين، صيفا بعد آخر، وتغدو هذه المعارف بعد ذلك مادة للتذكر في الشتاء. والشتاء يبدأ بالنسبة إليها مع سقوط الورقة الأولى. وقبل ذلك بقليل تلحظ تسلل الخدر إلى أقدم أغصانها، ثم يزحف النعاس نحو الداخل دون أن يصل مطلقا إلى قلب الشجرة. وفي أثناء ذلك تشعر بشدّة اقتلاع ضعيفة ثم تحلق أولى الأوراق فوق الأرض. هكذا تكون البداية. وبعد ذلك تتساقط بقية الأوراق وتعبث بها الريح، تبعثرها، فتهرع وتختلط بأوراق أشجار أخرى، وعندما تغفو شجرة الحور كارولينا تماما وتفكر هادئة بالصيف المنير الآتي، بطريقة ما، عبر الأرض، إلى مسار نسغها الفاتر. الأمطار تضفي قتامة على أغصانها ويجعلها الصقيع تلتمع كأنها اللوز. يتكسر بعض الأغصان بفعل الريح العاصفة، فتستيقظ الشجرة للحظة، تشعر بذلك الموت الصغير في بدنها كله، مع أنها ما تزال متماسكة، وتدرك أنها ستعيش أصيافا أخرى. وتبقى على هذه الحال حتى شهر سبتمبر، حيث تلتقي

الذكرى والحدث في الزمن، فتصعد دغدغة ناعمة من عتمة الأرض باعثة الحيوية في بشرتها، وتنزع الخدر عن الأغصان، فتبرعم شجرة الحور كارولينا مجددا بفقاعات صغيرة خضراء. ويصير الهواء عندئذ أكثر دفئا، والإنسان الذي تراقبه من أعلى برعم فيها، يجوب الحقل ويتفحص خصل العشيبات الخضراء التي ظهرت على وجه الأرض.

وفي أواسط أكتوبر تكون شجرة الحور الهرمة قد اكتست من جديد بأوراق ثابتة وقاتمة الخضرة تلمع تحت الشمس حين يهزها النسيم عند الأصيل. وتكون الشمس في هذه الفترة أكثر ثباتا وتعكس على الأرض ظل الشجرة الوارف.

وحدث في هذا الصيف، بينما كانت الشجرة عالية تماما والظل أكثر قتامة، أن اقترب الرجل أخيرا من الشجرة. رأته قادما عبر الحقل، أسود وواضحا على حصانه المتفصد عرقا. ترجل الرجل عن الحصان ودخل في الظل. خلع قبعته المعفرة بالتراب، وبعد أن نظر إلى أعلى واستنشق البرودة المتدلية من الأغصان، مسح العرق عن جبهته بكم قميصه. ثم جلس الرجل الذي يبدو هرما مثل شجرة الحور الهرمة، عند أصل الشجرة واتكأ على جذعها.

استغرق الرجل بعد قليل في النوم ورأى في حلمه أنه شجرة.

خوسيه لويس غونثاليث

José Luis González

(بويرتو ريكو)

● ولد في سانتو دومنغو ١٩٢٦.

● درس في سان خوان ونيويورك ومكسيكو، وعمل أستاذا للأدب في الجامعة الأمريكية.

● روائي وقصاص وباحث أدبي، يميل في كتاباته إلى الواقعية النقدية.

● على الرغم من أنه يعيش في المكسيك منذ سنوات طويلة، وحصل على الجنسية المكسيكية، إلا أنه يعتبر نفسه كاتبا بويرتوريكيّا.

● من أبرز أعماله:

في القصة القصيرة:

«في الظل» (١٩٤٣)، «خمس قصص دم» (١٩٤٥)، «الرجل في الشارع» (١٩٤٨)، «في هذا الجانب» (١٩٥٤)، «مامبو ذهب إلى الحرب» (١٩٧٢)، «الرواق» (١٩٧٢)، «في نيويورك وكوارث أخرى» (١٩٧٣).

في الرواية:

«بايسا Paisa (1950)، «أنشودة زمن آخر» (١٩٧٨).

دراسات:

«سيرورة الثقافة البويرتوريكية» (١٩٧٤)، «الأدب والمجتمع في بويرتوريكو» (١٩٧٦).

صندوق من الرصاص لا يمكن فتحه

Una caja de plomo que no se podía abrir

إلى إميليو دياث بالكارثل

حدث ذلك منذ سنتين، عندما وصل رفات مونتشو راميريث، الذي مات في كوريا. حسن، هذا الذي قلته عن «رفات مونتشو راميريث» هو مجرد قول، لأن أحدا لم يتوصل قط في الحقيقة إلى معرفة ما كان في ذلك الصندوق من الرصاص الذي لم يكن فتحه ممكنا. صندوق من الرصاص، أجل يا سيدي، ولم يكن ممكنا فتحه؛ وهذا ما جعل دونيا مييّا، أم مونتشو، تبدو كالمجنونة، لأن ما كانت تريده هو رؤية ابنها قبل أن يدفنوه و... ولكن من الأفضل أن أبدأ برواية ذلك من البداية.

بعد ستة شهور من أخذهم مونتشو راميريث إلى كوريا، تلقت دونيا مييّا رسالة من الحكومة تقول إن مونتشو ضمن قائمة المفقودين في المعركة. وقد أعطت دونيا مييّا الرسالة إلى جار لها ليقرأها، لأنها جاءت من الولايات المتحدة وكانت مكتوبة بالإنجليزية. عندما علمت دونيا مييّا بما جاء في الرسالة، انزوت في غرفتيها وراحت تبكي طوال ثلاثة أيام. لم تفتح الباب حتى للجارات اللواتي ذهبن ليحملن إليها بعض الطعام.

لقد دار كلام كثير في الحوش حول اختفاء مونتشو راميريث. في البدء أبدى بعضنا الرأي بأن مونتشو قد ضلّ طريقه دون ريب في أحد الجبال وأنه سيظهر في يوم ما. وقال آخرون ربما كان الكوريون أو الصينيون قد أسروه، وأنهم سيعيدونه بعد الحرب.

وفي الليل، بعد تناول الطعام، كنا نحن الرجال نجتمع في فناء الحوش ونأخذ بمناقشة هذين الاحتمالين، وهكذا صرنا نطلق على بعضنا بعضا تسمية «المفقودين» و«الأسرى»، حسب تفكيرنا بما جرى لمونتشو راميريث. والآن بعد أن صار كل ذلك ذكرى، أتساءل كم منا كانوا يفكرون، دون أن يفصحوا عن ذلك، بأن مونتشو لم يكن ضائعا في أي جبل، ولم يكن أسيرا في يد الكوريين أو الصينيين، وإنما كان ميتا. أنا كنت أفكر بذلك مرات كثيرة، ولكنني لم أقله قط، ويبدو لي الآن أن الجميع كانوا مثلي. لأنه ليس من المناسب اعتبار أي شخص ميتا - وخصوصا إذا كان صديقا مثل مونتشو راميريث، الذي ولد في الحوش - قبل معرفة ذلك بصورة مؤكدة. ثم إننا، كيف سنتجادل خلال الليالي في فناء الحوش ما لم يكن هناك رأيان مختلفان؟

بعد شهرين من الرسالة الأولى وصلت أخرى. هذه الرسالة الثانية قرأها للسيدة مييا الجار نفسه، حيث كانت مكتوبة باللغة الإنجليزية كما هي الحال في الرسالة الأولى، وقد ورد في الرسالة أن مونتشو راميريث قد ظهر أو بالأحرى بقايا مونتشو. لقد أدركنا ذلك من الصرخات التي قامت بها السيدة مييا حال علمها بما ورد في الرسالة. في تلك العصرية اجتمع جميع أفراد الحوش في غرفتي السيدة مييا. أنا لا أدري كيف اتسع لنا المكان ولكننا كنا هناك جميعنا، وكنا قلة كما يقولون. كان على النساء أن يضعن السيدة مييا في الفراش قبل أن يحل الليل لكثرة صراخها كلما نظرت إلى صور مانشو في البزة العسكرية بين العلم الأمريكي والنسر حتى أصبحت كالمجنونة.

خرجنا نحن الرجال إلى بهو الحوش شيئا فشيئا، لكن تلك الليلة لم يكن هناك نقاش لأن الجميع عرف أن مونتشو كان قد مات، ولم يكن بالإمكان البدء بالتخيلات.

بعد ثلاثة شهور وصل الصندوق الرصاصي الذي لا يمكن فتحه. أحضره في أحد المساءات، في شاحنة للجيش، دون إشعار مسبق، أربعة جنود من الشرطة العسكرية يحملون بنادق ويضعون قفازات بيضاء. وكان يقود الجنود الأربعة ملازم، لم يكن يحمل بندقية، ولكن مسدسا من عيار خمسة وأربعين، كان يتدلى من حزامه. وكان هو أول من نزل من الشاحنة. وقف في منتصف الشارع، وقبضتاه على إليتيه، وساقاه متباعدتان، ونظر إلى واجهة الحوش مثلما ينظر رجل إلى آخر عندما يريد أن يصفي معه حساب إهانة ما. ثم التفت برأسه وقال لمن هم في الشاحنة:

- أجل، إنه هنا. انزلوا.

ترجل الجنود الأربعة، اثنان منهم يحملان الصندوق الذي لم يكن له حجم تابوت، وإنما أصغر من ذلك، وهو مغطى بعلم أمريكي.

وكان على الملازم أن يسأل جماعة من الجيران على الرصيف أي واحدة هي غرفة الأرملة راميريث (وأنتم تعرفون كيف هي هذه الأحواش في بويرتا دي تييرا: خمسة عشر أو عشرون بابا، كل واحد منها يؤدي إلى مسكن، ومعظم تلك الأبواب بلا أرقام أو أي شيء يشير إلى من يعيش فيها). لم يكتف الجيران بإخبار الملازم بأن باب دونيا مييّا هو الرابع إلى اليسار بعد الدخول، وإنما لحقوا بالعسكريين الخمسة إلى داخل الحوش دون أن يرفعوا

أبصارهم عن الصندوق المغطى بالعلم الأمريكي. ودون أن يخفي الملازم ضيقه من تلك المرافقة، طرق الباب بيده ذات القفاز الأبيض. فتحت دونيا مييّا وسألها الضابط:

- السيدة إميليا أرملة راميريث؟

لم تجب دونيا مييّا على الفور. نظرت على التوالي إلى الملازم والجنود الأربعة، وإلى الجيران، وإلى الصندوق.

- آه - قالت كما لو أنها لم تسمع سؤال الضابط.

- سيدتي، هل أنت دونيا مييًّا أرملة راميريث؟

عادت دونيا مييّا تنظر إلى الصندوق المغطى بالعلم الأمريكي. ثم رفعت يدا، أشارت، وسألت بدورها بصوت نحيل:

- ما هذا؟

فكرر الملازم بشيء من نفاد الصبر:

- سيدتي، هل أنت...

- ما هذا؟ - عادت دونيا مييّا للسؤال، بنبرة الصوت المرتعشة تلك التي تستبق بها النساء التأكد من مصيبة على الدوام - قل لي، ما هذا؟

أدار الملازم رأسه، نظر إلى الجيران. وقرأ في عيون الجميع السؤال نفسه. فالتفت مجددا نحو المرأة؛ تنحنح؛ وقال أخيرا:

- سيدتي... جيش الولايات المتحدة...

قطع كلامه، مثل من نسي فجأة شيئا اعتاد أن يقوله عن ظهر قلب.

- سيدتي... - بدأ من جديد - ابنك، العريف رامون رودريغيث...

بعد هذه الكلمات، قال أخرى غيرها لم يتوصل أحد إلى

سماعها لأن دون ميّا كانت قد بدأت بإطلاق الصرخات، صرخات رهيبة بدت كأنها تمزق حنجرتها.

ما جرى بعد ذلك مباشرة بدا مشوشا إلى حد كبير، بحيث لا يمكن لي، أنا الذي كنت ضمن جماعة الجيران وراء العسكريين، أن أتذكره جيدا. أحدهم دفع بقوة وفي لحظات قليلة كنا جميعنا داخل حجرة دونيا مييّا. طلبت امرأة ماء زهر صارخة، بينما كانت تحول دون أن تغرس دونيا مييا أظفارها في وجهها. وبدأ الملازم يقول: «هدوء!» «هدوء!»، ولكن أحدا لم يوله اهتماما. وراح يأتي مزيد ومزيد من الجيران، كما لو أن الجلبة قد اجتذبتهم، إلى أن صار من المستحيل التحرك خطوة واحدة داخل الغرفة. وأخيرا تمكنت عدة نساء من حمل دونيا مييّا إلى الحجرة الأخرى. جعلوها تتناول ماء الزهر ووسدوها على السرير. وبقينا نحن الرجال وحدنا في الحجرة الأولى. وعندئذ توجه الملازم إلينا بابتسامة اضطرارية:

- حسن يا شباب... أنتم كنتم أصدقاء العريف راميريث، أليس كذلك؟

لم يجبه أحد. وواصل الملازم:

- حسن يا شباب... ريثما تهدأ النساء يمكن لكم أن تساعدوني، أليس كذلك؟ ضعوا لي تلك المنضدة في وسط الحجرة. سنضع عليها التابوت للقيام بمراسم الحراسة.

وعندئذ تكلم أحدنا للمرة الأولى. وكان المتحدث هو العجوز سوتيرو بايي، الذي كان زميل عمل في المرفأ للمرحوم أرتيميو راميريث، زوج دونيا مييّا ووالد مونتشو. أشار إلى الصندوق المغطى بالعلم الأمريكي وبدأ باستجواب الملازم:

- هناك... هناك...؟

- أجل يا سيدي - قال الملازم - هذا الصندوق يضم رفات العريف راميريث. هل كنت تعرف العريف راميريث؟

- لقد كان ابني بالعماد - أجاب سوتيرو بايي، بتمهل شديد، كما لو أنه يخشى ألا يتوصل إلى إنهاء جملته.

لقد توفي العريف راميريث وهو يؤدي واجبه - قال الملازم ولم يعد أحد يتكلم.

كان هذا في حوالي الساعة الخامسة مساء. وفي الليل لم تعد الحجرة تتسع للناس: كان قد جاء جيران من كل الحي، ملأوا الفناء ووصلوا حتى الرصيف. وكنا في الداخل نتناول القهوة التي كانت تصنعها بين ساعة وأخرى إحدى الجارات. جيء بعدة كراسي من غرف أخرى، ولكننا في معظمنا كنا واقفين: فهكذا نشغل حيزا أقل. وكانت النساء ما يزلن محبوسات مع دونيا ميّا في الحجرة الأخرى. وكانت إحداهن تخرج بين فينة وأخرى في طلب شيء - ماء، كحول، قهوة - وتنتهز الفرصة لتخبرنا:

- إنها الآن أكثر هدوءا، وستكون قادرة على الخروج خلال برهه.

اتخذ الجنود الأربعة وضعية الحراسة، والبنادق ملتصقة بسيقانهم اليمنى، اثنان في كل جانب من المنضدة التي وُضع فوقها الصندوق المغطى بالعلم. ووقف الملازم عند طرف المنضدة، مديرا ظهره لها ولرجاله الأربعة، وساقاه متباعدتان ويداه وراء ظهره. في البداية، عندما أُعدت القهوة الأولى، قدم له أحدهم فنجانا، ولكنه لم يتقبله. قال إنه لا يستطيع قطع الحراسة.

ولم يشأ العجوز سوتيرو تناول القهوة أيضا. كان قد جلس منذ البداية قبالة المنضدة ولم يوجه كلمة واحدة إلى أحد طوال ذلك الوقت. وطوال ذلك الوقت لم يرفع بصره عن الصندوق. كانت نظرة غريبة من العجوز سوتيرو: بدا كما لو أنه ينظر دون أن يرى. وفجأة (في اللحظة التي كانوا يقدمون فيها القهوة للمرة الرابعة) نهض عن الكرسي واقترب من الملازم.

- اسمع - قال له دون أن ينظر إليه، وعيناه مثبتتان طوال الوقت على الصندوق - أتقول حضرتك إن ابني بالعماد رامون راميريث موجود هناك في الداخل؟

وأجاب الضابط:

- أجل يا سيدي.

- ولكن... في هذا الصندوق الصغير؟

- حسن، انظر... ما يوجد فيه هو رفات العريف راميريث فقط.

- أتعني أنه... ما وجدتموه فقط...

- الرفات فقط، أجل يا سيدي. من المؤكد أنه قد مات قبل وقت طويل. هذا ما يحدث في الحرب، أترى؟

لم يقل العجوز شيئا آخر. وبينما هو ما يزال واقفا، واصل النظر إلى الصندوق لبرهة؛ وبعد ذلك رجع إلى كرسيه.

بعد دقائق من ذلك فُتح باب الحجرة الأخرى وخرجت دونيا مييّا مستندة إلى أذرع اثنتين من جاراتها. كانت شاحبة ومشعثة الشعر، ولكن محياها كان يعكس هدوءا عظيما. مشت ببطء، وهي مستندة طوال الوقت إلى المرأتين الأخريين، إلى أن وصلت قبالة الملازم. وقالت له:

- سيدي... تكرم علينا... أخبرنا كيف يُفتح هذا الصندوق.

نظر إليها الملازم متفاجئا.

- لا يمكن فتح الصندوق يا سيدتي. إنه مختوم.

بدا على دونيا مييا أنها لم تفهم. وسّعت عينيها وثبتتهما طويلا في عيني الضابط، إلى أن وجد هذا نفسه أخيرا مضطرا إلى أن يكرر:

- الصندوق مختوم يا سيدتي. لا يمكن فتحه.

هزت المرأة رأسها من جانب إلى آخر، ببطء:

- ولكنني أريد رؤية ابني. أنا أريد رؤية ابني، أنت تفهمني؟ لا يمكنني السماح بدفنه دون أن أراه للمرة الأخيرة.

عندئذ نظر الملازم إلينا؛ كان واضحا أن نظرته تطلب تفهما، ولكن أحدا منا لم يتفوه بكلمة.

تقدمت دونيا مييّا خطوة باتجاه الصندوق، وأزاحت برفق أحد أطراف العلم، وتلمست برفق.

- أيها السيد - قالت للضابط، دون أن تنظر إليه - هذا الصندوق ليس من الخشب. مم صنع هذا الصندوق يا سيدي؟

- إنه من الرصاص يا سيدتي. يصنعونه هكذا ليتحمل بصورة أفضل الرحلة في البحر من كوريا.

- من الرصاص؟ - دمدمت دونيا مييّا دون أن ترفع بصرها عن الصندوق - ولا يمكن فتحه؟

وكرر الملازم وهو ينظر إلينا من جديد:

- يصنعونه من الرصاص ليتحمل بصورة أفضل الر...

ولكنه لم يستطع أن يكمل؛ لم تسمح له بأن يكمل صرخاتُ دونيا ميا، صرخات رهيبة جعلتني أشعر فجأة كما لو أنني ضُربت على بوابة معدتي:

- مونتشو! مونتشو! بني، لن أسمح لأحد بدفنك دون أن أراك! لن أسمح لأحد يا بني، لا أحد...!

ويصعب مرة أخرى أن أرى بدقة: صرخات دونيا ميا أحدثت اضطرابا عظيما. المرأتان اللتان كانتا تسندانها من ذراعيها حاولتا إبعادها عن الصندوق ولكنها أحبطت المحاولة بإرخاء جسدها والانهيار نحو الأرض. عندئذ تدخل عدة رجال. أنا لم أتدخل: فأنا لم أكن قد تخلصت بعد من ذلك الإحساس في بوابة معدتي. العجوز سوتيرو بايي كان أحد من هرعوا إلى جانب دونيا إميليا، وجلستُ أنا على كرسيه. لستُ أخجل من قول ذلك: فقد كان عليّ أن أجلس أو أخرج من الغرفة. وأنا لا أدري إذا ما كان قد جرى مثل هذا لأحدكم يوما. لا، لم يكن خوفا، إذ لم يكن هناك أي خطر يتهددني في تلك اللحظة. ولكنني كنت أشعر بمعدتي قاسية ومنقبضة مثل قبضة، بينما بدت ساقاي فجأة كما لو أنهما قد تحولتا إلى خرقة. إذا كان قد جرى لأحدكم مثل هذا يوما، فإنه سيعرف ما الذي أعنيه. أما إذا لم يكن كذلك... حسن، عسى ألا يحدث له ذلك أبدا. أو أن يحدث له ذلك حيث لا ينتبه الناس إلى الأمر على الأقل.

أنا جلست. جلست، ووسط ذلك الاضطراب الرهيب الذي يحيط بي، رحت أفكر بمونتشو، مثلما لم أفكر به في حياتي من قبل قط. كانت دونيا ميا تصرخ حتى البحة بينما هم يسحبونها

نحو الغرفة الأخرى، وأنا أفكر بمونتشو، بمونتشو الذي ولد في هذا الحوش نفسه الذي ولدت فيه أنا أيضا، بمونتشو الوحيد الذي لم يبك عندما أخذونا إلى المدرسة أول مرة، بمونتشو الذي كان يسبح أبعد من الجميع حين كنا نذهب إلى الشاطئ وراء مبنى الكابتول، بمونتشو الذي كان على الدوام الرامي الرابع كلما لعبنا البيسبول في إيسلا غراندي، قبل أن ينشئوا هناك القاعدة الجوية... دونيا مييا تواصل الصراخ بأن أحدا لن يدفن ابنها دون أن تراه هي للمرة الأخيرة. ولكن الصندوق كان من الرصاص ولا يمكن فتحه.

في اليوم التالي دفنا مونتشو راميريث. مفرزة من الجنود أطلقت صلية من النار عندما كان رفات مونتشو - أو ما هو ضمن الصندوق - ينزل إلى حفرة قبره الرطبة والعميقة. حضرت دونيا مييّا كل المراسم وهي جاثية على الأرض.

كل هذا حدث منذ سنتين. ولم يخطر لي أن أرويه قبل الآن. ربما يخطر لأحدكم أن يسأل لماذا أرويه أخيرا. فأقول أنا إن ساعي بريد جاء إلى الحوش هذا الصباح. ولم أكن بحاجة لطلب مساعدة من أحد لأقرأ ما جاءني به، لأنني أعرف قليلا من الإنجليزية. لقد كان إشعارا بدعوتي إلى التجنيد العسكري.

غابرييل غارسيا ماركيز

Gabriel García Márquez

(كولومبيا)

- ولد في أراكاتا (كولومبيا) في السادس من مارس ١٩٢٨.
- روائي وقصاص وصحافي وكاتب سيناريو سينمائي.
- غادر بلاده عام ١٩٤٤، وعمل مراسلا صحافيا في روما وباريس ومكسيكو وكاراكاس وبرشلونة، قبل أن يستقر لسنوات طويلة في المكسيك.
- عمل مراسلا لوكالة الصحافة الكوبية «برنسا لاتينا» في نيويورك.
- تجول طويلا في المناطق الجنوبية من الولايات المتحدة لاستطلاع عوالم الكاتب الأمريكي وليم فوكنر، وقد قال يوما: «يجب ألا ننسى أن فوكنر هو كاتب أمريكي لاتيني بطريقة ما، لأن عالمه هو خليج المكسيك».
- أكثر مؤلفاته طموحا هي روايته «مائة عام من العزلة» التي تشكل ملحمة بكل معنى الكلمة، والتي كرسته على المستوى العالمي.
- نُقِلت قصص كثيرة من تأليفه إلى السينما، وكانت من أولاها «لا يوجد لصوص في هذه القرية»، من إخراج المكسيكي ألبيرتو إساك، وقد شارك غارسيا ماركيز نفسه في تمثيل هذا الفيلم إلى جانب خوان رولفو ولويس بونويل.
- نال جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٢.

● من أبز أعماله:

في الرواية:

«الأوراق المتساقطة» (١٩٥٥)، «ليس لدى الكولونيل من يكاتبه» (١٩٦١)؛ «ساعة الشؤم» (١٩٦٢)، «مائة عام من العزلة» (١٩٦٧)، «خريف البطريرك» (١٩٧٥)، «قصة موت معلن» (١٩٨١)، «الحب في زمن الكوليرا» (١٩٨٥)؛ «الجنرال في متاهته» (١٩٨٩)، «عن الحب وشياطين أخرى» (١٩٩٤)، «خبر اختطاف» (١٩٩٦)

القصة القصيرة:

«مأتم الأم الكبيرة» (١٩٦٢)، «إيسابيل ترى هطول المطر في ماكوندو» (١٩٦٧)، «الحكاية العجيبة لارينديرا الساذجة وجدتها القاسية» (١٩٧٢) «عينا الكلب الأزرق» (١٩٧٢)، «اثنتا عشرة قصة قصيرة مهاجرة» (١٩٩٢).

كتابات نثرية متنوعة:

«قصة بحار غريق» (١٩٧٠)، «عندما كنتُ سعيدا وبلا هوية» (١٩٧٣)، «عن رحلة إلى البلدان الاشتراكية» (١٩٧٨)، «مغامرة ميغيل ليتين السري في تشيلي» (١٩٨٦)، «كيف تُحكى حكاية/ بائعة الأحلام/ نزوة القص المباركة» (ثلاثة كتب عن ورشة غارسيا ماركيز لكتابة السيناريو ١٩٩٥)، «خبر اختطاف» (١٩٩٦).

أمسية بالتازار العجيبة

La prodigiosa tarde de Baltazar

كان صنع القفص ناجزا. وعلقه بالتازار، بحكم العادة، على الإفريز، وحين انتهى من تناول الغداء كان يقال في كل مكان إنه أجمل قفص في العالم. توافد أناس كثيرون لرؤيته، حتى تجمع حشد صاخب قبالة البيت، فاضطر بالتازار إلى إنزال القفص وإغلاق مشغل النجارة.

- عليك أن تحلق ذقنك - قالت له زوجته أورسولا - فأنت تبدو راهب كَبُّوشي.

- من السيئ الحلاقة بعد الغداء - قال بالتازار.

كانت له لحية لم تُحلق منذ أسبوعين، شعر قصير، قاس ومنتصب كعُرف بغل، ومظهر عام كمظهر صبي خائف. إلا أنه كان ملمحا زائفا. فقد بلغ الثلاثين في شهر فبراير، وهو يعيش مع أورسولا منذ حوالي أربع سنوات، دون زواج ودون إنجاب أبناء، وقد منحته الحياة أسبابا كثيرة ليكون متيقظا، ولكنها لم تقدم له سببا واحدا ليكون خائفا. بل إنه لم يكن يعلم أن القفص الذي انتهى من صنعه لتوه، هو في نظر البعض أجمل قفص في العالم. أما هو، الذي اعتاد على صنع الأقفاص منذ كان طفلا، فلم يتعدَّ صنع ذلك القفص أن يكون عملا أكثر مشقَّة من الأقفاص الأخرى.

- استرح قليلا إذن - قالت المرأة - فبهذه اللحية لا يمكنك الذهاب إلى أي مكان.

وبينما هو يستريح، اضطر إلى مغادرة أرجوحة النوم عدة مرات ليعرض القفص على جيرانه. ولم تكن أورسولا قد أعارت القفص اهتماما حتى ذلك الحين. فقد كانت متضايقة لأن زوجها أهمل عمله في ورشة النجارة لينهمك تماما في صنع القفص، وكان نومه سيئا طوال أسبوعين، يتقلب خلاله ويغمغم ببلاهات، ولم يعد يفكر في حلاقة ذقنه. ولكن استياءها تبدد أمام القفص الناجز. وعندما استيقظ بالتازار من قيلولته، كانت قد كوت بنطاله وقميصه، ووضعتهما على مقعد بجانب أرجوحة النوم، وحملت القفص إلى منضدة غرفة الطعام. نظرت إليه بصمت.

- كم ستطلب ثمنا له؟ - سألته.

- لستُ أدري - أجاب بالتازار - سأطلب ثلاثين بيزو لأرى إذا ما كانوا يعطونني عشرين.

- اطلب خمسين - قالت أورسولا - فقد سهرتَ كثيرا خلال هذه الأيام الخمسة عشر. أضف إلى ذلك أنه كبير جدا. أظن أنه أكبر قفص رأيته في حياتي.

وبدأ بالتازار حلاقة ذقنه.

- تعتقدين أنهم سيعطونني الخمسين بيزو.

فقالت أورسولا:

- هذا مبلغ تافه عند دون تشبي مونتييل، والقفص يستحقه. عليك أن تطلب ستين.

كان البيت يهجع في الظل الخانق. فقد كان ذلك هو الأسبوع الأول من أبريل، وبدا الحر أقل احتمالا بسبب صرير الزيزان.

عندما فرغ بالتازار من ارتداء ثيابه، فتح باب الفناء لتبريد البيت، فدخل جمع من الأطفال إلى غرفة الطعام.

كان الخبر قد انتشر. وكان الدكتور أوكتابيو خيرالدو، وهو طبيب عجوز، سعيد بحياته ولكنه ضجر من مهنته، يفكر في قفص بالتازار بينما هو يتناول الغداء مع زوجته المقعدة. وكانت على الشرفة الداخلية، حيث يضعان المائدة في الأيام الحارة، أصص أزهار كثيرة وقفصان فيهما طيور كناري.

كانت زوجته تحب الطيور، تحبها إلى حد تكره معه الهررة لأنها لا تتورع عن أكلها. وبينما هو يفكر بها، ذهب الدكتور خيرالدو في ذلك المساء لعيادة أحد مرضاه، ولدى عودته مرّ بمنزل بالتازار لرؤية القفص.

كان هناك أناس كثيرون في غرفة الطعام. وعلى المائدة كانت تُعرض قبة الأسلاك الضخمة، ذات الطبقات الداخلية الثلاث، المزودة بممرات وأقسام مخصصة للأكل والنوم مع عوارض في الحيز المخصص لاستراحة الطيور، فكان القفص يبدو أشبه بنموذج مصغر لمصنع جليد هائل. تفحصه الطبيب باهتمام، دون أن يلمسه، مفكرا في أن ذلك القفص يفوق بالفعل شهرته، وأنه أجمل بكثير مما كان يحلم به لزوجته.

- هذا القفص هو إحدى مغامرات المخيلة - قال ذلك وهو يبحث عن بالتازار بين الجمع، ثم أضاف وهو يثبت عليه عينيه الأموميتين:- كان يمكن لك أن تكون مهندسا استثنائيا.

احمر وجه بالتازار خجلا، وقال:

- شكرا.

- إنها الحقيقة - قال الطبيب. وكان ذا بدانة ملساء ولينة مثل امرأة كانت جميلة في شبابها، ويدين حساستين. وبدا صوته أشبه بصوت قس يتكلم - لن تكون ثمة حاجة إلى وضع الطيور فيه - قال ذلك وهو يدّور القفص أمام أعين الجمهور، كأنه يعرضه للبيع - يكفي تعليقه بين الأشجار حتى يغرد وحده - ثم أعاده إلى المنضدة، وفكر هنيهة، وهو ينظر إلى القفص، وقال:

- حسن، سآخذه.

فقالت أورسولا:

- إنه مبيع.

وقال بالتازار:

- إنه لابن السيد تشبي مونتييل. لقد أوصى على صنعه.

فاتخذ الطبيب موقفا وقورا.

- هل قدم لك التصميم؟

قال بالتازار:

- لا. ولكنه قال إنه يريد قفصا كبيرا، مثل هذا، من أجل زوج من الببغاوات الصفراء.

فنظر الطبيب إلى القفص:

- ولكن هذا ليس للببغاوات الصفراء.

- بل هو كذلك بالطبع يا دكتور - قال بالتازار، ذلك وهو يدنو من المنضدة. وأحاط به الأطفال. ثم قال وهو يشير بإصبعه السبابة إلى مختلف الأجزاء:- المقاييس محسوبة جيدا - ثم ضرب بمفاصل سُلاميات أصابعه، فامتلأ القفص بأنغام عميقة، وقال:

- إنه أمتن سلك يمكن العثور عليه، وكل اتصال فيه ملحوم من الداخل والخارج.

فتدخل أحد الأطفال:

- إنه ينفع حتى لببغاوات عادية.

- وهو كذلك - قال بالتازار.

هز الطبيب رأسه، وقال:

- حسن، ولكنه لم يعطك النموذج. لم يوصِك على أي شيء محدد، اللهم إلا أنه يريد قفصا كبيرا لببغاوات صفراء. أليس كذلك؟

- بلى - قال بالتازار.

- ليست هناك مشكلة إذن - قال الطبيب - فقفص كبير للببغاوات الصفراء هو شيء، وهذا القفص تحديدا شيء آخر. ليس هناك أدلة على أنهم أوصوك على صنع هذا القفص بالذات.

- بل هو هذا القفص بالذات - قال بالتازار مبهورا - ولهذا السبب صنعته.

فأومأ الطبيب إيماءة نفاد صبر.

- يمكنك أن تصنع قفصا آخر - قالت أورسولا ذلك وهي تنظر إلى زوجها. ثم وهي تنظر إلى الطبيب بعد ذلك: - وحضرتك لستَ على عجل.

فقال الدكتور:

- وعدتُ زوجتي به هذا المساء.

- متأسف جدا يا دكتور - قال بالتازار - ولكن لا يمكن بيع شيء مبيع.

هز الطبيب كتفيه. وتأمل القفص صامتا وهو يمسح العرق عن عنقه بمنديله، دون أن يحوّل نظرته عن نقطة غير محددة، كمن ينظر إلى سفينة تمضي.

- كم دفعوا لك مقابله؟

بحث بالتازار عن عيني أورسولا دون أن يجيب.

فقالت هي:

- ستون بيزو.

واصل الطبيب النظر إلى القفص. وتنهد:

إنه جميل جدا، جميل إلى أقصى حد.

ثم تحرك بعد ذلك باتجاه الباب، وأخذ يروِّح بمروحة يدوية بنشاط، مبتسما، وتلاشت ذكرى تلك الحادثة من ذاكرته إلى الأبد. وقال:

- مونتييل غني جدا.

لم يكن خوسيه مونتييل غنيا في الحقيقة مثلما يبدو، ولكنه ما كان ليتورع عن عمل أي شيء ليتوصل إلى ذلك. فعلى بعد عدة كوادرات من هناك، في بيت مترع بسروج الخيل، حيث لم تُشم قط رائحة شيء لا يمكن أن يباع، بقي غير مكترث بأخبار القفص. وقد قامت زوجته، المعذبة بهواجس الموت، بإغلاق الأبواب والنوافذ بعد الغداء، واضطجعت ساعتين وعيناها مفتوحتان على عتمة الغرفة، بينما كان خوسيه مونتييل ينام القيلولة. وهكذا فاجأتها جلبة أصوات كثيرة. عندئذ فتحت باب الصالة ورأت حشدا أمام البيت، ورأت بالتازار ومعه القفص وسط الحشد، مرتديا ثيابا بيضاء وبذقن حُلقت للتو،

وتبدو عليه ملامح البراءة المحتشمة التي يأتي بها الفقراء إلى بيوت الأغنياء.

- يا له من شيء بديع! - هتفت زوجة خوسيه مونتييل بملامح مشرقة، وهي تقود بالتازار إلى الداخل - لم أرَ في حياتي شيئا مماثلا - قالت ذلك، ثم أضافت متضايقة من الحشد المجتمع عند الباب:- ولكن أدخله إلى الداخل وإلا فإنهم سيحولون الصالون إلى ميدان صراع ديكة.

لم يكن بالتازار غريبا في منزل خوسيه مونتييل. فقد استدعي في مناسبات مختلفة، لكفاءته وحسن أدائه، من أجل القيام ببعض أعمال النجارة الصغيرة. ولكنه لم يكن يشعر قط بأنه على ما يرام وهو بين الأغنياء. فقد اعتاد على التفكير فيهم، وفي زوجاتهم القبيحات المحبات للاختلاف، وفي عملياتهم الجراحية الفظيعة، فيخالطه على الدوام شعور بالإشفاق عليهم. وعندما يدخل بيوتهم، لا يستطيع أن يتحرك دون جرجرة قدميه.

- هل بيبي موجود؟ - سألها.

وكان قد وضع القفص على منضدة غرفة الطعام.

- إنه في المدرسة - قالت زوجة خوسيه مونتييل - ولكنه لن يتأخر في المجيء - ثم أضافت: ومونتييل يستحم.

الحقيقة أن خوسيه مونتييل لم يجد الوقت الكافي للاستحمام. فكان يقوم بمسح سريع لجسده بالكحول الممزوج بالكافور لكي يخرج ويرى ما الذي يحدث. فقد كان رجلا شديد الحذر إلى حد ينام معه دون مروحة كهربائية، ليتمكن وهو نائم من رصد الهمسات في بيته.

- تعال وانظر هذا الشيء البديع - صاحت امرأته.

أطل خوسيه مونتييل - ضخما وكث الشعر، يعلق منشفة على عنقه - من نافذة غرفة النوم.

- ما هذا؟

- إنه قفص بيبي - قال بالتازار.

نظرت إليه المرأة مرتبكة:

- قفص من؟

- قفص بيبي - أكد ذلك بالتازار. ثم قال بعد ذلك متوجها إلى خوسيه مونتييل: لقد أوصاني بيبي بصنعه.

لم يحدث أي شيء في تلك اللحظة، ولكن بالتازار أحس كما لو أنهم فتحوا عليه باب الحمام. خرج خوسيه مونتييل من غرفة النوم بالسروال الداخلي. وصرخ:

- بيبي!

- لم يأت بعد - همست زوجته وهي جامدة.

ظهر بيبي في فراغ الباب. كان في حوالي الثانية عشرة وله الرموش المقوسة والهدوء المؤثر الذي لأمه.

- تعال هنا - قال له خوسيه مونتييل - هل أوصيت على صنع هذا؟

أخفض الطفل رأسه. فأمسكه خوسيه مونتييل من شعره، وأرغمه على النظر إلى عينيه.

- أجب.

عض الطفل شفتيه دون أن يجيب.

- مونتييل - همست زوجته.

أفلت خوسيه مونتييل الطفل والتفت إلى بالتازار بملامح هائجة، وقال له:

- آسف جدا يا بالتازار، ولكن كان عليك أن تستشيرني قبل أن تتصرف. أنت وحدك من يخطر له الاتفاق مع قاصر. - وكلما تكلم كان وجهه يستعيد الهدوء. ثم رفع القفص دون أن ينظر إليه وأعطاه لبالتازار قائلا:- خذه فورا وحاول أن تبيعه لمن تستطيع. وأرجوك قبل كل شيء ألا تجادلني - ثم ربت على ظهره، وأوضح:- لقد منعني الطبيب من الغضب.

ظل الطفل في أثناء ذلك جامدا دون حراك، ودون أن يرمش، إلى أن نظر إليه بالتازار حائرا والقفص في يده. عندئذ أصدر صوتا حلقيا كأنه همهمة كلب، وألقى بنفسه على الأرض مطلقا الصراخ.

نظر إليه خوسيه مونتييل دون تأثر، بينما حاولت الأم تهدئته.

- لا تُنهضيه. - قال لها - دعيه يشج رأسه على الأرض ثم ضعي له عليه ملحا وليمونا لكي يغضب على هواه.

كان الطفل يصرخ دون دموع، بينما أمه تمسكه من معصميه.

- اتركيه - ألح عليها خوسيه مونتييل.

راقب بالتازار الطفل كما لو كان يراقب احتضار حيوان مُعدٍ. وكانت الساعة قرابة الرابعة.

في تلك الساعة كانت أورسولا، في بيته، تغني أغنية قديمة جدا بينما هي تقطع شرائح من البصل.

- بيبي - قال بالتازار.

دنا من الطفل باسما، وقدّم له القفص. نهض الطفل قافزا، احتضن القفص الذي كان كبيرا بحجمه تقريبا، وبقي ينظر إلى

بالتازار من خلال نسيج الأسلاك المعدنية، دون أن يدري ما عليه أن يقوله. لم يكن قد ذرف دمعة واحدة.

قال خوسيه مونتييل بنعومة:

- لقد طلبت منك أن تأخذه يا بالتازار.

وأمرت المرأة الطفل:

- أعده إليه.

- احتفظ به. - قال بالتازار ذلك. ثم توجه إلى خوسيه مونتييل

- من أجل هذا صنعته في نهاية المطاف.

تابعه خوسيه مونتييل حتى الصالة.

- لا تكن أحمق يا بالتازار - قال معترضا سبيله - خذ قفصك إلى بيتك ولا تقم بمزيد من الحماقات. فأنا لا أفكر في أن أدفع لك سنتيما واحدا.

فقال بالتازار:

- لا يهم. لقد صنعته لكي أهديه إلى بيبي تحديدا. ولم أكن أفكر في تقاضي أي شيء.

عندما شق بالتازار طريقه عبر الفضوليين الذين يسدّون الباب، كان خوسيه مونتييل يطلق الصرخات في منتصف الصالون. كان شاحبا جدا وقد بدأت عيناه بالاحمرار.

راح يصرخ:

- خذ غرضك أيها الأحمق. ما كان ينقصني هو أن يأتي شخص تافه ليصدر الأوامر في بيتي. يا للعنة!

استقبلوا بالتازار في صالة البلياردو بالتهليل. كان يفكر حتى تلك اللحظة في أنه صنع قفصا أفضل من أي قفص آخر، وأنه

كان عليه أن يهديه إلى ابن خوسيه مونتييل كيلا يواصل البكاء، وأنه ليس في كل ذلك أي شيء استثنائي.

ولكنه انتبه بعد ذلك إلى أن كل ذلك له بعض الأهمية في نظر أناس كثيرين، فأحس بشيء من الانفعال.

- لقد أعطوك إذن خمسين بيزو مقابل القفص.

- بل ستين - قال بالتازار.

فقال أحدهم:

- يجب رسم علامة في السماء. فأنت الوحيد الذي تمكن من الحصول على مثل هذا المبلغ الكبير من المال من دون تشيبي مونتييل. يجب الاحتفال بذلك.

قدموا إليه زجاجة بيرة، وردّ بالتازار بجولة شراب للجميع. ولأنها المرة الأولى التي يشرب فيها، فقد سكر تماما عند الغروب، وراح يتكلم عن مشروع خرافي لصنع ألف قفص كل واحد منها بستين بيزو، ثم عن صنع مليون قفص ليجني منها ستين مليون بيزو.

وقال وقد أعماه السكر:

- يجب صنع أشياء كثيرة لبيعها إلى الأغنياء قبل أن يموتوا. فجميعهم مرضى وسيموتون. وبما أنهم معتلون فإنهم عاجزون حتى عن الغضب.

وعلى امتداد ساعتين بقي جهاز الموسيقى يدور دون توقف على حسابه. الجميع شربوا نخب بالتازار، ونخب حظه السعيد وثروته، ونخب موت الأغنياء، ولكنهم تركوه وحيدا عندما حان موعد العشاء.

انتظرته أورسولا حتى الساعة الثامنة، وقد أعدت له طبقا من اللحم المقلي المغطى بشرائح البصل. قال لها أحدهم إن زوجها في صالة البيليياردو، مجنونا من السعادة، يقدم البيرة إلى الجميع، ولكنها لم تصدقه لأن بالتازار لم يسكر قط. وعندما استلقت للنوم عند منتصف الليل تقريبا، كان بالتازار في صالة مضاءة، حيث توجد موائد صغيرة حول كل واحدة منها أربعة كراس، وكانت هناك حلبة رقص في الهواء الطلق، تتجول فيها طيور الكروان. كان وجهه ملطخا بأحمر الشفاه، ولأنه لم يكن قادرا على أن يخطو خطوة أخرى، فقد راح يفكر في أنه يريد النوم مع امرأتين في سرير واحد. كان قد أنفق كثيرا حتى اضطر إلى رهن ساعته، مع الوعد بالدفع في اليوم التالي. وبعد قليل من ذلك، بينما هو فاقد الوعي في الشارع، انتبه إلى أن هناك من ينتزع منه حذاءه، ولكنه لم يشأ أن يغادر أسعد حلم في حياته. أما النساء اللواتي مررن في طريقهن إلى قداس الساعة الخامسة، فلم يجرؤن على النظر إليه، ظننا منهن أنه ميت.

بائعة الأحلام

Me alquilo para soñar

في الساعة التاسعة صباحا، وبينما نحن نتناول الفطور في شرفة فندق ريفيرا هافانا، طوحت لطمة رهيبة من البحر، في وضح النهار، بعدة سيارات كانت تمر على جادة الكورنيش العريضة، أو تقف على الرصيف، وارتطمت إحداها بأحد جوانب الفندق. كان ذلك أشبه بانفجار ديناميت زرع الرعب في طوابق المبنى العشرين، وحوّل واجهة البهو الزجاجية إلى فتات. السائحون العديدون الذين كانوا في قاعة الانتظار آنذاك انقذفوا في الهواء مع الأثاث، وأصيب بعضهم بجروح من وابل الزجاج المتطاير. لا بد أنها كانت موجة هائلة، لأن شارعا عريضا ذا اتجاهين يفصل ما بين الحاجز البحري والفندق. ومع ذلك، فإن الموجة قد اجتازته وبقي لديها ما يكفي من القوة لتحطيم الواجهة الزجاجية.

جَمَعَ المتطوعون الكوبيون المرحون، بمساعدة رجال الإطفاء، كل الحطام خلال أقل من ست ساعات، وأغلقوا بوابة الفندق المطلة على البحر وهيأوا واحدة غيرها، وعاد كل شيء إلى حالته المعهودة. لم يهتم أحد في ذلك الصباح بالسيارة المرتطمة بالجدار، لأنهم ظنوا أنها إحدى السيارات التي كانت متوقفة على الرصيف. ولكن عندما أخرجتها الرافعة من الكوة التي أحدثتها في الجدار، اكتشفوا وجود جثة امرأة مقيدة بحزام الأمان في مقعد السائق. وقد كانت الصدمة قوية إلى حد لم

يبق معه في جسمها عظم واحد سليم. كان وجهها مهشما، وحذاؤها مفتقا، وثيابها ممزقة، وكان في إصبعها خاتم ذهبي له شكل أفعى عيناها من الزمرد. وقد تحققت الشرطة من أنها مدبرة بيت السفير البرتغالي الجديد. وبالفعل، كانت قد وصلت إلى هافانا مع السفير وزوجته قبل خمسة عشر يوما، وكانت قد خرجت في ذلك الصباح إلى السوق وهي تقود سيارة جديدة. لم يكن اسمها يعني أي شيء لي حين قرأت الخبر في الصحف، ولكنني بقيت بالمقابل مشوشا بسبب الخاتم الذي له شكل أفعى عيناها من الزمرد. ولم أستطع أن أتحقق، مع ذلك، في أي إصبع كانت تضعه.

وقد كان ذلك التفصيل حاسما، لأني خشيت أن تكون امرأة لا يمكنني نسيانها، ولم أعرف اسمها الحقيقي قط، كانت تضع خاتما مماثلا في سبابتها اليمنى، وكان ذلك نادرا في ذلك الحين. لقد تعرفت عليها قبل أربع وثلاثين سنة في فيينا، حين كنتُ آكل السجق مع البطاطس المسلوقة، وأشرب بيرة البراميل في حانة يرتادها الطلاب اللاتينيون. وكنت قد وصلت من روما في ذلك الصباح، ومازلت أذكر الانطباع الفوري الذي خلفه في نفسي صدرها الرائع والفسيح الذي يشبه صدر مغن صوته من أعلى الطبقات، وذيول الثعالب الخامدة على ياقة معطفها، وذاك الخاتم المصري الذي له شكل أفعى. بدا لي أنها النمساوية الوحيدة على الطاولة الخشبية الطويلة، وذلك بسبب لغتها القشتالية البدائية التي كانت تتكلمها دون أن تتنفس وبلكنة خردواتية. ولكن لا، لم تكن نمساوية. فقد ولدت في كولومبيا،

وسافرت إلى النمسا في فترة ما بين الحربين، حين كانت ما تزال طفلة تقريبا، لكي تدرس الموسيقى والغناء. وكان عمرها يوم عرفتها نحو ثلاثين سنة من الحياة السيئة، فهي لم تكن جميلة في يوم من الأيام، وقد بدأت تشيخ قبل أوانها. ولكنها كانت بالمقابل كائنا إنسانيا أخاذا. وأحد أكثر الكائنات رهبة أيضا.

كانت فيينا ما تزال في ذلك الحين مدينة إمبراطورية قديمة، وكان موقعها الجغرافي بين العالمين اللذين خلفتهما الحرب الثانية دون إمكان للمصالحة بينهما، قد حوّلها إلى جنة السوق السوداء والجاسوسية العالمية. ولم أستطع تخيل أجواء أكثر ملاءمة لمواطنتي الهاربة تلك، التي ما زالت تأكل في الحانة الطلابية على الناصية لمجرد الوفاء لأصولها وحسب، ذلك أنها كانت تملك من الموارد ما يكفي لشراء الحانة وكل من فيها من الندماء نقدا. لم تخبر أحدا باسمها الحقيقي قط، وكنا نعرفها دائما باسم جرماني يصعب النطق به اخترعه لها الطلاب اللاتينيون في فيينا: فراو فريدا. وما كادوا يعرفونني عليها حتى انقدتُ للبلاهة السعيدة وسألتها عما فعلته حتى استطاعت تثبيت نفسها بتلك الطريقة الراسخة في ذلك العالم البعيد جدا والمختلف تماما عن صخور الرياح في موطنها كينديو، فردت علي بعبارة أشبه بالصفعة:

- إنني أبيع الأحلام.

وكان ذلك هو عملها الوحيد حقا. لقد كانت الابنة الثالثة بين أحد عشر ابنا لكاتب حسابات ناجح عند كالداس القديم، ومنذ تعلمت نطق الكلام فرضت على البيت العادة الحميدة برواية

الأحلام على الريق، وهي الساعة التي تكون فيها قدرتها على الحدس ما تزال تحتفظ بنقائها. وعندما كانت في السابعة من عمرها حلمت أن سيلا قد جرف أحد إخوتها. وبسبب معتقدات دينية محضة، منعت الأم الطفل من أحب الأشياء إليه، ألا وهو السباحة في الوادي. ولكن فراو فريدا التي كان لديها من ذلك الحين نظام خاص للتكهن، قالت لأمها:

- هذا الحلم لا يعني أنه سيغرق، بل يعني أنه يجب ألا يأكل حلوى.

إن هذا التفسير بحد ذاته يبدو مريعا عندما يكون المقصود به طفلا في الخامسة من عمره لا يمكنه العيش دون حلوياته الخاصة بيوم الأحد. ولكن الأم المقتنعة بقدرات ابنتها التنبؤية، جعلت الطفل يحترم الإنذار بالقوة. ولكن عند أول سهو منها، اختنق الصغير بكرة من السكاكر كان يأكلها خلسة، ولم يكن إنقاذه ممكنا.

لم تكن فراو فريدا تفكر بأن قدرتها تلك يمكن لها أن تتحول إلى مهنة، إلى أن أطبقت الحياة على عنقها في شتاءات فيينا القاسية. عندئذ طرقت باب أول بيت أعجبها العيش فيه لتطلب عملا، وعندما سألوها عما تستطيع عمله، قالت الحقيقة وحدها: «إنني أحلم». وكان شرحا قصيرا قدمته لسيدة البيت كافيا لقبولها، وبأجر لا يكاد يكفي لتغطية نفقاتها الصغرى، ولكن مع غرفة جيدة وثلاث وجبات يوميا، وخصوصا وجبة الفطور، لأنه الوقت الذي كانت تجلس فيه الأسرة كلها لتعرف القدر اليومي لكل واحد من أفرادها: الأب الذي كان مستثمرا

راقيا؛ والأم: امرأة سعيدة ومولعة بموسيقى الحجرة الرومانسية، وطفلان أحدهما في الحادية عشرة والآخر في التاسعة. وكانوا جميعهم متدينين، وميالين في الوقت نفسه إلى الإيمان بالخرافات القديمة. وقد استقبلوا فراو فريدا مبتهجين، وكان التزامها الوحيد هو الكشف عن القدر اليومي للأسرة من خلال الأحلام.

وقد فعلت ذلك على خير وجه لزمن طويل، خصوصا في سنوات الحرب، حين كان الواقع أشد شؤما من الكوابيس. وكانت هي وحدها التي تقرر في موعد الفطور العمل الذي يجب أن يقوم به كل واحد منهم في ذلك اليوم، وكيف عليه أن يؤديه، إلى أن أصبحت تنبؤاتها هي السلطة الوحيدة في البيت. وصارت سيطرتها على الأسرة مطلقة: فحتى أدنى نَفَس كان يتم بأمر منها. وفي أيام وجودي في فيينا مات رب تلك الأسرة، وقد تلطف بأن أوصى لها بجزء من ثروته، وبشرط وحيد هو أن تواصل الحلم لأفراد الأسرة حتى نهاية أحلامها.

بقيتُ في فيينا أكثر من شهر، كنتُ أشاطر الطلاب خلاله حياة الضنك، وأنتظر نقودا لم تصل مطلقا. وقد كانت زيارات فراو فريدا المفاجئة والسخية للحانة في ذلك الحين أشبه بالأعياد في نظام حياتنا المدقع فقرا. وفي إحدى تلك الليالي، في بهجة تناول البيرة، همست في أذني باقتناع لا يسمح بأي إضاعة للوقت.

- لقد جئتُ فقط لأقول لك إني حلمت بك الليلة الماضية. عليك أن تغادر فيينا فورا ولا تعود إليها في السنوات الخمس القادمة.

كان اقتناعها واقعيا جدا حتى أنني غادرت في تلك الليلة بالذات، في القطار الأخير المتوجه إلى روما. ومن جهتي، بقيت موهوما جدا، وصرت أعتبر نفسي منذ ذلك الحين ناجيا من كارثة لم أعرف حقيقتها على الإطلاق. ولم أرجع إلى فيينا حتى الآن.

قبل حدوث كارثة هافانا كنت قد التقيت بفراو فريدا في برشلونة، وبطريقة غير متوقعة ومصادفة بدت لي سحرية. حدث ذلك يوم وطئ بابلو نيرودا أرض إسبانيا لأول مرة منذ الحرب الأهلية، خلال توقفه القصير في رحلة بحرية بطيئة إلى بالبارايسو. لقد أمضى الصباح معنا في الصيد من مكتبات الكتب القديمة، واشترى من مكتبة بورتير كتابا قديما، ممزق الغلاف ومهترئا، دفع ثمنه ما كان يعادل راتب شهرين في عمله القنصلي في رانغون. كان يتحرك بين الناس مثل فيل مقعد، وباهتمام طفولي بالآلية الداخلية لكل شيء، فقد كان العالم يبدو له دمية ضخمة تتحرك بنابض، وبه تُبتدع الحياة.

لم أعرف أحدا أشد منه شبها بالفكرة المتكونة لدينا عن أحد باباوات عصر النهضة: شره ومرهف الذوق. وقد كان هو دائما، ولو لم يشأ ذلك، من يترأس المائدة. وكانت زوجته ماتيلدي تضع على صدره فوطة تبدو أقرب إلى مريلة الحلاق منها إلى فوطة المطعم، ولكنها كانت الطريقة الوحيدة للحيلولة دون أن يلوث نفسه بالصلصات. وقد كان نموذجيا في ذلك اليوم في مطعم كاربابيرا. فقد أكل ثلاثة سرطانات كركند كاملة كان يقطعها بمهارة جراح، وكان يلتهم بنظره في الوقت نفسه أطباق الجميع،

ويلتقط شيئا من كل واحد منها بتلذذ يصيب من حوله بعدوى الرغبة في الأكل: محار غاليسيا، وبلح البحر الكانتبري، وأربيان أليكانتي، وإسباردينيا كوستا برافا. وكان في أثناء ذلك، مثلما يفعل الفرنسيون، لا يتحدث إلا عن لذائذ المطبخ، وخصوصا الحيوانات البحرية الخرافية في تشيلي التي كان يحملها في قلبه. وفجأة توقف عن الأكل، وشحذ قرون استشعار السرطان البحري التي يملكها، وقال لي بصوت خافت جدا:

- هناك شخص ورائي لا يتوقف عن النظر إليّ.

تطلعتُ من فوق كتفه، وكان ما قاله صحيحا. فوراء ظهره، وعلى بعد ثلاث طاولات، كانت هناك امرأة جريئة تضع قبعة قديمة من اللبد ولفاع عنق بنفسجي اللون، تمضغ ببطء وعيناها مثبتتان عليه. تعرفتُ عليها فورا. كانت هرمة وبدينة، ولكنها هي نفسها، وكان خاتم الأفعى في إصبعها السبابة.

كانت قادمة من نابولي على السفينة نفسها التي يسافر فيها نيرودا وزوجته، ولكنهم لم يلتقوا على متن السفينة. دعوناها لتناول القهوة على طاولتنا، ودفعتُها للتحدث عن أحلامها كي أفاجئ الشاعر. ولكنه لم يُبد أي اهتمام، فقد أعلن منذ البداية أنه لا يؤمن بتنبؤات الأحلام. وقال:

- الشعر وحده هو البصيرة.

بعد الغداء، وفي أثناء النزهة التي لا بد منها في شارع «رمبلاس»، تأخرتُ عن الجماعة متعمدا مع فراو فريدا لكي نستعيد ذكرياتنا بعيدا عن أسماع الآخرين. وأخبرتني أنها باعت ممتلكاتها في النمسا، وأنها تعيش متقاعدة في بورتو، في

البرتغال، في بيت وصفته لي بأنه مثل قلعة مزيفة فوق هضبة ترى منها المحيط كله حتى أميركا. وقد اتضح لي من خلال الحديث، دون أن تقول ذلك مباشرة، أنها بالانتقال من حلم إلى حلم، انتهت إلى الاستيلاء على ثروة أسيادها في فيينا. لم أتأثر بالأمر مع ذلك، لأني كنت أفكر على الدوام بأن أحلامها لم تكن أكثر من حيلة للعيش. وقد قلت لها ذلك.

فأطلقت قهقهتها التي لا تُقاوَم وقالت لي: «ما زلت جريئا جدا كعادتك». ولم تقل شيئا آخر، لأن بقية الجماعة كانوا قد توقفوا ينتظرون انتهاء نيرودا من التحدث بلكنته التشيلية مع ببغاوات شارع «رمبلا الطيور». وعندما أكملنا حديثنا، بدلت فراو فريدا الموضوع، وقالت لي:

– بالمناسبة. يمكنك أن تعود الآن إلى فيينا.

عندئذ فقط انتبهت إلى أن ثلاث عشرة سنة قد مضت منذ تعارفنا. فقلت لها:

– لن أرجع إليها مطلقا، حتى إن كانت أحلامك مزيفة، فمن يدري.

في الساعة الثالثة انفصلنا عنها لنرافق نيرودا إلى قيلولته المقدسة. وقد نامها في بيتنا بعد بعض الإجراءات المهيبة التي تُذكِّر، بطريقة ما، بطقوس الشاي في اليابان. فقد كان لا بد من فتح بعض النوافذ وإغلاق أخرى لتكون درجة الحرارة مضبوطة بدقة وليتوافر نوع معين من الضوء في اتجاه معين، وصمت مطبق. وقد نام نيرودا على الفور، واستيقظ بعد عشر دقائق، مثلما يستيقظ الأطفال في الوقت الذي لا يخطر لنا على بال. جاء إلى الصالة المكيفة وشعار الوسادة مطبوع على وجنته.

قال:

- لقد حلمتُ بتلك المرأة التي تحلم.

أرادت ماتيلدي أن يروي لها الحلم. فقال:

- حلمتُ بأنها كانت تحلم بي.

فقلت له:

- هذا لبورخيس.

فتطلع إليّ بخيبة أمل:

- هل كتبه؟

قلت له :

- إذا كان لم يكتبه بعد فسوف يكتبه يوما. وسيكون واحدة من متاهاته.

ودّعنا نيرودا فور صعوده إلى السفينة، في الساعة السادسة مساء، وجلس إلى طاولة منزوية، وبدأ كتابة أشعار متدفقة بقلم الحبر الأخضر الذي كان يرسم به أزهارا وأسماكا وعصافير عند إهداء كتبه. وعندما أطلقت السفينة صفارة الاستعداد الأولى بحثنا عن فراو فريدا، ووجدناها أخيرا على السطح المخصص للسائحين حين كنا على وشك مغادرة السفينة دون وداعها. وكانت هي قد استيقظت من قيلولتها قبل قليل أيضا.

قالت لنا:

- لقد حلمتُ بالشاعر.

فطلبت منها وأنا مذهول أن تروي لنا الحلم.

- حلمتُ بأنه يحلم بي - قالت ذلك، ويبدو أن الذهول الذي ظهر على وجهي قد أربكها، فواصلت قائلة: ماذا تريد؟ قد

يتسرب بين الأحلام الكثيرة أحيانا حلمٌ لا تكون له أي علاقة بالحياة الواقعية.

لم أعد لرؤيتها أو السؤال عنها إلى أن عرفت بقصة الخاتم الذي له شكل أفعى، والذي كانت تضعه المرأة الميتة في حادث فندق ريفيرا هافانا. ولهذا لم أستطع مقاومة الإغراء بسؤال السفير البرتغالي عنها حين التقينا معا، بعد عدة شهور، في حفل استقبال دييلوماسي. حدثني السفير عنها بحماسة شديدة وتقدير كبير. قال لي: «لا يمكنك أن تتصور كم كانت استثنائية. ولو أنك عرفتها لما كان بإمكانك مقاومة إغراء كتابة قصة عنها» وواصل بالنبرة ذاتها الحديث عن تفاصيل مذهلة، ولكن دون أي أثر يتيح لي الوصول إلى نتيجة حاسمة.

وأخيرا طلبت منه شيئا محددا:

- ما الذي كانت تفعله بالضبط؟

فقال السفير بشيء من خيبة الأمل:

- لا شيء. كانت تحلم.

خوليو رامون ريبيرو

Julio Ramón Ribeyro

(البيرو)

● ولد خوان رامون ريبيرو في ليما، عاصمة البيرو، عام ١٩٢٩.

● قصاص وروائي ومسرحي، يعتبر أحد أبرز كتّاب القصة القصيرة في أمريكا الناطقة بالإسبانية في النصف الثاني من القرن العشرين.

● بعد أن أنهى دراسة الحقوق في بلاده، توجه إلى أوروبا وعاش في باريس.

● عكف منذ البدء على تجديد الأسلوب القصصي وكان له دور رائد في هذا المجال.

● برز ريبيرو في مجال القصة القصيرة بصورة خاصة، ولكنه كتب عددا من الروايات والمسرحيات المتميزة.

● تعتبر روايته الأولى «وقائع سان غابرييل» مساهمة مهمة في تطوير الرواية الريفية، وقد حطم فيها النظرة الرومانسية الحالمة إلى الريف.

● يطغى على قصصه عالم قاتم، يسوده التشاؤم، ويعرض البؤس بصورة حية ومفزعة، ولكنه يترك مع ذلك فسحة من الأمل.

● على الرغم من أنه لم يبدأ الكتابة إلا في منتصف خمسينيات القرن العشرين، إلا أنه حقق شهرة عالمية، وتُرجمت أعماله إلى عدد كبير من اللغات الأجنبية.

● توفي سنة ١٩٩٥، وكان قد حصل قبل وفاته (في سنة ١٩٩٤) على جائزة خوان رولفو الأدبية.

● من أبرز أعماله

في الرواية:

- وقائع سان غابرييل (١٩٦٠)

- جنيّو أيام الآحاد (١٩٦٥)

- استبدال الحرس (١٩٧٦)

في القصة القصيرة:

- النسور المنتوفة (١٩٥٥)

- قصص المناسبات (١٩٥٨)

- القوارير والرجال (١٩٦٤)

- ثلاث قصص متمردة (١٩٦٤)

- الأسرى (١٩٧٢)

- في الشهر القادم ساسوى (١٩٧٢)

- للمدخنين فقط (١٩٨١)

في المسرح:

- حياة سنتياغو السعيد وهواه (١٩٦٤)

- الزبون الأخير (١٩٦٦)

- مسرحيات (١٩٧٥)

أعمال نثرية أخرى:

- نثر بلا وطن (١٩٧٥)، ثم طبعة مزيدة في ١٩٧٨، وطبعة نهائية في ١٩٨٦

- إغراء الفشل (يوميات شخصية) (١٩٩٢)

المأدبة

El banquete

قبل شهر من الموعد، أعد دون فيرناندو باسامانو كل تفاصيل هذا الحدث العظيم. كان لا بد أولا من إجراء تعديل شامل على منزله. وبما أنه بيت كبير قديم، فقد اقتضت الضرورة هدم بعض الجدران، وتوسيع النوافذ، واستبدال خشب الأرضية وطلاء الجدران كلها من جديد. وقد قاد هذا الإصلاح إلى إصلاحات أخرى - مثل أولئك الأشخاص الذين إذا ما اشتروا حذاء رأوا أنه لا بد لهم من أن يدشنوه مع جورب جديد ثم مع قميص جديد، وبعد ذلك بدلة جديدة، وهكذا دواليك، حتى الوصول إلى سروال داخلي جديد - وقد وجد دون فيرناندو نفسه مضطرا إلى تجديد الأثاث كله، ابتداء من الطاولات الصغيرة المثبتة على الجدران في الصالون وحتى منضدة الحلويات. ثم تلت ذلك السجاجيد، والثريات، والستائر، واللوحات لتغطية تلك الجدران التي بدأت تبدو، منذ تنظيفها، أكبر حجما. وأخيرا، ولأنه كان مقدرا أن يتضمن البرنامج وجود كونشيرتو في الحديقة، فقد كان لا بد من إقامة حديقة. وخلال خمسة عشر يوما، عكفت فرقة من البستانيين اليابانيين، في الموقع الذي كان من قبل أشبه بأجمة برية، على بناء حديقة فاتنة من الطراز الروكوكي، فيها أشجار سرو مشذبة بأشكال بديعة، وشبكة دروب متقاطعة، وبركة أسماك حمراء، ومغارة ألوهية، وجسر خشبي بدائي فوق جدول متخيل.

ولكن أخطر الأمور مع ذلك، كان اختيار قائمة الطعام. فدون فيرناندو وزوجته، مثل معظم الناس المتحدرين من المناطق الداخلية، لم يحضرا في حياتهما سوى ولائم ريفية حيث تُمزج التشيتشا[1] مع الويسكي وينتهي الأمر بالمدعوين إلى التهام الأرانب الهندية بالأيدي. ولهذا كانت أفكاره مشوشة حول ما يجب تقديمه في مأدبة للرئيس. ولم يتوصل الأقارب، الذين اجتمعوا في مجلس خاص، سوى إلى زيادة البلبلة. وأخيرا قرر دون فيرناندو أن يقوم باستفتاء أكبر فنادق المدينة ومطاعمها، وهكذا عرف أن هناك أطعمة رئاسية وأنبذة فاخرة لا بد من التوصية عليها لإحضارها بالطائرة من كروم ميديوديا.

وبعد أن حُلت كل هذه التفاصيل، وعى دون فيرناندو بشيء من الغم أنه قد استنفد كل ثروته في هذه المأدبة التي سيحضرها مئة وخمسون مدعوا، وأربعون نادلا للخدمة، وفرقتا أوركسترا، وفرقة باليه ومصور سينمائي. ولكن أي إسراف كان يبدو له في نهاية المطاف ضئيلا أمام المكاسب التي سيجنيها من هذه الحفلة.

كان يقول لزوجته:

- بسفارة في أوروبا وخط سكة حديد يمر من أراضيّ التي في الجبال سنستعيد ثروتنا خلال أقل مما يستغرقه صياح ديك. ولستُ أطلب أكثر من هذا. فأنا رجل قنوع.

فترد زوجته:

- بقي علينا أن نعرف إذا ما كان الرئيس سيأتي.

---

(١) التشيتشا chicha: شراب يشبه الجعة، يقطر من الذرة، وهو معروف في البيرو منذ أزمنة الإنكا.

وبالفعل، فقد أخّر دون فيرناندو حتى هذه اللحظة توجيه الدعوة فعليا. كان يكفيه أن يعلم أنه قريب الرئيس - قرابة من تلك القرابات الريفية الجبلية التي لا يضاهي التباسها سوى صعوبة إثباتها، ولا يسعى أحد، على العموم، إلى توضيح أبعادها خشية التوصل إلى أن أصلها هو الزنى - ليكون متأكدا تماما من أنه سيوافق على الدعوة. ومع ذلك، ومن أجل ضمانة أكبر، انتهز أول زيارة له إلى القصر ليقود الرئيس إلى أحد الأركان ويُطلعه بمذلة على مشروعه.

فرد عليه الرئيس:

- بكل سرور. إنها فكرة عظيمة. ولكنني مشغول جدا في الوقت الراهن. سأرسل إليك تأكيدا خطيا بموافقتي.

وبدأ دون فيرناندو ينتظر التأكيد. ولكي يتصدى لنفاد صبره، أمر بإجراء بعض الإصلاحات التكميلية التي أضفت على منزله مظهر قصر أعد لحفلة تنكرية مهيبة. وتمثلت فكرته الأخيرة في التوصية على رسم صورة للرئيس - قام رسام بنسخها عن صورة فوتوغرافية - وعلقها هو في أكثر الأماكن بروزا للنظر في صالونه.

وبعد أربعة أسابيع، وصل التأكيد. فأحس دون فيرناندو، الذي بدأ القلق من التأخير يساوره، بأعظم فرحة في حياته. فكان ذلك اليوم عيدا، نوعا من التمهيد للحفلة التي تقترب. وقبل النوم، خرج مع زوجته إلى الشرفة لتأمل حديقته المضاءة، وليختتم بحلم شاعري هذه المرحلة التاريخية. بدا المشهد مع ذلك، كأنه فقد خصائصه الحسية، فحيثما جال ببصره، كان

دون فيرناندو يرى نفسه وحسب، يرى نفسه ببدلة التشريفات، بقبعة التشريفات، يدخن السيجار، مع ديكور خلفي تختلط فيه - كما في بعض الملصقات السياحية - الأوابد الأثرية لأهم أربع مدن أوروبية. وبعيدا، في أحد أركان وهمه، يرى قطارا عائدا من الغابة وعرباته محملة بالذهب. ويرى في كل مكان صورة أنثوية متقلبة وشفافة مثل سعادة برهة حسية، لها ساقا غانية، وقبعة مركيزة، وعينا تاهيتية، وليس فيها أي شيء من زوجته على الإطلاق.

● ● ●

كان أول من وصل في يوم المأدبة هم المخبرين. فمنذ الساعة الخامسة مساء كانوا قد انتشروا عند الناصية، باذلين جهدهم للحفاظ على إبهام، تخونهم في إظهاره قبعاتهم ومبالغتهم في التظاهر بالسهو، وفوق ذلك كله مسحة الانحراف الرهيبة التي يكتسبها في معظم الأحيان التحريون والعملاء السريون، وجميع من يمارسون أعمالا سرية بصورة عامة.

بعد ذلك بدأت السيارات بالتوافد. وكان ينزل منها وزراء، وبرلمانيون، ودبلوماسيون، ورجال أعمال، ورجال أذكياء. وكان هناك بواب يفتح لهم البوابة الخارجية، وحاجب يعلن عن وصولهم، وخادم يتناول الملابس، ودون فيرناندو في وسط البهو يشد على أيديهم متمتما بعبارات مهذبة ومتأثرة.

وحين كان جميع بورجوازيي الجوار قد ازدحموا أمام المنزل وأقام سكان البيوت الجماعية حفلة سعادة غير منتظرة، وصل الرئيس. دخل إلى البيت يحرسه ضباطه المرافقون، فنسي دون

فيرناندو قواعد الاتيكيت، يحركه دافع الصداقة، وأحاطه بذراعيه بتودد شديد مفسدا إحدى كتافتي الرئيس.

توزع المدعوون في الصالون والممرات والشرفة والحديقة، وشربوا برصانة، وسط تبادل النكات والأهاجي، صناديق الويسكي الأربعين. ثم جلسوا بعد ذلك إلى الموائد المحجوزة لهم - المائدة الكبرى المزينة بأزهار السحلية، احتلها الرئيس والرجال النموذجيون - وبدئ بتناول الطعام وتبادل الحديث الصاخب بينما الأوركسترا في أحد أركان القاعة تحاول، دون جدوى، فرض جو فييني.

في منتصف المأدبة، حين تم تشريف نبيذ الرين الأبيض، وبدأ نبيذ البحر المتوسط الأحمر يملأ الكؤوس، ابتدأت جولة الخطابات. وقد قطعها وصول أطباق التدرج. ولم تعد البلاغة والمدائح إلا في النهاية، عند تقديم الشمبانيا، وامتدت حتى تقديم القهوة، قبل الغرق النهائي في كؤوس الكونياك.

وفي أثناء ذلك كان دون فيرناندو يرى بقلق أن المأدبة، بكامل صحتها، تتوالى وفق قوانينها الخاصة، دون أن تتاح له الفرصة لأن يسر للرئيس بما يريده. وعلى الرغم من أنه جلس، خلافا لقواعد البروتوكول، إلى يسار ضيفه الكبير، إلا أنه لم يجد اللحظة المناسبة ليتحدث إليه على انفراد. والأدهى من ذلك أن المدعوين بدأوا ينهضون بعد الانتهاء من تقديم الطعام، وشكلوا جماعات ناعسة وهاضمة، ووجد نفسه في دوره كمضيف، مضطرا إلى التنقل من جماعة إلى أخرى ليشجعهم بأكواب من النعناع، وبالتربيت، وتقديم السيجار.

وأخيرا، قرابة منتصف الليل، وبعد أن اضطر وزير الدولة، وهو مخمور، إلى الانصراف بصخب، تمكن دون فيرناندو من اقتياد الرئيس إلى قاعة الموسيقى، وهناك جلسا على أريكة من تلك التي كانت تنفع في بلاط فرساي لتطويب أميرة أو تخريب تحالف. وهمس دون فيرناندو في مسمع الرئيس بطلبه المتواضع.

فرد الرئيس:

- هذا أقل ما يمكن عمله. لقد شغرت سفارتنا في روما في هذه الأيام بالتحديد. غدا، في مجلس الوزراء، سأقترح تعيينك. أي أنني سأفرضه. أما بشأن سكة الحديد فأنا أعرف أن هناك لجنة من مجلس النواب تناقش هذا المشروع منذ شهور. بعد غد سأدعو جميع أعضاء اللجنة إلى اجتماع في مكتبي، وسأدعوك أنت أيضا، ليتم حل القضية على أحسن وجه.

بعد ساعة من ذلك، غادر الرئيس بعد أن أكد مرة أخرى على وعوده. ثم تبعه وزراؤه، وأعضاء مجلس الشيوخ... إلخ. حسب النظام الذي تفرضه الأعراف. وفي الساعة الثانية فجرا كان ما يزال يطوف في البار بعض الندماء ممن لا ينعمون بأي لقب رفيع وينتظرون أن تفتح لهم زجاجة شراب أو أن تواتيهم الفرصة ليسرقوا خفية منفضة سجائر فضية. وفي الساعة الثالثة فجرا فقط، بقي دون فيرناندو وزوجته وحيدين. يتبادلان الانطباعات ويرسمان مشروعات متفائلة؛ وبقيا على تلك الحال حتى بزوغ الفجر وسط فضلات وليمتهم الضخمة. وأخيرا، ذهبا إلى النوم تملأهما القناعة بأنه لم يحدث من قبل قط أن قامت شخصية بارزة في ليما بإلقاء ممتلكاتها من النافذة

مقابل مثل هذا المجد، أو غامرت بثروتها بمثل هذا المشروع المضمون تماما.

في الساعة الثانية عشرة ظهرا، استيقظ دون فيرناندو على صرخات زوجته. وحين فتح عينيه رآها تدخل حجرة النوم وهي تحمل صحيفة مفتوحة بين يديها. فانتزع الصحيفة منها، وقرأ العناوين ثم انهار على السرير دون أن يتمكن من إطلاق صرخة واحدة. ففي الفجر، انتهز أحد الوزراء انشغال الجميع بالحفلة وقام بانقلاب، وتم اجبار الرئيس على الاستقالة.

أرماندو ألمانثار رودريغيث

Armando Almánzar Rodríguez

(جمهورية الدومينيكان)

● ولد عام ١٩٣٥ في مدينة سانتو دومنغو، عاصمة جمهورية الدومينيكان.

● كرس عمله الأدبي بالكامل للقصة القصيرة، وحصل في هذا المجال على عدة جوائز. وكانت حصيلة عمله خمس مجموعات قصصية جميلة يمكن من خلالها لمس موهبته الصافية في فن القصة القصيرة.

● فضلا عن عمله الأدبي، تولى النقد السينمائي من خلال برنامج إذاعي وأشرف على إصدار عدة مجلات وصحف.

● نالت قصة «القط» الجائزة الأولى في مسابقة جمعية القناع الأدبية عام ١٩٦٦.

● من أعماله:

- حدّ ١٩٦٧.
- طفولة سعيدة ١٩٧٨.
- غابة ثقوب سوداء لأجل «تشيتشي لا سلسا» ١٩٨٥.
- قصص في أفلام قصيرة ١٩٩٤.
- موسوم بالبحر ١٩٩٨.

القط

El gato

نقطتان فوسفوريتان تترصدان من الجزء العلوي من السطح؛ أمامها يمتد استواء السطح تحت ضوء النجوم الخافت، مغطى بأوراق شجر وورق مجعد ومتعفن بفعل المطر والطقس. الحيوان يقبع مسترخيا، يكاد لا يتحرك؛ عيناه لا تحيدان عن الركن المقابل من السطح، ذلك الركن الذي تتكوم فيه عدة قطع خشبية قديمة ومنخورة. وفجأة، توترت عضلات القط، تحولت إلى نوابض ثابتة، متأهبة للانقضاض: عيناه مسلطتان بإصرار أكبر على الفجوة من قطعتي خشب... كان رأس الفأر يطل من هناك، متحركا بخفة من جهة إلى أخرى، كما لو أنه ينتظر ما يمكن أن يحدث. لقد بدأ صبر القط يعطي ثماره، أخيرا سيخرج الحيوان المتهرب، إنه يقرر مغادرة الملجأ الآمن في جحره بحثا عن طعام؛ ها هو هناك، إنه يخرج...

– وأخبريني يا عزيزتي، كيف كانت لعبة الكاناستا[1] هذه؟ رنَّ الصوت بقوة؛ هذا الصوت وفيض نور مائل إلى الصفرة انبثقا فجأة، ودون سابق إنذار، من النافذة المفتوحة في الطابق الثاني المطل على السطح؛ وقفز الفأر بالتزامن متراجعا الخطوات القليلة التي كان قد تقدمها، واندس من جديد في الجحر.

---

(١) الكاناستا la canasta : لعبة من ألعاب الورق.

استرخت عضلات القط بينما عيناه ترصدان النافذة وأذناه تتحركان بخفة.

- آه! أنت تعرف كيف هي هذه اللقاءات يا إرنستو. لعب كاناستا، وبعض كؤوس الكوكتيل و... نميمة، أجل، كثير من النمائم...

- أجل، النميمة فوق كل شيء يا عزيزتي؛ لا يمكن لها أن تغيب عن اجتماع... بين نساء...

مستطيل الضوء الذي تُسقطه النافذة يمتد على السطح، حوافه البعيدة غائمة وغير منتظمة، وأبعد منها، يواصل القط رابضا براحة، عضلاته مسترخية؛ عيناه تضيقان قليلا حين ينظر من خلال الضوء باتجاه ركن القطع الخشبية المظلم.

- وهل كانت حاضرة زوجة ألبيرتو يا عزيزتي.

جاء الصوت في هذا المرة أكثر بعدا، وعمقا.

- إيزابيل؟ لا، لم تستطع الذهاب.

سُمعت خرخرة قوية حين ألح الصوت النائي والعميق، الأجش؛ والتفت القط ببصره نحو النافذة ورمش عدة مرات.

- هل كان اللعب في بيت خوليان؟

- أجل... لا ...، لم يكن في بيت خوليان.

هبت نسمة خفيفة من جهة الشمال. كانت عينا القط تلمعان في الظلام، وهو ينتظر بصبر...

- إذن... أين لعبتم يا ماريا؟

صوت الرجل يُسمع الآن أكثر قوة ووضوحا، على الرغم من أن نبرته قد انخفضت بصورة جلية.

- في بيت آماليا.

امتد ظل متطاول فوق المستطيل حين قطعت هيئة الرجل النافذة؛ راقب القط الظل، ثم الهيئة السوداء في النافذة، وتحرك بخفة فوق قائمتيه الخلفيتين المبطنة، جزعا.

ظننتُ أنكِ قلتِ لي من قبل إنكن ستذهبن إلى بيت خوليان.

- أجل، أجل، كنا سنذهب إلى بيت خوليان، ولكنهن بعد ذلك فقط قررن... فضلن بيت آماليا؛ فهو مريح أكثر، أتعرف؟

انزلق الظل المتطاول فوق الضوء، مندمجا في ظلمة بقية السطح.

- لحسن الحظ أنكن لم تذهبن إلى بيت خوليان...

- ولماذا تقول هذا؟

تقوس ظهر القط بينما أذناه تتحركان في الاتجاهين؛ طرطقة خفيفة صدرت عن الأخشاب.

- لأنني كنت على وشك الذهاب إلى هناك عند خروجي من الاجتماع... كنت سأقوم بمشوار غبي... أليس كذلك يا... عزيزتي؟

وصلت كلمات المرأة إلى السطح بدورها منطفئة بعض الشيء، غير واثقة:

- أجل... بالطبع يا إرنستو... بالطبع...

- هكذا يا عزيزتي، هكذا، مشوار بلا جدوى... لأنك... لم تكوني في بيت خوليان... أليس كذلك؟

كان ظهر الهر مقوسا تماما، عضلات قوائمه مشدودة كنوابض فولاذية، عيناه مسلطتان على الركن المقابل، حيث أطل من جديد أنف القارض المتشمم، متحركا بعصبية من جهة إلى أخرى...

- لا، لا... كيف أكون هناك ما دمت... ما دمت ألعب في بيت آماليا...

ارتفع الجسد بخفة على القوائم، ببطء...

- ولكن، لتعرفي... بما أنني لم أكن متأكدا من المكان الذي تلعبن فيه، قررت الاتصال ببيت... آماليا، لكي... أستعلم...

تحرك القط بحرص إلى الأمام، خطوتين، ثلاثا، أربع خطوات؛ وكان الفأر قد تقدم، في جري عصبي، اجتاز مسافة لا بأس بها ما بين أوراق الشجر والورق المتعفن.

- أيوه... أتعرف يا إرنستو، لم أكن أريد أن أخبرك، ولكننا لم نذهب للعب... الواقع أننا ذهبنا إلى بار وتناولنا بعض الكؤوس... مجرد حماقة. أعرفُ أنه يجب عليّ عدم فعل ذلك دون إذن منك... ولكن هذا... ولهذا لم أخبرك...

- أجل، مجرد حماقة... ومع ذلك، كانت سيارتك عند مدخل بيت خوليان...

قائمتا الهر الأماميتان تقلصتا بقدر ما كان ذيله يتقوس متصلبا؛ وكان الفأر يتشمم نواة مانجو قديمة، ويخربش على الأرض بقائمتيه.

- ولكن... إرنستو، ألستَ تفكر بأنني...

- لا... يا عزيزتي، لستُ أفكر بأي شيء خبيث عنك، مستحيل؛ إنني أُخبرك، إنني متأكد، متأكد تماما...

تحرك الجسد المرن إلى الوراء، دون أن يُبعد قوائمه عن الأرض...

- لا يا إرنستو، لا، لا أعرف كيف تظن ذلك، إنك مخطئ... ما الذي ستفعله يا إرنستو؟ ما...؟

اجتازت لطخة ظل سريعة مستطيل الضوء.

- لا، لا، أرجوك!

جسد الفأر الضئيل يرتعش متشنجا، وحين دوت الولولة الحادة، رفع القط رأسه...، والتمعت عيناه وهما تعكسان ضوء النافذة.

ماريو بارغاس يوسا

Mario Vargas Llosa

(البيرو)

● ولد ماريو بارغاس يوسا في مدينة إريكيبا في الثامن والعشرين من مارس ١٩٣٦.

● درس الآداب والفلسفة في جامعة سان ماركوس في ليما، وبدأ بنشر قصصه القصيرة الأولى. وقد حصلت إحدى تلك القصص على جائزة أتاحت له السفر إلى أوروبا والحصول على منحة في فرنسا.

● حصل على الدكتوراه في الآداب من جامعة مدريد.

● عمل في التدريس كأستاذ دائم أو زائر في عدد كبير من الجامعات الإنكليزية والإسبانية والأمريكية والفرنسية والأمريكية اللاتينية.

● خاض انتخابات الرئاسة في البيرو عام ١٩٩٢، ولكنه خسرها في مواجهة منافسه الرئيس السابق فوجيموري، فغادر البيرو، وحصل على الجنسية الإسبانية (مع احتفاظه بجنسيته البيروفية).

● تمكن بارغاس يوسا (الأسلوبي على طريقة فلوبير) من تجديد الرواية الواقعية، متجاوزا الأشكال القديمة من الواقعية الوثائقية.

● نال عددا كبيرا من الجوائز الأدبية، مثل جائزة بيبليوتيكا بريفي (١٩٦٢)، جائزة النقد (١٩٦٣ و١٩٦٦) جائزة روميلو غييغو

الدولية للأدب (١٩٦٧) جائزة ثيرفانتس (١٩٩٢) وجائزة بلانيتا (١٩٩٤)، وهو «مرشح دائم لجائزة نوبل».

● يتناول في رواياته موضوعات العنف، والنفاق الاجتماعي، والفساد الأخلاقي (خصوصا في المؤسسة العسكرية) ويعريها بقسوة.

● من أبرز أعماله:

في القصة القصيرة:

«القادة» (١٩٥٩)، «الجراء/ قصة طويلة» (١٩٦٧).

في الرواية:

«المدينة الكلاب» (١٩٦٢)، «البيت الأخضر» (١٩٦٦)، «محادثة في الكاتدرائية» (١٩٩٦)، «العمة خوليا والمخربش» (١٩٧٧)، «حرب نهاية العالم» (١٩٨٠)، «قصة مايتا» (١٩٨٤)، «من قتل بالومينو موليرو؟» (١٩٨٦)، «امتداح الخالة» (١٩٨٨)، «ليتوما في جبال الأنديز» (١٩٩٥)، «دفاتر دون ريغوبيرتو» (١٩٩٧)، «حفلة التيس» (٢٠٠٠).

الدراسات:

«غابرييل غارسيا ماركيز، قصة محطم آلهة» (١٩٧١)، «الرواية ومسألة التعبير الأدبي في البيرو» (١٩٧٢)، «المجون الأبدي، فلوبير ومدام بوفاري» (١٩٧٥)، «خوسيه ماريا أرغويديس، بين الضفادع والنسور» (١٩٧٨)، «ضد الريح والموج» (١٩٨٣)، «رسائل إلى روائي شاب» (١٩٩٧)

المسرح:

«آنسة تاكنا» (١٩٨١)، «كاثي وفرس النهر» (١٩٨٣)، «لاتشونغا» (١٩٨٦).

زائر

Un visitante

الرمـال تلعق واجهـة الخـان[1]، وتنتهي هنـاك: تنزلق النظرة من الفجوة التي تستخدم كباب أو عبر نباتات الكاريثو على سطح أبيض زاوٍ حتى تلتقي بالسمـاء. التـراب فيـما وراء الخـان قاس وخشن، وعلًى بُعد أقل من كيلومتر واحد تبدأ المرتفعات الجرداء، كل واحد منها أعلى من سابقه. وكلها متصلة ببعضها بعضا؛ قممها تنغرز في السحب كأنها إبر أو فؤوس. وإلى اليسار، ضيقة، متعرجة، ممتدة على حافة الرمال حيث تنمو دون توقف إلى أن تتلاشى بين جبلين، بعيدا جدا عن الخـان، توجد الغابة؛ آجام، ونباتات برية، وعشب يابس زاحف يخفي كل شيء: الأرض المتشققة، الثعابين، البقع المستنقعية الصغيرة. ولكن تلك الغابة ليست سوى مقدمة للأدغال، إنها تشبه بها: فهي تنتهي في أقصى منخفض، عند أقدام جبل صخري صلد، تمتد وراءه الأدغال الحقيقية. ودونيا ميرثيدتياس تعرف ذلك، فقد تسلقت يوما، منذ سنوات، إلى أعلى ذلك الجبل وتأملت من هناك، بعينين مذهولتين عبر لطخات السحب الطافية عند قدميها، ذلك السطح الأخضر على امتداد عرض الأرض وطولها دون فجوة واحدة.

ودنيا ميرسيديتاس تغفو الآن على كيسين. وأبعد منها قليلا، تكشط العنزة الرمل ببوزها، تمضغ بعناد عودا من

---

(١) الخان المقصود هنا هو نزل يقام إلى جانب الطرق لإيواء المسافرين، ويدعى بلغة الكيتشوا tambo، وقد شيد الإنكا الكثير من هذه الخانات على امتداد دروب إمبراطوريتهم الشاسعة.

الحطب، أو تثغو لهواء الأصيل الفاتر. وفجأة، تنتصب أذناها وتقف متيبسة. تفتح المرأة عينيها قليلا:

- ماذا يحدث يا كوبرا؟

يشد الحيوان الحبل الذي يشده إلى الوتد. تنهض المرأة واقفة بمشقة. ويظهر الرجل بوضوح، على خلفية الأفق، على بعد حوالي خمسين مترا، يسبقه ظله على الرمال. ترفع المرأة يدها إلى جبينها كواقية. تنظر فيما حولها بسرعة، ثم تبقى ساكنة. الرجل قريب جدا؛ إنه طويل القامة، ضامر العود، شديد السمرة؛ له شعر مجعد وعيناه ساخرتان. قميصه حائل اللون يرفرف فوق بنطاله الصوفي السميك، والمرفوع حتى الركبتين. ساقاه تبدوان كوتدين خشبيين أسودين.

- مساء الخير يا سيدة ميرثيديتاس. - صوته مترنم ومستهزئ.

فتدمدمت المرأة وقد أصابها الشحوب:

- ماذا تريد؟

- لقد عرفتني، أليس كذلك؟ هذا يسعدني. أريد أن أتناول بعض الطعام إذا تلطفت. وأن أشرب. إنني ظمآن جدا.

- توجد بيرة وفواكه في الداخل.

- شكرا يا سيدة ميرثيديتاس. أنت طيبة جدا. كعادتك دائما. ألا ترافقينني؟

- لماذا؟ - وتنظر إليه المرأة بارتياب. إنها بدينة ومتقدمة في السن، لكن بشرتها ناعمة، وهي تمضي حافية القدمين:- أنت تعرف الخان.

- آوه - يقول الرجل بنبرة ودودة - لا أحب تناول الطعام وحدي. لأن ذلك يبعث على الحزن.

تتردد المرأة لحظة. وتمضي بعد ذلك نحو الخان مجرجرة قدميها في الرمل. تدخل. تنزع غطاء زجاجة بيرة.

- شكرا. شكرا جزيلا يا سيدة ميرثيديتاس. لكنني أفضل تناول الحليب. وما دمت قد فتحت هذه الزجاجة، فلماذا لا تشربينها؟

- ليست بي رغبة.

- هيا يا سيدة ميرثيديتاس، لا تكوني هكذا. اشربيها نخب صحتي.

- لا أريد.

تكتسي ملامح الرجل بالغيظ.

- أأنت صماء؟ قلت لك أن تشربي هذه الزجاجة. صحة!

ترفع المرأة الزجاجة بيديها وتشرب ببطء، في رشفات صغيرة. يلتمع على منضدة الكونتوار القذرة والمشققة، إبريق حليب. يهش الرجل بيده الذباب المحوّم حول الإبريق، ثم يرفعه ويشرب جرعة طويلة. تبقى شفتاه مغطاتين بكمامة من القشدة، لكن اللسان يمحوها بعد ثوان بحركة مفرقعة.

- آه! - يقول وهو يتلمظ - ما ألذ هذا الحليب يا سيدة ميرثيديتاس. مؤكد أنه من العنزة، أليس كذلك؟ لقد أعجبني كثيرا. هل انتهت الزجاجة؟ لماذا لا تفتحين واحدة أخرى؟ صحة!

تنصاع المرأة دون تذمر. ويلتهم الرجل موزتين وبرتقالة.

- انتبهي يا سيدة ميرثيديتاس. لا تحاولي التذاكي. البيرة تنسكب على عنقك. ستبلل ثوبك. لا تبددي الأشياء هكذا. افتحي زجاجة أخرى واشربيها على شرف «نوما»... صحة!

واصل الرجل تكرار كلمة «صحة» إلى أن صارت على منضدة الكونتوار أربع زجاجات فارغة. وصارت عينا المرأة زجاجيتين. وراحت تتجشأ، وتبصق، وتجلس على كيس فواكه.

- رباه! - يقول الرجل - أي امرأة أنت! إنك سكيرة صغيرة يا سيدة ميرثيديتاس. واعذريني لقولي هذا.

- هذا الذي تفعله بعجوز مسكينة سيكلفك غاليا يا خامايكينو. وسترى ذلك - وكان لسانها يتلعثم بعض الشيء.

- حقا؟ - يقول الرجل ضجرا-: وبالمناسبة، في أي ساعة سيحضر نوما؟

- نوما؟

- أوه، أنت فظيعة يا سيدة ميرثيديتاس عندما لا تريدين فهم الأمور. في أي ساعة سيأتي؟

- أنت زنجي قذر يا خامايكينو. نوما سيقتلك.

- لا تتفوهي بمثل هذه الكلمات يا سيدة ميرثيديتاس! - يتثاءب - حسن، أظن أنه ما زال أمامنا بعض الوقت. من المؤكد أنه لن يأتي حتى حلول الليل. فلنأخذ غفوة قصيرة، ما رأيك؟

ينهض ويخرج. يتوجه نحو العنزة. يرمقه الحيوان بارتياب. يحل وثاقها. ويعود إلى الخان وهو يصفر ويلوح بالحبل كمروحة: المرأة غير موجودة. وعلى الفور يتلاشى هدوء تكاسل ومجون حركاته. يجوب المكان بقفزات واسعة وهو يطلق اللعنات. ثم يتقدم من الغابة الصغيرة تبعته العنزة. وتكتشف هذه الأخيرة المرأة وراء شجيرة، وتبدأ بلعقها. فيضحك خامايكينو وهو يرى نظرات الغضب التي

تصوبها المرأة إلى العنزة. يومئ بإشارة بسيطة فتتوجه دونيا ميرثيديتاس إلى الخان.

- إنك امرأة رهيبة حقا. أجل يا سيدتي. يا للخواطر التي تراودك!

يقيّد قدميها ويديها، ثم يحملها بعد ذلك ويضعها فوق منضدة الكونتر. ينظر إليها بخبث، ويبدأ فجأة بدغدغة باطن قدميها الخشنتين والعريضتين. تتلوى المرأة مع القهقهات، ويكشف وجهها شعورا باليأس. منضدة الكونتر ضيقة، ومع اختلاجاتها، تقترب دونيا ميرثيديتاس من الحافة: وتتدحرج أخيرا بتثاقل على الأرض.

- يا للمرأة الرهيبة. أجل يا سيدي! - يكرر - إنها تتظاهر بالإغماء وهي تسترق النظر إليّ بعين واحدة. لا علاج لك يا سيدة ميرثيديتاس.

العنزة التي أطلت برأسها إلى الغرفة، تتأمل المرأة بثبات.

● ● ●

يُسمع صهيل الخيول مع نهاية المساء؛ مع بدء حلول الظلام. ترفع السيدة ميرثيديتاس وجهها وتصغي وقد اتسعت عيناها.

- إنهم هم - يقول خامايكينو، وينهض بقفزة واحدة.

بتواصل سماع صهيل الجياد ووقع سنابكها. ويصيح الرجل من باب الخان بغضب:

- هل جننت أيها الملازم؟ هل جننت؟

ومن منعطف من الجبل، من بين بعض الصخور، يظهر الملازم؛ إنه ضئيل، مربوع: ينتعل جزمة ركوب الخيل، ووجهه ينضح عرقا. يتطلع بحذر.

- هل أنت مجنون؟ - يكرر خامايكينو:- ماذا أصابك؟

فيقول الملازم:

- لا ترفع صوتك عليّ أيها الزنجي. لقد وصلنا لتونا. ماذا يحدث؟

- كيف ماذا يحدث؟ اطلب من رجالك أن يأخذوا الخيول بعيدا. ألا تعرف مهنتك؟

يحمرّ وجه الملازم ويقول:

- لست طليقا بعد أيها الزنجي. فمزيدا من الاحترام.

- خبئ الخيول وأخرس ألسنتها إذا شئت، ولكن يجب ألا يسمع لها صوت. وانتظر هناك. أنا سأعطيك الإشارة - يفتح خامايكينو فمه والبسمة التي ترتسم على محياه تبدو مُهينة - ألا ترى أنه عليك الآن أن تطيعني؟

يتردد الملازم لثوان.

- الويل لك إذا هو لم يحضر - يقول ذلك، ويدير رأسه مصدرا الأوامر -: يا رقيب ليتوما، خبئ الخيول.

- أمرك سيدي الملازم - يقول ذلك أحدهم من وراء الرابية. ويُسمع وقع الحوافر، ثم يلي ذلك الصمت.

يقول خامايكينو:

- هكذا يعجبني. على المرء أن يكون مطيعا. حسن جدا أيها الجنرال، برافو أيها المقدم. أهنئك أيها النقيب. لا تتحرك من المكان. أنا سأعطيك الإشارة.

يريه الملازم قبضته ويختفي خلف الصخور. يدخل خامايكينو إلى الخان. تدمدم المرأة وعيناها ممتلئتان حقدا:

- خائن. جئت بالشرطة. عليك اللعنة!

- يا لسوء التربية، رباه، يا لتربيتك أيتها السيدة ميرثيديتاس! لم آت بالشرطة. لقد جئت وحدي، وقد التقيت بالملازم هنا. وأنت شاهدة على ذلك.

فتقول المرأة:

- لن يأتي نوما. وسيأخذك الشرطيون إلى السجن ثانية. وعندما تخرج، سيقتلك نوما.

- مشاعرك خبيثة يا سيدة ميرثيديتاس، لا ريب في ذلك. يا للأمور التي تتنبئين لي بها!

- خائن - تكرر المرأة، وقد تمكنت الآن من الجلوس، وتقبع متيبسة - هل تظن أن نوما أبله؟

- أبله؟ ولا بأي حال. إنه حذر مثل ببغاء. ولكن لا تيأسي يا سيدة ميرثيديتاس. من المؤكد أنه سيأتي.

- لن يأتي. فهو ليس مثلك. لديه أصدقاء، وسيخبرونه بأن الشرطة هنا.

- أتعتقدين ذلك؟ أنا لا أظن. لن يكون لديهم متسع من الوقت. فقد جاءت الشرطة من جهة أخرى، من وراء الجبال. أنا اجتزت الأرض الرملية وحيدا. وكنت أسأل في كل القرى: «أما زالت السيدة ميرثيديتاس في الخان؟ لقد أطلقوا سراحي للتو، وأنا ماض لأدق عنقها». لا بد أن أكثر من عشرين شخصا قد هرعوا ليخبروا نوما بذلك. أما زلت تعتقدين بأنه لن يحضر؟ رباه! يا لهذا الوجه الذي تظهرينه يا سيدة ميرثيديتاس!

فغمغمت المرأة بصوت شاخر:

- إذا ما أصاب نوما سوء، ستندم طوال حياتك يا خامايكينو.

ويهز هذا كتفيه. يشعل سيجارة، ويأخذ بالصفير. ثم يتجه إلى منضدة الكونتر، فيتناول مصباح الزيت ويشعله. يعلقه على خشبة الباب، ويقول:

- بدأ الليل يخيم. تعالي إلى هنا يا سيدة ميرثيديتاس. أريد أن يراك نوما جالسة عند الباب في انتظاره. آه. صحيح! أنت لا تستطيعين الحركة. اعذريني، إنني كثير النسيان.

ينحني ويرفعها بين ذراعيه. يضعها على الرمل، أمام الخان. يسقط ضوء المصباح على المرأة ويضفي النعومة على بشرة وجهها: فتبدو أكثر شبابا.

- لماذا تفعل هذا يا خامايكينو؟

صوت دونيا ميرثيديتاس ضعيف الآن.

- لماذا؟ - يقول خامايكينو - إنك لم تدخلي السجن. أليس كذلك يا سيدة ميرثيديتاس؟ الأيام تمر وليس لدى أحدنا ما يفعله. أؤكد لك أن المرء يضجر كثيرا هناك. ويعاني كثيرا الجوع. اسمعي، لقد نسيتُ تفصيلا صغيرا، فأنت لن تبقي فاغرة الفم، وقد تأخذين بإطلاق الصرخات حين يجيء نوما. ثم أنك قد تبتلعين ذبابة.

يضحك. يفتش الغرفة ويجد خرقة. يكمم بها نصف وجه دونيا ميرثيديتاس ويتفحصها لبعض الوقت مستمتعا.

- اسمحي لي أن أقول إن لك مظهرا مضحكا جدا يا سيدة ميرثيديتاس. لا أدري ماذا تشبهين.

● ● ●

يكمن خامايكينو في عتمة عمق الخان مثل أفعى: بمرونة وبلا ضجة. يقبع منحنيا على نفسه ويداه مستندتان إلى منضدة الكونتر. على بُعد مترين أمامه، ضمن مخروط الضوء، تقبع المرأة متيبسة، وجهها متقدم إلى الأمام، كأنها تشم الهواء: لقد سمعت هي أيضا. كان صوتا خافتا، لكنه شديد الوضوح، آت من جهة اليسار، وقد برز على صرير الجداجد. إنه يُسمع ثانية، أطول مما في المرة السابقة: أغصان الغابة الصغيرة تطقطق وتتكسر. هناك من يقترب من الخان. ويهمس الخامايكينو: «إنه ليس وحيدا يا صغيرتي» يدس يده في جيبه ويُخرج الصفارة ويضعها بين شفتيه. وينتظر، دون حراك. تتململ المرأة فيشتمها خامايكينو من بين أسنانه. يراها تتلوى في مكانها وتحرك رأسها كالبندول محاولة التخلص من الكمامة. لقد توقفت الضجة: أتراه صار يمشي على الرمل الذي يُخمد وقع الخطوات؟ وجه المرأة متجه نحو اليسار وعيناها، مثل عيني عظاءة إيجوانا مسحوقة، تجحظان خارج محجريهما. يتمتم خامايكينو: «لقد رأتهم». يضع رأس لسانه على الصفارة: المعدن حاد. تواصل دونيا ميرثيديتاس هز رأسها والغمغمة بضيق. تطلق العنزة ثغاء فيلبد خامايكينو. وبعد ثوان من ذلك يرى ظلا ينحني على المرأة وذراعا عارية تمتد إلى الكمامة. ينفخ بكل قواه وهو ينقض قافزا على القادم الجديد. الصفير يملأ الليل مثل حريق ويضيع بين الشتائم التي تتفجر يمينا وشمالا، تتلوها خطوات متعجلة. وقع الرجلان فوق المرأة. الملازم سريع: ما أن ينهض خامايكينو حتى تكون إحدى يديه قد أمسكت بنوما من

شعره، وجهت اليد الأخرى المسدس إلى صدغه. ويحيط بهم أربعة جنود يحملون البنادق.

- اركضوا! - يصرخ خامايكينو بالجنود - الآخرون في الغابة. بسرعة! سيهربون. أسرعوا إليهم!

- مكانكم! - يقول الملازم. ولا يرفع بصره عن نوما الذي يحاول - بطرف عينه - أن يحدد مكان المسدس. يبدو هادئا؛ يداه متهدلتان على جانبيه.

- قيده أيها الرقيب ليتوما.

يضع ليتوما بندقيته على الأرض ويحل الحبل المعلق في حزامه. يقيد قدمي نوما ثم يضع الأغلال في يديه. لقد اقتربت العنزة، وبعد أن تشمم ساقي نوما، تبدأ بلعقهما بنعومة.

- الخيول أيها الرقيب ليتوما.

يدس الملازم المسدس في قرابه وينحني على المرأة. يفك الكمامة والقيود. تنهض دونيا ميرثيديتاس واقفة، تنحي العنزة بضربة على ظهرها وتقترب من نوما. تمر بيدها على جبينه دون أن تقول شيئا.

- ماذا فعل بك؟ - يسألها نوما.

- لا شيء - تقول المرأة - هل تود التدخين؟

ويلح خامايكينو:

- أيها الملازم. ألا تعرف أن الآخرين موجودون قريبا من هنا، في الدغل؟ ألم تسمعهم؟ لا بد أنهم ثلاثة أو أربعة، على الأقل. ماذا تنتظر لكي تأمر بالبحث عنهم؟

- اصمت أيها الزنجي - يقول الملازم دون أن ينظر إليه. يقدح عود ثقاب ويشعل السيجارة التي وضعتها المرأة بين شفتي نوما.

ويبدأ هذا بمج أنفاس طويلة؛ يطبق على السيجارة بأسنانه ويطلق الدخان من أنفه. ويواصل الملازم قائلا:- جئت بحثا عن هذا، وليس عن أحد سواه.

- حسن - يقول خامايكينو - إذا كنت لا تعرف عملك فهذه مشكلتك. أنا أنجزت واجبي. إنني الآن حر طليق.

- أجل - يقول الملازم - أنت حرّ.

يقول ليتوما وهو يمسك بأعنة الجياد الخمسة:

- الخيول، سيدي الملازم.

- أردفه على حصانك يا ليتوما - يقول الملازم - سيذهب معك.

يحمل الرقيب ليتوما وجندي آخر نوما، وبعد أن يحلا وثاق قدميه، يجلسانه على صهوة الحصان. يركب ليتوما الجواد وراءه. يقترب الملازم من الجياد ويمسك بعنان حصانه.

- وأنا أيها الملازم، مع من سأذهب أنا؟

- أنت؟ - يقول الملازم وقد أدخل قدمه في الركاب - أنت؟

- أجل - يقول خامايكينو - ومن غيري؟

فيجيب الملازم:

- أنت حر، لا حاجة لك للمجيء معنا. يمكنك الذهاب حيث تشاء.

يضحك ليتوما والجنود من على صهوات جيادهم.

- أي مزحة هذه؟ - يقول خامايكينو بصوت مرتعش -: لن تتركني هنا، أليس كذلك يا سيدي الملازم؟ أنت تسمع هذه الأصوات التي هناك في الغابة. لقد تصرفتُ جيدا. قمت بما هو مطلوب مني. ولا يمكنك أن تفعل بي هذا.

يقول الملازم:

- إذن ما أسرعنا يا رقيب ليتوما، فسوف نصل إلى مدينة «بيورا» مع الفجر. من الأفضل السفر على الرمال ليلا. لأن تعب المطايا يكون أقل.

- سيدي الملازم - يصرخ خامايكينو الذي أمسك بزمام حصان الضابط وراح يهزه بعصبية - لن تتركني هنا! لا يمكنك الإقدام على مثل هذه الفعلة المشينة!

يُخرج الملازم قدمه من الركاب ويدفع خامايكينو بعيدا.

- علينا السير بخبب سريع بين حين وآخر - يقول الملازم - هل تظن أنها ستمطر أيها الرقيب ليتوما؟

- لا أظن ذلك يا سيدي الملازم. فالسماء صافية.

يتضرع خامايكينو بصوت من حلقه:

- لا يمكنك الذهاب من دوني!

تبدأ السيدة ميرثيديتاس بالضحك قهقهة وهي تمسك بطنها.

ويقول الملازم: - هيا بنا.

فيصيح خامايكينو:

- أيها الملازم! يا ملازم! أتوسل إليك!

تبتعد الخيول، بطيئة. ينظر خامايكينو إليها مذهولا، ضوء المصباح ينير وجهه المشوه. ما زالت السيدة ميرثيديتاس تضحك بصخب. ولكنها تصمت فجأة وترفع يديها إلى فمها كالبوق، وتصرخ:

- نوما! سأحمل إليك الفاكهة في أيام الآحاد.

ثم تعاود الضحك، بصوت عال... وتصدر عن الغابة الصغيرة ضجة أغصان وأوراق يابسة تتكسر.

الجد

El abuelo

كلما طقطق غصن صغير أو نقت ضفدع، أو اهتز زجاج المطبخ الذي في أقصى الحديقة، قفز العجوز بخفة من مقعده المرتجل، وهو حجر أملس، ليطل مترصدا بلهفة من بين أوراق الشجر. لكنّ الطفل لم يظهر بعد. ولكنه كان يرى بالمقابل، من خلال نوافذ غرفة الطعام المطلة على العريشة، أنوار الثُريّا المضاءة منذ بعض الوقت، وتحتها ظلال غير واضحة المعالم تتسل من جهة إلى أخرى، مع الستائر، ببطء. لقد كان يعاني ضعف البصر منذ شبابه، ولهذا لم يكن ثمة جدوى من جهده للتأكد مما إذا كانوا قد بدأوا بتناول العشاء أم أن تلك الظلال القلقة تأتي من الأشجار العالية.

عاد إلى مقعده وانتظر. لقد هطل المطر في الليلة الماضية، وكانت الأرض والأزهار تطلق رائحة رطوبة زكية. ولكن الحشرات تحوم، ولا تتمكن حركات يدي دون إولوخيو حول وجهه من تجنبها: فقد كانت تصل في كل لحظة إلى ذقنه المرتعشة، وجبهته، وحتى إلى تجاويف جفونه، لتنغرس مناخس غير مرئية في لحمه. انحطت الآن الحماسة والإثارة اللتان أبقيتا جسده متيقظا ومحموما طيلة النهار، وصار يشعر بالتعب وبشيء من الأسى. كانت تضايقه ظلمة الحديقة الفسيحة وتعذبه صورة أحدهم، الملحة، المُذلة، ربما هي صورة الطاهية أو كبير الخدم، التي تباغته فجأة في مخبئه. «ما الذي تفعله في الحديقة في

هذه الساعة يا دون إولوخيو؟». وسيأتي ابنه وكنته، مقتنعين بأنه قد أصيب بالجنون. أدار رأسه، وقد هزته رعشة عصبية، فلمح الدرب الضيق بين تشابك أزهار الأقحوان والناردين وشجيرات الورد، ذلك الممر الضيق الذي يصل إلى الباب الخلفي متجنبا بُرج الحمائم. اطمأن قليلا حين تذكر أنه تحقق ثلاث مرات من أن الباب مغلق، وأن مزلاجه موصد، وأنه يستطيع التسلل إلى الشارع في بضع ثوان دون أن يراه أحد.

«وماذا إذا كان قد وصل؟» فكر قلقا. إذ كان هناك لحظة، بعد دقائق قليلة من دخوله الحذر إلى بيته من مدخل الحديقة شبه المنسي، فقد فيها الإحساس بالزمن وبقي كالنائم. ولم يستفق إلا عندما أفلت من يديه الشيء الذي يداعبه الآن بلا وعي، واصطدم بفخذه. ولكن مستحيل. لأنه لا يمكن أن يكون الطفل قد اجتاز الحديقة بعدُ، وإلا لكانت خطواته المذعورة قد أيقظته، أو لكان الصغير قد صرخ لدى رؤية جدّه مُنكمشا على نفسه، وغافيا بالضبط عند حافة الدرب المؤدي إلى المطبخ.

بثت فيه هذه الفكرة الحماس. كانت هبت الريح أقل قوة، وكان جسده قد تكيف مع الجو المحيط به، وتوقف عن الارتعاش. وبينما هو يتلمس جيوب سترته، عثر على الجسم الصلب الأسطواني للشمعة التي اشتراها هذا المساء من المتجر الذي على الناصية. ابتسم العجوز مغتبطا وهو في العتمة: لقد تذكر إيماءة البائعة المتفاجئة. لقد حافظ على جديته، وكان يطرق الأرض بقدمه طرقات رشيقة، ويحرك عكازه الطويل الملبس بمعدن، بخفة وبحركة دائرية، بينما المرأة تعرض أمام عينيه شموعا مختلفة

الأحجام.«هذه» قال هو مومئا بحركة سريعة تعبر عن الضيق من المهمة المزعجة التي يقوم بها. أصرت البائعة على لفّ الشمعة، لكن دون إولوخيو رفض ذلك وغادر المحل مستعجلا. أمضى ما تبقى من فترة المساء في النادي الوطني، منزويا في صالة لعب الورق الصغيرة التي لم يكن يدخلها أحد قط. ومع ذلك، فقد بالغ في الحيطة ليتفادى اهتمام الخدم به، فأغلق الباب بالمفتاح. ثم استراح بعد ذلك على الأريكة ذات اللون القرمزي الفريد. فتح الحقيبة الصغيرة التي جاء بها، وأخرج منها العُلبة الثمينة. كان يلفها بلفاعه الحريري الأبيض الجميل، وهو لفاع العنق نفسه الذي كان يضعه في مساء يوم اللقية.

كان قد ركب سيارة تاكسي في أشد ساعات الغسق رمادية، وطلب من السائق التجول خارج المدينة؛ كانت تهب نسمات لذيذة فاترة(دافئة)، وخيل إليه أن رؤية السماء بلونها الذي يختلط فيه الرمادي بالحمرة سيكون أشد لُغزية وسط الحقول. وبينما السيارة تطفو بنعومة على الأسفلت، كانت عينا العجوز اليقظتان، وهما علامة الحيوية الوحيدة في وجهه المترهل، الذي تتدلى منه أكياس دهنية، تنزلقان بسهو على ضفة القناة الموازية للطريق، عندما لمحه فجأة:

- «توقف!» قال. لكن السائق لم يسمعه -. «توقف! توقف!».

عندما توقفت السيارة، ثم رجعت القهقرى حتى بلغت كومة الحجارة، تأكد دون إولوخيو بأن ذلك الشيء هو جمجمة فعلا. أمسكها بين يديه، ونسي النسيم والمنظر الطبيعي، ودرس بدقة، وبجزع متزايد، هذا الشكل المُستغلق، القاسي والعنيد والعدائي،

المجــرد من اللحم والجلد، والذي دون أنف، ودون عــينـين ودون لسان. كانت جمجمة صغيرة، فأحس بميل إلى الاعتقاد بأنها جمجمة طفل. كانت وسخة، مغبرة، يجرح قذالها المجرد من الشعر ثقب بحجم قطعة نقود، حوافه متشظية. كان لفتحة الأنف شكل مثلث مكتمل، يفصلها عن الفم جسر رقيق أقل اصفرارا من الذقن. تلهى بإدخال أحد أصابعه في المحجرين الفارغين، مغطيا الجمجمة بيده على شكل قبعة، أو مُدخلا قبضته في التجويف السفلي، إلى أن يمسك بها من الداخل؛ وعندئذ، يُخرج بُرجمة أحد أصابعه من المثلث، وأخرى من الفم على شكل لسان طويل قاطع. يحرك يده في حركة متواصلة، ويستمتع كثيرا وهو يتخيل أن ذلك الشيء يبدو حيا.

أبقاها طوال يومين مخبأة في درج الصيوان، ملفوفة بعناية في الحقيبة الجلدية الصغيرة، وملفوفة بعناية، دون أن يخبر أحدا باللقية. أمضى مساء اليوم الذي تلا العثور عليها في غرفته، متنقلا بعصبية بين أثاث أسلافه الفخم. وكان لا يكاد يرفع رأسه؛ إلى حدّ قد يقال معه إنه كان يتفحص، بورع عميق وبشيء من الخوف، الرسوم الدامية والسحرية في الدائرة المركزية للسجادة، لكنه لم يكن يراها في الواقع. لقد كان في أول الأمر مترددا، قلقا؛ فقد تتسبب أسرته ببعض التعقيدات، وربما سخروا منه. أثارت هذه الفكرة سخطه وأحس بغم وبرغبة في البكاء. ومنذ تلك اللحظة لم يفارق المشروع ذهنه إلا مرة واحدة: حدث ذلك حين كان يقف قبالة النافذة، ورأى برج الحمائم المعتم، الممتلئ بالثقوب، فتذكر أن ذلك البيت الخشبي الصغير ذا الأبواب

الكثيرة لم يكن خاليا، بلا حياة، في زمن مضى، بل كان مأهولا بحيوانات صغيرة رمادية وبيضاء، تنقر بإلحاح وهي تجتاز الخشب المثلم، وتخفق بأجنحتها أحيانا فوق أشجار وأزهار الحديقة. فكر، بحنين، بكم كانت تلك الحيوانات ضعيفة وحانية، وكيف كانت تأتي واثقة لتحط على يده، حيث يضع لها على الدوام بعض الحبّ، وعندما يضغط، تفتح عيونها قليلا، وتهزها رعشة مقتضبة. لكنه توقف عن التفكير في ذلك. وعندما جاء كبير الخدم ليخبره بأن العشاء جاهز، كان قد حسم أمره. نام في تلك الليلة على ما يرام. وفي صباح اليوم التالي نسي أنه قد حلم بأن صفا خبيثا من النمل الأحمر الكبير قد اجتاح فجأة بيت الحمائم مسببا الاضطراب بين تلك الحيوانات الصغيرة، بينما كان هو يراقب المشهد من نافذته بمنظار.

كان قد تخيل أن تنظيف الجمجمة سيكون أمرا سريعا جدا، لكنه كان مخطئا. فالغبار، أو ما ظنّ أنه غبار، وقد يكون برازا بسبب رائحته اللاذعة، بقي ملتحما بالجدران الداخلية، ولامعا مثل صفيحة معدنية في الجزء الخلفي من الجمجمة. وكلما كان حرير لفاعه يتغطى ببقع رمادية، دون أن تختفي طبقة الوساخة، كانت إثارة دون إولوخيو تتزايد. وفي إحدى اللحظات، رمى الجمجمة ساخطا، لكنه، قبل أن تتوقف عن التدحرج، أحس بالندم وترك مقعده ليجثو على الأرض إلى أن أمسك بها ورفعها بحذر. وعندئذ افترض أن تنظيفها سيكون ممكنا باستخدام مادة دهنية. فطلب من المطبخ بالهاتف أن يأتوا إليه بعلبة زيت وانتظر الخادم عند الباب، وانتزع من يديه العلبة

بعنف، دون أن يولي اهتماما للنظرة القلقة التي حاول بها الخادم أن يتفحص الغرفة من فوق كتفه. بلل لفاع عنقه بالزيت وهو مفعم بالقلق، وأخذ يمسح الجمجمة بنعومة في أول الأمر، ثم بإيقاع متسارع بعد ذلك حتى الحنق. وسرعان ما تبين بفرح أن العلاج ناجع؛ فقد تساقط مطرٌ ناعم من الغبار على قدميه، ولم يلاحظ أن الزيت راح يبلل كذلك حافة معصميه وكُمّ سترته. فجأة، عندما نهض قافزا، أُعجب بالجمجمة التي كان يرفعها فوق رأسه، نظيفة، زاهية، جامدة، مع بعض النقاط الصغيرة كأنها قطرات عرق على سطح الوجنتين المتموج. لفّها من جديد، بمحبة؛ وأغلق حقيبته وغادر النادي الوطني. السيارة التي ركب فيها من ساحة سان مارتين أوصلته إلى الجهة الخلفية من بيته، في أورانتيا. كان الليل قد خيم. توقف هنيهة في عتمة الشارع الباردة، متخوفا من أن يكون الباب موصدا. مدّ ذراعه بأعصاب متوترة، وطفر من السعادة حين رأى المقبض يدور والباب ينفتح بصرير قصير.

في هذه اللحظة سمع أصواتا عند التعريشة. وكان مستغرقا في أفكاره إلى حدّ نسي معه سبب ذلك الانهماك المحموم. كانت الأصوات والحركة غير متوقعة لدرجة أن قلبه بدا أشبه بحوجلة أوكسجين موصولة بمحتضر. وكانت ردة فعله الأولى هي الانحناء، ولكنه فعل ذلك بخرقة انزلق معها عن الحجر وسقط على وجهه. أحس بألم حاد في جبهته، وبطعم تراب مبلل كريه في فمه، ولكنه لم يبذل أي مجهود للنهوض، وبقي هناك، شبه مدفون بين العشب، يتنفس بإجهاد، ويرتجف. وكان قد وجد الوقت، عند

سقوطه، ليرفع يده التي تحمل الجمجمة بحيث ظلت في الهواء، على ارتفاع سنتيمترات قليلة، وهي ما تزال نظيفة.

كانت العريشة على بعد حوالي خمسين مترا عن مخبئه. وكان دون إولوخيو يسمع الأصوات كأنها همس ناعم، دون أن يميز ما يقال. وبينما هو يراقب، رأى حينئذ شبحا وسط قوس أشجار التفاح الكبيرة التي تلامس جذورها ركيزة غرفة الطعام، كان شبحا واضحا وممشوقا، فأدرك أنه ابنه. وكان إلى جانبه شبح آخر، أشد نقاء وأصغر حجما، منحنيا بشيء من الاستسلام. إنها المرأة. حاول مغموما، وهو يرف برموشه ويفرك عينيه، أن يرى الطفل، ولكن دون جدوى. عندئذ سمعه يضحك: ضحكة طفل شفافة، عفوية، كاملة، تجتاز الحديقة كحيوان صغير. لم ينتظر أكثر من ذلك؛ وأخرج الشمعة من جيب سترته. جمع بالتلمس أغصانا، وترابا وأحجارا صغيرة وعمل بسرعة إلى أن ثبّت الشمعة على الأحجار، ووضعها، كعقبة، في منتصف الدرب. بعد ذلك، وبحذر فائق، لتفادي أن تفقد الشمعة توازنها، وضع الجمجمة فوقها. وفي انفعاله الشديد، وتقريب أهدابه من الجسم الصلب المزيت، انتابته السعادة: كان القياس مضبوطا تماما، فمن خلال فتحة الجمجمة برز رأس الشمعة البيضاء، مثل زهرة ناردين. لم يستطع متابعة المراقبة. كان الوالد قد رفع صوته، ومع أن كلماته بقيت غير مفهومة، إلا أنه عرف أنه يتوجه بالكلام إلى الطفل. كان هناك ما يشبه تبادل حديث بين الأشخاص الثلاثة: صوت الوالد الثخين الذي يزداد قوة أكثر فأكثر، وهمس المرأة الرخيم، وصيحات الحفيد القصيرة المتنافرة.

توقفت الضجة فجأة. وكان الصمت قصيرا جدا؛ صعقه الحفيد صارخا: «ولكن تذكّر: اليوم ينتهي العقاب. أنت قلت سبعة أيام، وهي تنتهي اليوم. غدا لن أذهب». ومع الكلمات الأخيرة سمع خطوات متعجلة.

أتراه يأتي راكضا؟ كانت تلك هي اللحظة الحاسمة. تغلب دون إولوخيو على الغصة التي تخنقه، وأنجز خطته. عود الثقاب الأول لم يعط سوى خيط نحيل أزرق تلاشى بسرعة. أما الثاني فاشتعل جيدا. كان يحرق أظفاره، ولكنه لم يشعر بالألم، وأبقى عود الثقاب ملتصقا بالجمجمة إلى ما بعد ثوان من اشتعال الشمعة. ولأن ما رآه لم يكن هو ما كان قد تخيله بالضبط، فقد تردد عندما تعالى لسان لهب مفاجئ بين يديه ورافقته طقطقة مباغتة، مثل وطء أوراق يابسة، وعندئذ أضيئت الجمجمة كلها، مطلقة نارا من المحجرين، من القحف، من الأنف ومن الفم. «لقد اشتعلت كلها»، هتف مذهولا. كان قد تجمد في مكانه وهو يردد كأسطوانة: «إنه الزيت، إنه الزيت». كان مشدوها، مفتونا أمام الجمجمة الخلابة الملتفة بألسنة اللهب.

في تلك اللحظة بالذات سمع الصرخة. صرخة وحشية، زعقة حيوان اخترقته رماح كثيرة جدا. كان الطفل في مواجهته، يداه ممدودتان، وأصابعه متشنجة. كان شاحبا، مرتعدا، عيناه جاحظتان وفمه مفتوح على اتساعه، وكان الآن أبكم ومتيبسا، ولكن حنجرته، وبصورة مستقلة عنه، كانت تُصدر أصواتا غريبة مبحوحة. «لقد رآني، لقد رآني»، ردد دون إولوخيو بهلع. ولكنه حين نظر إليه عرف على الفور أنه لم يره، وأن حفيده لا

يستطيع رؤية أي شيء آخر غير تلك الجمجمة الملتهبة. كانت عيناه ثابتتين، يرتسم فيها رعب عميق وأبدي. لقد حدث كل شيء متزامنا: اللهب، والزعيق، ورؤية هذه الهيئة ذات البنطال القصير الممسوسة فجأة بالرعب. كان يفكر في أن الوقائع جاءت أكثر كمالا من خطته، حين سمع الأصوات والخطوات المقتربة، فدار على عقبيه عندئذ، دون أن يولي اهتماما للضجة، وقفز مبتعدا عن الدرب، ساحقا تحت قدميه أجمة الأقحوان وشجيرات الورد التي كان يلمحها بمقدار ما تصلها انعكاسات اللهب، واجتاز المسافة التي تفصله عن الباب. وولجه مع صرخة المرأة، وكانت صرخة راعدة أيضا، لكنها أقل إخلاصا من صرخة حفيده. لم يتوقف، ولم يلتفت. وفي الشارع صفعت ريح باردة جبهته وشعره القليل، لكنه لم يكترث لذلك وواصل المشي، ببطء، ملامسا بكتفه جدار الحديقة، مبتسما برضى، مستنشقا بصورة أفضل، وباطمئنان أكبر.

فيرناردو دوران آيانغوي

Fernando Durán Ayanegui

(كوستاريكا)

● ولد فيرناردو دوران آيانغوي في مدينة آلاخويلا في كوستاريكا، عام ١٩٣٩.

● تخرج في جامعة كوستاريكا، متخصصا في الكيمياء عام ١٩٦٤، وحصل على دكتوراه في العلوم من بلجيكا عام ١٩٧١، ثم أمضى بعد ذلك سنة تخصص في جامعة هارفارد.

● تولى رئاسة كلية العلوم، ثم رئاسة جامعة كوستاريكا.

● بدأ مسيرته الأدبية في مطلع الستينيات، بكتابة القصة القصيرة والرواية، وقد نال جوائز في المجالين. ففي عام ١٩٩٠ حصل على الجائزة الأولى في المسابقة الدولية للرواية القصيرة في مالغا (إسبانيا) عن روايته «عندما اختفت المناجذ»، كما نالت روايته القصيرة «الحلية الملطخة» جائزة المسابقة الأدبية لأميركا الوسطى. وحصل على الجائزة الأولى في مسابقة خورخي بوليو (كوستاريكا) عن روايته «عودة إلى كليمنجارو». كما حصلت أعماله القصصية القصيرة على الجائزة الوطنية للآداب أربع مرات.

● يمتاز أسلوبه في قصصه القصيرة بغناه بالمعاني والرموز مع التكثيف والإيجاز، مثلما هي الحال في قصة «عاش الملك» التي اخترناها هنا.

● من أبرز أعماله:

في الرواية:

«لكِ اسم مـلاك» (١٩٨٨)، «عـودة إلى كليمنجارو» (١٩٨٩)، «عندمـا اخـتـفت المناجـذ- ثلاثيـة» (١٩٩١)، «سـلالات مونتانتشيث» (١٩٩٢).

في القصة القصيرة:

«ريالان وقـصص أخـرى» (١٩٦١)، «آخـر من ينام» (١٩٧٦)، «فلنخرج إلى الريف وقصص أخرى» (١٩٧٧)، «المُحسن وقصص أخـرى» (١٩٨١)، «قل إنك رأيتني هنا» (١٩٨١)، «قـصص إلى لاورا - قصص أطفال» (١٩٨٦)، «الملك الذي استولى على القمر - قـصص للأطفـال» (١٩٨٦)، «رحلة أسـرة ويكو - قـصص أطفال» (١٩٨٦)

عاش الملك (١)

ليس صحيحا أن العظم واللحم يطقطقان لدى مرور الشفرة؛ أظن أن سقوطها يكون سريعا جدا وضربتها صماء، دقيقة، شديدة القوة، بحيث لا يمكن، بأي حال، سماع الاعتراض الخجول للأنسجة التي تتمزق، ولهذا السبب لم أشعر بشيء، لم أشعر بأي ألم، ولا بأي خوف، وإنما الآن، من قاع السلة، يمكنني أن أرى كما لو أنني في بئر جافة جزءا من سماء فرنسا الزرقاء هذه، الموشاة قليلا ببعض الغيوم الصغيرة المتحركة التي لا تكاد تُرى، والتي ستحمل الخبر إلى أقصى أرجاء ما كان مملكتي، وهو خبر لم يعد يهمني، على الرغم من أنني بطله، بأن رأسي النازف يرقد، مفصولا عما كان جسدي، عند قدم المقصلة.

ويمضي، عبر سماء فرنسا، اليقين بأن الأهوال المؤكدة وغير المرئية بعد لن تصل إلى حد أن تصبغها بالأحمر كلها، ولكن بعد دوي الضربة القوي، بقيت على أي حال، لطخة حمراء على السكين، والحشود تطالب صارخة بأن يُعرض عليها رأسي الدامي، فرؤيته تتيح لها إشباع غريزة ثأر غريبة، غريزة لا أستاءُ منها لأنني قوّمت التاريخ دوما على أنه مكيدة مفتوحة فيه دور لكل واحد، وأنا قدمت دوري، مع مزية أنني وصلت إلى النهاية في الوقت الذي بقيت فيه لهم، باريس لا يمكن العيش فيها لما يملؤها من بؤس.

---

(١) العنوان بالفرنسية في الأصل: VIVE LE ROI.

يقترب الجلاد ويرفع رأسي، أو بعبارة أدق، يرفعني، لأنني لستُ سوى هذا، لستُ سوى رأس بدأ انتباهه يتشتت، مركزا مثلما كان قبل لحظة، على قطعة من السماء، وهو موزع الآن بصورة دوارية على حشد من الوجوه التي تزعم أنها تكرهني وهي في الحقيقة تخافني حين تكتشف أنني أحد وجوه الموت.

لا أتمكن من رؤية المكان الذي استقر فيه بدني، ولا يمكنني أن أعرف إذا ما كانوا حقا قد أعدموا آخرين معي، ولأنني أخلو من حواس أخرى، فإنني لا أشم رائحة الحشد الطاغية بصورة لا ريب فيها ولا سماع صرخاته. وإذا كنتُ واثقا من أنهم يصرخون، فلأنني أراهم يفتحون أفواههم ويرفعون قبضاتهم، وكل شيء يدفعني إلى التفكير في الخاصية الإعجازية لنور فرنسا هذا الذي يتيح لي أن أرى، بعد موتي، جزءا من التاريخ الذي ما كان يجب أن أكون شاهدا عليه.

وعلى كل حال، ها أنذا هنا للمرة الأخيرة، قبالة الشعب، الشعب الذي انتظرتُ أن أتلقى منه التلطف، الشعب الذي لم تكن تهمني صحته قدر اهتمامي بساعاتي، الشعب الذي كنتُ أستبدل أنا وأتباعي خبزه بمتعنا، الشعب الذي كنا نجهله على الرغم من رجفة بؤسه الباعثة على الصمم، ها أنذا هنا، مستعد لأن أقدم له الحكم الأخير، لأن التاريخ لا ينتهي بالنسبة إليه في هذه اللحظة، مثلما ينتهي بالنسبة إليّ، وإنما سيأتي آخرون ليمارسوا الخَلَف الحتمي.

يا شعب باريس: أقول، إن دحرجة رأسي لم تكن نهاية، وإنما هي بداية، لأنني بهذا صرت محروما من كل ما كنت أظنه حرمة

لا يمكن انتهاكها. ولأن الرأس المقطوع هو رأسي وفيه أودع كل حنيني، ولأن كل شيء صار ضدي وليس ضد الآخرين، أقول، فيما يتعلق بي، أنا لويس السادس عشر، أعتقد، عبر ما تبقى من التاريخ، أن الشعب يخطئ وأقول أيضا قبل أن ينحني الجلاد ليعيدني إلى راحة مقطوعي الرأس المشؤومة، إن كل هزيمة هي خطيئة من يتعرض لها، وكل انتصار هو سراب من يُحرزه.

هكذا تكلم الملك. ولم يُعرف إذا ما كان الجلاد قد وضعه في السلة بدافع القرف أم بدافع التعب، ودون أن يكون واثقا من أن هناك من يسمعه، قال:- مات الملك... عاش الملك؟

إيزابيل الليندي

Isabel Allende

(تشيلي)

● ولدت الكاتبة التشيلية إيزابيل الليندي في ليما، عاصمة البيرو عام ١٩٤٢، عندما كان أبوها يؤدي مهمة دبلوماسية في تلك البلاد.

● دخلت منذ وقت مبكر إلى عالم الصحافة، فعملت في مجلة «باولا» النسائية، وكذلك في بعض البرامج التلفزيونية في العاصمة التشيلية.

● في عام ١٩٧٥، أي بعد عامين من بدء دكتاتورية بينوشيت في تشيلي، خرجت مع أسرتها إلى المنفى في كاراكاس، حيث بدأت بكتابة روايتها الأولى «بيت الأرواح». وهو العمل الذي لقي نجاحا كبيرا عندما نُشر في إسبانيا.

● منحتها حكومة تشيلي عام ١٩٩٤ وسام الاستحقاق غابرييلا ميسترال.

● في عام ١٩٩٤ نشرت عملها «باولا»، وهي رواية حول الميتة المأساوية والمؤلمة لابنتها باولا فرياس.

● تتميز أعمالها ببساطة موضوعاتها وتقنياتها، مع الإلحاح على الأبعاد الاجتماعية، واللمسات الساخرة التي تزيد من حدة انتقادها لأي شكل من أشكال المراقبة، وللعنف والفساد الحكومي والدكتاتوريات التي عرفتها أميركا اللاتينية طوال عقود.

● تعيش إيزابيل الليندي حاليا في كاليفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية.

● من أبرز أعمالها:

- بيت الأرواح، رواية ١٩٨٢.
- عن الحب والظلال، رواية ١٩٨٤.
- إيفا لونا، رواية ١٩٨٧.
- الخطة اللانهائية، رواية ١٩٩١.
- باولا، مذكرات ١٩٩٤.
- ابنة الحظ، رواية ١٩٩٩.
- صورة عتيقة، رواية ٢٠٠٠.
- حكايات إيفا لونا، قصص قصيرة ١٩٩٠.

كلمتان

Dos palabras

كان اسمها بيليسا كريبوسكولاريو، ولكنه لم يكن اسما خرج من شهادة المعمودية أو من سداد بصيرة أمها، وإنما بحثت هي نفسها عنه إلى أن وجدته ولبسته. كانت مهنتها هي بيع الكلمات. تجوب البلاد، من أكثر المناطق ارتفاعا وبرودة وحتى الشواطئ الحارة، قاصدة المهرجانات والأسواق، حيث تنصب أربع عصي وفوقها مظلة من قماش، تحتمي تحتها من الشمس والمطر لتلبية طلبات زبائنها. لم تكن بحاجة للإعلان عن بضاعتها، فلكثرة ما تنقلت من مكان إلى آخر، صار الجميع يعرفونها، وكان هناك من ينتظرون قدومها من سنة إلى أخرى، وحين تظهر في القرية وحزمتها تحت إبطها يصطفون أمام محلها بالدور. كانت تبيع بسعر مناسب. فبخمسة سنتافوات تقدم أشعارا مرتجلة، وبسبعة تحسّن من نوعية الأحلام، وبتسعة تكتب رسائل للمحبين، وباثني عشر تبتدع شتائم لأعداء لدودين. وكانت تبيع كذلك حكايات، ولكنها لم تكن حكايات خيالية، وإنما قصصا حقيقية تلقيها باسترسال، دون أن تقفز عن أي شيء. وهكذا كانت تنقل الأخبار الجديدة من قرية إلى أخرى. وكان الناس يدفعون لها لتضيف سطرا أو سطرين: لقد ولد طفل، أو مات فلان، أو تزوج أبناؤنا، أو احترقت المحاصيل. وفي كل مكان كان يجتمع حشد صغير من حولها لسماعها عندما تبدأ الكلام، فيعرفون هكذا عن حياة الآخرين، عن الأقارب البعيدين،

وعن تفاصيل الحرب الأهلية. ومن يشتري منها بخمسين سنتافو، تهدي إليه كلمة سرية لإبعاد الكآبة. ولم تكن تقول الكلمة نفسها للجميع بالطبع، لأن ذلك سيكون خدعة جماعية. فكل واحد يتلقى كلمته التي لا يستخدمها لهذا الغرض أحد سواه في الكون كله وفيما وراء الكون.

ولدت بيليسا كريبوسكولاريو في أسرة شديدة البؤس، بائسة إلى حد لم تملك معه أسماء لأبنائها. وقد جاءت إلى الدنيا وترعرعت في أشد مناطق البلاد وحشة، حيث تتحول الأمطار في بعض السنوات إلى سيول مياه جارفة تحمل معها كل شيء، ولا تهطل في سنوات أخرى قطرة واحدة من السماء، فتكبر الشمس حتى تملأ الأفق كله ويتحول العالم إلى صحراء مقفرة. وحتى بلوغها الثانية عشرة من العمر لم تكن لها مهنة معينة ولم تكن تتمتع بفضيلة أخرى سوى القدرة على البقاء على قيد الحياة رغم الجوع الدائم والعطش الدهري. وفي إحدى فترات الجفاف الطويلة، كان عليها أن تدفن أربعة إخوة صغار، وحين أدركت أن دورها قد جاء، قررت المضي عبر السهوب باتجاه البحر، لترى إن كانت تستطيع مغافلة الموت خلال رحلتها. كانت الأرض معراة، مشققة بأخاديد عميقة، مزروعة بالأحجار، وبمستحاثات أشجار ونباتات شوكية، وبهياكل عظمية حيوانية ناصعة البياض بفعل الحر. وبين حين وآخر كانت تلتقي بأسر تمضي، مثلها، باتجاه الجنوب ملاحقة سراب الماء. كان بعضهم قد بدأوا المسير وهم يحملون ممتلكاتهم على كواهلهم أو في عربات يجرونها، ولكنهم كانوا لا يكادون يستطيعون تحريك عظامهم، فيضطرون بعد

مسيرة قصيرة إلى التخلي عن أشيائهم. كانوا يتجرجرون بمشقة، وقد تحولت جلودهم إلى جلود حراذين واحترقت عيونهم بوهج الضوء. كانت بيليسا تحييهم بإيماءة لدى مرورها بجانبهم، ولكن دون أن تتوقف، لأنه لا يمكن لها أن تستهلك قواها في ممارسة الشفقة. كثيرون سقطوا على الطريق، أما هي فكانت شديدة العناد بحيث تمكنت من اجتياز الجحيم ووصلت أخيرا إلى أول الينابيع، خيوط ماء رفيعة تكاد لا تكون مرئية، تغذي خضرة هزيلة، تتحول بعد ذلك إلى جداول وغدران.

نجت بيليسا كريبوسكولاريو بحياتها واكتشفت فوق ذلك الكتابة. فلدى وصولها إلى قرية على مقربة من الساحل، طوّح الهواء بورقة من صحيفة لتعلق بقدميها. تناولت تلك الورقة الصفراء الهشة، وتفحصتها مطولا دون أن تدرك فائدتها، إلى أن تجاوز فضولها رهبتها، فاقتربت من رجل كان يغسل جوادا في بركة الماء العكر نفسها التي ستشبع منها عطشها. وسألته:

- ما هذا؟

- إنها صفحة الرياضة في الجريدة - ردّ عليها الرجُل دون أن يبدي إمارات الدهشة حيال جهلها.

حيرت الإجابة الصبية، ولكنها لم تشأ الظهور بمظهر الوقحة، واكتفت بالاستفهام عن معنى قوائم الذباب المرسومة على الورقة.

- إنها كلمات أيتها الصغيرة. يقولون هنا إن فولخينسيو باربا قد أسقط نيغرو تيزناو بالضربة القاضية في الجولة الثالثة.

في ذلك اليوم عرفت بيليسا كريبوسكولاريو أن الكلمات تمضي طليقة دون مالك لها، وبإمكان أي شخص بقليل من البراعة أن

يسيطر عليها للمتاجرة بها. تأملت في وضعها وأدركت أن الأعمال التي يمكن لها أن تقوم بها لتكسب عيشها، بعيدا عن الدعارة أو العمل كخادمة في مطابخ الأثرياء، كانت قليلة جدا، وبدا لها بيع الكلمات خيارا محترما. ومن تلك اللحظة مارست هذه المهنة دون أن تهتم مطلقا بمهنة غيرها. في البدء عرضت بضاعتها دون أن يخطر لها أن الكلمات يمكن أن تُكتب أيضا خارج الصحف. وحين علمت ذلك قدّرت الآفاق غير المحدودة لتجارتها، فدفعت من مدخراتها عشرين بيزو إلى خوري ليعلمها القراءة والكتابة، واشترت بالبيزوات الثلاثة التي بقيت بحوزتها معجما. راجعته كله، من الألف إلى الياء ثم ألقت به إلى البحر، لأنها لم تكن تنوي الاحتيال على الزبائن بكلمات معلبة.

بعد سنوات عديدة من ذلك، وفي صباح يوم من أيام شهر أغسطس، كانت بيليسا كريبوسكولاريو في وسط إحدى الساحات، تجلس تحت مظلتها وتبيع حججا في العدالة لرجل مسن يطالب براتبه التقاعدي منذ سبعة عشر عاما. كان يوم السوق، وكان هناك صخب كثير في ما حولها. وسُمع فجأة وقع حوافر خيول وصرخات، فرفعت عينيها عن الكتابة، ورأت في أول الأمر سحابة من غبار، وبعد ذلك مباشرة جماعة من الفرسان داهمت المكان. إنهم رجال الكولونيل، آتون بقيادة الخلاسي، وهو مارد معروف في كل أرجاء المنطقة بسرعة مديته وبولائه المطلق لقائده. وكان كلاهما، الكولونيل والخلاسي، قد أمضى حياته مشغولا بالحرب الأهلية وكان اسماهما مرتبطين بصورة لا تُغتفر بأعمال التخريب والمصائب.

دخل المقاتلون إلى القرية كقطيع منفلت، يحيط بهم الصخب، ويغطيهم العرق، مخلفين في طريقهم هول إعصار. خرج الدجاج طائرا، وهرعت الكلاب لتختبئ، وركضت النسوة مع أبنائهن، ولم تبق في موقع السوق نفس واحدة حية سوى بيليسا كريبوسكولاريو التي لم تكن قد رأت الخلاسي في حياتها قط، ولهذا السبب ذاته استغربت توجهه نحوها.

- إنني أبحث عنكِ - صرخ بها وهو يشير إليها بسوطه المطوي، وقبل أن يكمل ذلك، انقض الرجال على المرأة مقوضين المظلة ومهشمين دواة الحبر، وقيدوا قدميها ويديها ووضعوها بالعرض، مثل كيس بحار، على ردف مطية الخلاسي، وانطلقوا على جيادهم باتجاه الجبال.

بعد ساعات من ذلك، وعندما كانت بيليسا كريبوسكولاريو على وشك الموت بقلب متحول إلى رمل بسبب ارتجاجات الجواد، أحست أنهم قد توقفوا، وأن أربع أيدٍ قوية أنزلتها إلى الأرض. حاولت الوقوف على قدميها ورفع رأسها بكرامة، لكن قواها خانتها وانهارت وهي تطلق أَنَّة، لتغرق في حلم مُبهر. استيقظت بعد عدة ساعات على همس الليل في الريف، ولكنها لم يُتح لها الوقت لحل رموز تلك الأصوات، لأنها ما إن فتحت عينيها حتى وجدت نفسها في مواجهة نظرة الخلاسي الذي كان يجثو على ركبتيه إلى جوارها.

- ها أنتِ تستيقظين أخيرا يا امرأة - قال لها ذلك وهو يقدم إليها زمزميته لتشرب رشفة من خمرة ممزوجة بالبارود وتستعيد الحياة.

أرادت أن تعرف سبب كل هذه المعاملة السيئة، فأوضح لها بأن الكولونيل بحاجة إلى خدماتها. سمح لها بمسح وجهها بالماء واقتادها في الحال إلى أحد أطراف المعسكر، حيث كان أكثر الرجال إثارة للخوف في البلاد يرقد في أرجوحة نوم معلقة بين شجرتين. لم تستطع رؤية وجهه، لأن ظلال أوراق الشجر كانت تغطيه، وكذلك ظلال سنوات طويلة من العيش كقاطع طريق، لكنها تخيلت أنه لابد أن يكون ذا ملامح مريعة طالما أن مساعده المارد يكلمه بكل ذلك التذلل. وقد فاجأها صوته، الناعم والمرخم مثل صوت أستاذ.

- أأنتِ التي تبيع الكلمات؟ - سألها.

فدمدمت وهي تشرئب في العتمة لتراه بصورة أفضل:

- في خدمتك.

نهض الكولونيل واقفا، فأنار المشعل الذي يحمله الخلاسي وجهه. رأت المرأة بشرته القاتمة وعينيه الضاريتين كعيني أسد البوما وأدركت في الحال أنها أمام أكثر الرجال وحدة في هذا العالم.

- أريد أن أصير رئيسا - قال.

كان متعبا من ذرع تلك الأراضي اللعينة في حروب غير مجيدة وهزائم لا يمكن لأي حيلة أن تحولها إلى انتصارات. لقد أمضى سنوات طويلة وهو ينام في العراء، يلسعه البعوض، ويتغذى ببيض عظاءات الإغوانا وحساء الحيات، لكن هذه المضايقات الصغرى لم تكن تشكل مبررا كافيا لاستبدال قدَره. فما كان يضايقه حقا هو رؤية الرعب في عيون الآخرين. وكان يرغب في دخول القرى تحت أقواس النصر، ووسط الرايات الملونة والأزهار، وأن يصفق الناس له

ويقدموا إليه بيضا طازجا وخبزا خرج لتوه من الفرن. فقد ملّ من رؤية الرجال يهربون، والنساء الحوامل يجهضن من الخوف، والصغار يرتجفون لدى مروره. ولهذا كان قرر أن يصير رئيسا. اقترح عليه الخلاسي الذهاب إلى العاصمة والدخول على صهوات خيولهم إلى القصر للسيطرة على الحكم، تماما مثلما استولوا من قبل على أشياء كثيرة دون استئذان، لكن الكولونيل لم يكن راغبا في التحول إلى طاغية آخر، فقد كان هناك ما يكفي من هؤلاء في تلك الأنحاء، فضلا عن أنه لن يحصل بتلك الطريقة على تعاطف الناس. كانت فكرته تتلخص في أن يتم اختياره في اقتراع شعبي خلال انتخابات الرئاسة في شهر ديسمبر.

وسأل الكولونيل بيليسا كريبوسكولاريو:

- لكي أحقق ذلك لابد لي من التحدث كمرشح. أيمكنك أن تبيعيني الكلمات اللازمة لخطاب انتخابي؟

كانت قد تقبلت التكليف بأعمال كثيرة، لكن أيا منها لم يكن بمثل هذه المهمة. ولكنها لم تستطع الرفض مع ذلك، خشية أن يطلق عليها الخلاسي رصاصة مابين عينيها، أو أن يحدث ما هو أسوأ من ذلك، كأن ينفجر الكولونيل في البكاء. كما أنها أحست من جهة أخرى بدافع يدفعها إلى مساعدته؛ لأنها شعرت بخفقة دفء في بشرتها، وبرغبة جامحة في لمس هذا الرجل، وفي أن تجوبه بيديها، وأن تضمه بين ذراعيها.

أمضت بيليسا كريبوسكولاريو طوال تلك الليلة وقسطا كبيرا من نهار اليوم التالي باحثة في فهرسها عن أكثر الكلمات ملاءمة لخطاب رئاسي، يحرسها عن قرب الخلاسي الذي لم يكن يرفع

نظره عن ساقيها المتينتين، ساقي المرأة الجوّالة، وعن نهديها العذراوين. استبعدت من ذهنها الكلمات الفظة والجافة، والكلمات شديدة التنميق، والباهتة والمستهلكة من كثرة الاستخدام، والتي تقدم وعودا غير محتملة وخاوية من الحقيقة، والكلمات المشوشة، لتستبقي فقط تلك القادرة على ملامسة تفكير الرجال وبداهة النساء بصورة صائبة. باستخدامها المعارف التي اشترتها بعشرين بيزو من الخوري. كتبت الخطبة على صفحة من الورق، ثم أشارت بعد ذلك إلى الخلاسي كي يفك الحبل الذي ربطها به من كاحليها إلى شجرة. اقتادوها ثانية إلى الكولونيل، وما إن رأته حتى أحست باللهفة النابضة نفسها التي أحست بها في اللقاء الأول. أعطته الورقة وانتظرت بينما هو يمسكها برؤوس أصابعه ويحدق فيها.

- أي لعنة يقولها هذا؟ - سألها أخيرا.

- ألا تعرف القراءة؟

فرد الكولونيل:

- ما أعرفه هو خوض الحروب.

قرأت له الخطبة بصوت عالٍ. قرأتها ثلاث مرات، كي يستطيع زبونها حفظها في ذاكرته. وعندما انتهت رأت التأثر في وجوه رجال الفرقة الذين تجمهروا لسماعها، ولاحظت أن عيني الكولونيل الصفراوين تشعان بالحماسة، واثقا من أن كرسي الرئاسة سيكون له بهذه الكلمات.

وقال الخلاسي موافقا:

- لابد أن هذا الشيء سينفع أيها الكولونيل، طالما أن الرجال مازالوا فاغري الأفواه بعد أن سمعوه ثلاث مرات.

سألها الزعيم:

-بكم أدين لك مقابل هذا العمل يا امرأة؟

- بيزو واحد أيها الكولونيل.

- ليس غاليا - قال ذلك وهو يُخرج الجراب المعلق في حزامه، وفيه بقايا الغنيمة الأخيرة.

قالت بيليسا كريبوسكولاريو:

- ولك الحق فوق ذلك بمكافأة. فمن حقك الحصول على كلمتين سريتين.

- ما الذي يعنيه هذا؟

فبادرت إلى التوضيح له أنها مقابل كل خمسين سنتافو يدفعها الزبون تهدي إليه كلمة يقتصر استخدامها عليه وحده. هز الكولونيل كتفيه، لأنه لم يكن مهتما بأي حال بالعرض، ولكنه لم يشأ أن يكون فظا مع من قدمت له خدمة جليلة. دنت بتمهل من الكرسي ذي المقعد الجلدي حيث كان يجلس وانحنت لتسر له بمكافأته، ولتهمس في أذنه بالكلمتين السريتين اللتين يستحقهما.

وقالت وهي تبتعد عنه:

- هاتان هما كلمتاك أيها الكولونيل. يمكنك استخدامهما متى شئت.

رافق الخلاسي بيليسا حتى حافة الطريق دون أن يتوقف عن النظر إليها بعينين متوسلتين لكلب تائه، ولكنه حين مدَّ يده ليلمسها، أوقفته بسيل من كلمات مبتكرة كانت قادرة على أن تطير شهوته، لأنه ظنها كلمات لعنة لا خلاص منها.

ألقى الكولونيل الخطبة خلال شهور سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر مرات ومرات، بحيث لو لم تكن مصوغة من كلمات متألقة وذات

ديمومة، لكانت كثرة الاستعمال قد حولتها إلى رماد. جاب البلاد في جميع الاتجاهات، داخلا المدن بمزاج انتصاري، ومتوقفا كذلك في القرى المنسية، هناك حيث بقايا القمامة هي الإشارة الوحيدة إلى الحضور البشري، ليُقنع الناخبين بأن يصوتوا له. وبينما هو يخطب على منصة في وسط الساحة، كان الخلاسي ورجاله يوزعون السكاكر وينقشون اسمه بزركشة مذهبة على الجدران، ولكن أحدا لم يكن يولي اهتماما لأساليب التجار تلك، لأن الجميع كانوا مبهورين بوضوح مراميه وبالصفاء الشاعري لحججه، مصابين بعدوى رغبته في إصلاح أخطاء التاريخ وسعداء للمرة الأولى في حياتهم. ولدى انتهاء خطاب المرشح، كان رجال فرقته يطلقون رصاص المسدسات في الهواء ويشعلون المفرقعات. وعندما ينسحبون في آخر الأمر، يخلّفون وراءهم خطا من الأمل يبقى عالقا في الهواء لعدة أيام، مثل الذكرى العظيمة لنيزك مذنب. وسرعان ما صار الكولونيل هو السياسي الأوسع شعبية. لقد كان ذلك الرجل الذي برز من الحرب الأهلية، المغطى بندوب الجراح والذي يتكلم كأستاذ جامعي، ظاهرة لم يُعرف لها مثيل. وانتشر صيته في أنحاء البلاد محركا قلب الوطن. الصحافة اهتمت به، وسافر الصحافيون من أماكن بعيدة لإجراء مقابلات معه وترديد عباراته، وهكذا تكاثر عدد أتباعه وعدد أعدائه أيضا.

قال الخلاسي لدى إكمال الأسبوع الثاني عشر من النجاح:

- إننا نتقدم جيدا أيها الكولونيل!

لكن المرشح لم يصغ إليه. فقد كان يكرر لنفسه كلمتيه السريتين، كما هي عادته التي ازدادت تواترا أكثر فأكثر. كان يذكرهما حين

يلينه الحنين، ويهمس بهما وهو نائم، ويحملهما معه على جواده، ويفكر بهما قبل أن يلقي خطبته الشهيرة، ويفاجئ نفسه وهو يتذوقهما في لحظات شروده. وفي كل مناسبة ترد فيها هاتان الكلمتان إلى ذهنه، كان يستعيد حضور بيليسا كريبوسكولاريو وتتشوش حواسه بتذكر الرائحة البرية، وحرارة الحريق، والملامسة الرهيبة، وأنفاس النعناع، إلى أن صار يسير مثل منوَّم وأدرك رجاله أن حياته ستنتهي قبل أن يصل إلى كرسي الرؤساء.

- ما الذي أصابك أيها الكولونيل؟ - سأله الخلاسي مرات كثيرة، إلى أن اعترف له القائد أخيرا في أحد الأيام بأن سبب حالته المعنوية تلك هو الكلمتان اللتان انغرستا في بطنه.

فقال له مساعده الوفي:

- أخبرني بهما، فقد تفقدان بذلك سلطانهما.

ورد الكولونيل:

- لن أخبرك بهما، إنهما لي وحدي.

ولتعبه من رؤية قائده يذوي مثل من هو محكوم بالإعدام، ألقى الخلاسي بندقيته على كتفه وخرج بحثا عن بيليسا كريبوسكولاريو. اقتفى آثارها في كل أنحاء هذه الجغرافيا الفسيحة إلى أن وجدها في قرية في الجنوب، مستقرة تحت مظلة مهنتها، مرددة سبحتها من الأخبار. فوقف أمامها مباعدا مابين ساقيه ومسددا سلاحه نحوها، وقال آمرا:

- ستأتين معي.

لقد كانت تنتظره. فالتقطت دواة حبرها، ونزعت قماش مظلة بسطتها، وألقت الشال على كتفيها وصعدت بصمت على ردف

الجواد. لم يتبادلا إيماءة واحدة خلال الطريق كله، لأن شهوة الخلاسي تجاهها تحولت إلى غيظ، ولم يمنعه من تمزيقها بضربات السوط إلا الخوف الذي تبعثه فيه سلاطة لسانها. ولم يكن مستعدا كذلك لأن يعترف لها بأن الكولونيل يمضي مخبولا، وأن ما لم تستطعه سنوات الحرب الطويلة توصل إليه سحر مهموس في مسمعه. وبعد ثلاثة أيام وصلا إلى المعسكر وقاد أسيرته على الفور إلى المرشح أمام الفرقة كلها.

- جئتك بهذه الساحرة لكي تعيد إليها كلمتيها أيها الكولونيل، و لكي تُعيد هي إليك الرجولة - قال ذلك وهو يسدد سلاحه إلى عنق المرأة.

تبادل الكولونيل وبيليسا كريبوسكولاريو النظرات طويلا، وتفحص كل منهما الآخر عن بعد. فأدرك الرجال حينئذ أن قائدهم لم يعد قادرا على التخلص من سحر ذينك الكلمتين الشيطانيتين، لأنهم استطاعوا جميعهم أن يروا عيني أسد البوما الضاريتين وهما تتحولان إلى عينين وديعتين حين تقدمت نحوه وأمسكت بيده.

مع كل فروض الاحترام

Con todo el respeto debido

كانا محتالين اثنين: هو له وجه قرصان، وشعر وشارب مصبوغان بلون الكهرمان الأسود، ولكنه مع مرور الوقت استبدل أسلوبه وكشف الشيب الذي خفف من قسوة ملامحه ومنحه مظهرا أكثر رصانة. أما هي فكانت امرأة مربوعة لها تلك البشرة الحليبية التي تميز السكسونيات ذوات الشعر الأشقر.. بشرة تعكس الضوء في لطخات متلألئة في مرحلة الشباب، ولكنها تتحول في الكهولة إلى ما يشبه الورق الملطخ ببقع متفرقة. والسنوات التي أمضتها في معسكرات حقول البترول وفي البلدات الحدودية المتخلفة لم تُجهز على قوتها التي ورثتها عن أسلافها الاسكتلنديين. ولم يستطع البعوض ولا الحر ولا سوء الاستخدام استنفاد جسدها أو التقليل من رغبتها في التسلط وإصدار الأوامر. في الرابعة عشرة من عمرها هجرت أباها، القس البروتستانتي الذي كان يعظ مبشرا بالكتاب المقدس في أعماق الأدغال، وهو عمل لم يكن يجدي أي نفع، لأن أحدا هناك لم يكن يفهم شيئا من رطانته الإنكليزية، ولأن الكلمات كلها، بما في ذلك كلمة الرب، كانت تضيع في تلك الأنحاء وسط لغط الطيور. كانت قامة الفتاة في تلك السن قد وصلت إلى طولها النهائي، وكانت في أوج سيطرتها على شخصيتها. ولم تكن مخلوقة تنقاد للعواطف. فقد رفضت، واحدا بعد آخر، جميع الرجال الذين تقدموا عارضين عليها الحماية يجتذبهم لهيب

شعرها المتوهج، النادر في المنطقة المدارية. لم تكن قد سمعت بالحب، ولم يكن في طبعها ما يمكّنها من ابتداعه، ولكنها عرفت بالمقابل كيف تستغل على خير وجه الثروة الوحيدة لديها. وحين أكملت خمسا وعشرين سنة من عمرها، كانت قد أصبحت تملك حفنة من قطع الماس تخبئها في جراب مخيط بين طيات تنورتها. وقد قدمت تلك الحفنة دون تردد إلى دومينغو تورو، الرجل الوحيد الذي استطاع شكمها، والمغامر الذي كان يجوب المنطقة ليصطاد التماسيح ويتاجر بالأسلحة والويسكي المغشوش. لقد كان محتالا بلا وازع من ضمير والرفيق المناسب تماما لتلك المرأة المدعوة ابيغايل ماكغوفيرن.

كان على الزوجين في الأزمنة الأولى أن يبتكرا أنواعا من الصفقات على شيء من الشذوذ لكي يزيدا رأسمالهما. فبثمن ما لديها من الماس وببعض المدخرات التي كان قد جمعها هو من التهريب ومن بيع جلود العظاءات والغش في القمار، اشترى دومينغو «فيشات» قمار من الكازينو المحلي، لأنه عرف أنها مطابقة تماما لفيشات كازينو آخر في الجانب الآخر من الحدود، حيث قيمة النقد أعلى بكثير. ملأ حقيبة بالفيشات وسافر لتبديلها بالنقود عدا ونقدا. واستطاع إنجاز تلك العملية مرتين قبل أن تتمكن السلطات من اتخاذ الاحتياطات، وحين فعلت ذلك تبين أنها لا تستطيع أن تتهمه بأي عمل غير شرعي. وفي أثناء ذلك كانت ابيغايل تتاجر بأوان فخارية تشتريها من القرويين وتبيعها لأمريكيي الشركة البترولية على أنها قطع أثرية. وقد كانت ماهرة في ذلك لدرجة أنها سرعان ما وسّعت

تجارتها إلى لوحات مزيفة من العهد الاستعماري، كان يرسمها لها طالب في ركن وراء الكاتدرائية ويتم تعتيقها على عجل بماء البحر والهباب وبول القطط. وكانت في أثناء ذلك قد تخلصت من أساليب وبذاءات الرعاع، وقصت شعرها وبدأت تلبس ثيابا غالية. ومع أن ذوقها كان شديد المبالغة وكانت جهودها للظهور بمظهر أنيق تبدو واضحة جدا، إلا أنه كان بالإمكان النظر إليها على أنها سيدة مجتمع. وقد سهّل ذلك من توسيع علاقاتها الاجتماعية وساهم في ازدهار تجارتها. كانت تتفق مع زبائنها على اللقاء في الفندق الإنكليزي، وبينما هي تقدم الشاي بحركات رصينة تعلمت أن تقلدها، كانت تتكلم عن حفلات صيد وبطولات تنس في أماكن مزعومة ذات أسماء بريطانية لا يمكن لأحد أن يحدد موقعها على الخريطة. وبعد فنجان الشاي الثالث تبدأ التلميح بلهجة سرية إلى موضوع هذا اللقاء، فتعرض صورا للقطع الأثرية المزعومة وتوضح جيدا أن نيتها هي إنقاذ هذه الكنوز من الإهمال المحلي. وتقول إن الحكومة لا تملك الموارد للحفاظ على تلك الأشياء الاستثنائية. وإن تهريبها إلى خارج البلاد، على الرغم من أنه عمل غير شرعي، فإنه يدل على وعي أركيولوجي.

وما إن رسّخ آل تورو أسس ثروة صغيرة، حتى فكرت ابيغايل في تأسيس نسب أصيل لأسرتها وسعت لإقناع دومينغو بضرورة الحصول على كنية جيدة.

- وما هو السيئ في كنيتنا؟

فردت ابيغايل:

- لا أحد يرضى بكنية «تورو»(١). إنها كنية تصلح لخمّار.

- إنها كنية أبي ولستُ أفكر في استبدالها.

- في هذه الحالة يتعين علينا أن نقنع الجميع بأننا أثرياء.

اقترحت عليه شراء أراض وزراعة الموز والبن مثل النبلاء الإسبان القدماء، ولكن لم ترق له فكرة الذهاب إلى الأقاليم الداخلية، حيث البراري الخاضعة لرحمة عصابات اللصوص أو الجيش أو رجال حرب العصابات، والأفاعي وكل أنواع الأوبئة؛ وكان يرى أنه من الحمق الذهاب إلى الأدغال للبحث عن الفرص المتوافرة في متناول اليد وسط العاصمة، وأنه من الأفضل العمل في التجارة مثل آلاف السوريين واليهود الذين ينزلون من السفن وليس معهم إلا حزمة أمتعة بائسة على ظهورهم، ثم لا يلبثون أن ينعموا بالعيش الرغيد بعد سنوات قليلة.

فقالت له:

- لا أريد شيئا من الأساليب التركية. ما أريده هو تكوين أسرة محترمة، حيث يطلق علينا الجميع لقب «دون» و«دونيا» ولا يتجرأ أحد على التحدث إلينا دون أن يرفع قبعته احتراما.

ولكنه أصر على موقفه فاضطرت هي إلى الامتثال لقراره، مثلما تفعل على الدوام تقريبا، لأنها كلما عارضت زوجها ووقفت في وجهه كان يعذبها بفترات طويلة من الهجران والصمت. فقد كان يختفي في تلك المناسبات من البيت عدة أيام، ويرجع منهوكا من غراميات سرية، فيبدل ملابسه ويعود للخروج ثانية تاركا ابيغايل غاضبة في أول الأمر ثم مفزعة

---

(١) تورو Toro تعني «ثور».

من فكرة فقدانه. لقد كانت امرأة عملية، خالية تماما من المشاعر الرومانسية، وإذا كانت لديها بذرة من الرقة يوما، فإن سنوات حياتها المتهتكة قد قوضتها، ولكن دومينغو كان الرجل الوحيد الذي يمكنها تحمله إلى جانبها، ولم تكن مستعدة لتركه يمضي. وما إن تتراجع ابيغايل عن موقفها المعارض، حتى يعود هو إلى النوم في سريرها. لم تكن هناك مصالحات صاخبة، وإنما كانا يستعيدان ببساطة إيقاع روتينهما السابق ويعودان إلى التواطؤ في حيلهما.

أقام دومينغو تورو سلسلة من المتاجر في الأحياء الفقيرة، حيث كان يبيع بأسعار رخيصة جدا، ولكن بكميات كبيرة. وقد استخدم تلك المتاجر كستارة لأعمال أخرى أقل شرعية. استمر تراكم الأموال، واستطاعا دفع تكاليف ممارسات الأثرياء الشاذة، ولكن ابيغايل لم تكن راضية، لأنها أدركت أن العيش في ترف هو أمر مختلف كثيرا عن كونها مقبولة في المجتمع. فكانت تقول لزوجها:

- لو أنك استمعت لنصيحتي لما اعتبرونا مثل التجار الصغار. انظر إلى نفسك كيف تبيع الخرق الرخيصة!

- لست أدري ممَ تشكين، فنحن لدينا كل شيء.

- واصل العمل في دكاكينك التي تقيمها للفقراء إذا كان هذا هو ما تريده، أما أنا فسأشتري خيول سباق.

- خيول؟ وما الذي تعرفينه أنت عن الخيول يا امرأة؟

- أعرف أنها أنيقة، وأن كل الناس الأكابر لديهم خيول.

- سننتهي إلى الإفلاس!

استطاعت ابيغايل أن تفرض مشيئتها لمرة واحدة، وقد تأكد لهما بعد وقت قصير بأن الفكرة لم تكن سيئة. فقد منحتهما الحيوانات فرصة التعامل مع عائلات المربين العريقين، كما تبين أنها تجارة مربحة. ولكن، على الرغم من أن صور الزوجين تورو صارت تظهر بكثرة في صفحات الفروسية في الصحافة، إلا أنها لم تظهر مطلقا في صفحة المجتمع. كان الغيظ يملأ ابيغايل، فتزيد من مباهاتها في المظاهر أكثر فأكثر. أوصت على طقم سفرة من الخزف تزين كل قطعة منه صورة لها مرسومة باليد، وكؤوس من الكريستال المحفور، ومفروشات تزين قوائمها زخارف هائجة، إضافة إلى مقعد بالٍ ادعت أنه لقية أثرية من العهد الاستعماري، وقالت للجميع إنه كان يخص بطل التحرير، ولهذا السبب ربطته بحبل أحمر من الأمام حتى لا يضع أحد مؤخرته حيث فعل ذلك أبو الوطن. وتعاقدت مع مربية ألمانية لأبنائها، ومع متشرد هولندي ألبسته ثياب أميرال ليقود يخت الأسرة. الأثر الوحيد الذي بقي من الماضي هو وشم دومينغو القرصاني. وكانت قد تحولت في ذلك الحين إلى امرأة بدينة تغطيها المجوهرات وكأنها نيرون. وقد سببت لها طموحاتها تشوهات جسدية لم تتوصل مغامراتها في الأدغال إلى إحداثها.

ومن أجل اجتذاب صفوة المجتمع الراقي، كان آل تورو يقيمون كل سنة في موسم الكرنفال، حفلة تنكرية ضخمة: فمرة يقلدون أجواء بلاط بغداد، فيجلبون فيلا وجمالا من حديقة الحيوان، ويُلبسون جيشا من الخدم الملابس البدوية، أو يقيمون حفلة راقصة على غرار حفلات فرساي، يرتدي فيها

المدعوون بدلات من حرير مزركش وباروكات معفرة ويرقصون رقصة المينويه بين مرايا متقابلة؛ وحفلات فاضحة أخرى شكلت جزءا من الأساطير المحلية وكانت سببا في حملات تشهير عنيفة تشنها صحف اليسار. فكان لابد من فرض حراسة على البيت لكبح الطلاب الساخطين من ذلك الترف التبذيري، ومنعهم من كتابة الشعارات على الأعمدة أو قذف البراز من النوافذ، بحجة أن الأثرياء يملأون أحواض حماماتهم بالشمبانيا، بينما الفقراء الجدد يصطادون القطط على الأسطح ليأكلوها. لقد منحتهم تلك الحفلات الصاخبة بعض الاحترام، لأن الخط الفاصل بين الطبقات الاجتماعية كان آخذا في الاضمحلال آنذاك، فقد كان يصل إلى البلاد أناس من كل أصقاع الأرض تجتذبهم روائح البترول النتنة، وكانت العاصمة تتوسع دون ضابط أو نظام، والثروات تتراكم وتضيع في مثل لمح البصر، ولم يكن ثمة إمكان لتقصي أصول كل شخص ونسبه. ومع ذلك، فإن الأسر العريقة كانت تحتفظ بمسافة بينها وبين آل تورو، على الرغم من أن تلك الأسر نفسها كانت تتحدر من مهاجرين آخرين أحقيتهم الوحيدة هي أنهم وصلوا إلى هذه السواحل قبل نصف قرن من سواهم. لقد كانوا يحضرون مآدب دومينغو وابيغايل، ويتنزهون أحيانا في البحر الكاريبي في اليخت الذي تقوده يد الربان الهولندي الثابتة، ولكنهم لا يردون على ذلك الاهتمام بالمثل. وربما كانت ابيغايل ستقنع بموقع في الصف الثاني، لولا أن حدثا مفاجئا قلب حظها رأسا على عقب.

في عصر ذلك اليوم من شهر أغسطس، استيقظت ابيغايل من قيلولتها وقد أنهكها الحر. كان الحر شديدا والهواء محملا بنذر عاصفة وشيكة. ارتدت فستانا حريريا فوق المشد، وأمرت السائق بأن يوصلها إلى صالون التجميل. اجتازت السيارة الشوارع المزدحمة بحركة المرور وزجاج نوافذها مغلق، للحيلولة دون إقدام أحد الحاقدين - هؤلاء الذين يزدادون عددا كل يوم - من أن يبصق على السيدة من النافذة، وتوقفت أمام صالون التجميل في الساعة الخامسة تماما، حيث دخلت بعد أن أمرت السائق بالعودة ليأخذها بعد ساعة من ذلك. وعندما رجع الرجل لأخذها لم تكن ابيغايل موجودة هناك. وقد أخبرته عاملات تصفيف الشعر في المحل بأن السيدة قالت لهن بعد خمس دقائق من وصولها، إنها ذاهبة للقيام بجولة قصيرة، ولكنها لم ترجع. في أثناء ذلك تلقى دومينغو تورو في مكتبه أول مكالمة هاتفية من «أسود ألبوما الحمراء»، وهي جماعة متطرفة لم يسمع أحد بها من قبل، وأخبروه بأنهم قد اختطفوا زوجته.

هكذا بدأت الفضيحة التي أنقذت سمعة آل تورو. اعتقلت الشرطة السائق وعاملات محل التجميل، وجرى تفتيش أحياء بكاملها وتطويق بيت آل تورو، مع ما رافق ذلك من إزعاج للجيران. وأغلقت حافلة من التلفزيون الشارع لعدة أيام، وراحت أفواج من الصحافيين والمخبرين والفضوليين تجوس مرابع العشب في البيوت. ظهر دومينغو تورو على الشاشات وهو جالس على مقعد الجلد في مكتبته مابين خريطة للعالم وفرس محنطة، متوسلا إلى الخاطفين أن يعيدوا إليه أم أبنائه. وعرض

رجل السلع الرخيصة، كما أسمته الصحافة، مليونا مقابل إطلاق سراح زوجته، وهو رقم كبير جدا، لأن جماعة أخرى من رجال حرب العصابات لم تحصل إلا على نصف هذا المبلغ مقابل الإفراج عن سفير بلد شرق أوسطي. إلا أن أسود ألبوما الحمراء وجدوا أن المبلغ غير كافٍ وطالبوا بضعفه. وبعد ظهور صورة ابيغايل في الصحف، فكر كثيرون في أن أفضل صفقة يمكن لدومينغو القيام بها هي دفع المبلغ، ولكن ليس من أجل استرداد زوجته، وإنما لكي يحتفظ الخاطفون بها. وقد عمت أنحاء البلاد صيحة عدم التصديق حين أعلن الزوج، بعد استشارات عاجلة مع مصرفيين ومحامين، عن موافقته على الصفقة، على الرغم من تحذيرات الشرطة له. وقبل ساعات من تسليم المبلغ المتفق عليه، تلقى الزوج بالبريد خصلة شعر شقراء ورسالة تقول إن الثمن قد ارتفع ربع مليون آخر. وفي تلك الأثناء كان أبناء تورو يظهرون في التلفزيون أيضا ليبعثوا رسائل وفاء يائس إلى ابيغايل. وراح المزاد المشؤوم يرفع المبلغ يوما بعد يوم أمام عيون الصحافة المتيقظة.

وقد انتهت الدهشة بعد خمسة أيام من ذلك، تماما عندما بدأ فضول الجمهور يتجه نحو أمور أخرى. فقد ظهرت ابيغايل مقيدة ومكممة في سيارة متوقفة في مركز المدينة، وكانت عصبية ومشعثة الشعر بعض الشيء، ولكن دون أي كدمات ظاهرة، بل إنها بدت أكثر سمنة مما كانت عليه. وفي مساء اليوم الذي رجعت فيه ابيغايل إلى بيتها، اجتمع حشد صغير في الشارع ليصفق لذلك الزوج الذي أظهر دليلا لا يدحض على حبه.

وحيال إلحاح الصحافيين ومطالبة الشرطة، اتخذ دومينغو تورو موقف الشهامة المتكتم، ورفض الكشف عن المبلغ الذي دفعه بحجة أن زوجته لا تقدر بثمن. وقد تداولت المبالغة الشعبية رقما لا يمكن تصديقه، ويزيد كثيرا عما دفعه أي رجل على الإطلاق مقابل امرأة، وخصوصا إذا كانت امرأته. وقد حوّل ذلك آل تورو إلى رمز للثراء، وقيل إنهم لا يقلون ثراء عن رئيس البلاد الذي استغل لسنوات عائدات بترول الأمة، وقُدرت ثروته بأنها واحدة من أكبر خمس ثروات في العالم. ووصل دومينغو وابيغايل إلى المجتمع الراقي الذي لم يُتَح لهما دخوله حتى ذلك الحين. ولم يعكر صفو انتصارهما أي شيء، حتى ولا احتجاجات الطلاب العلنية، الذين علقوا في الجامعة لافتات اتهموا فيها ابيغايل باختطاف نفسها، واتهموا زوجها بأنه أخرج الملايين من أحد جيوبه ليدسها في جيب آخر دون أن يدفع ضرائب، واتهموا الشرطة بابتلاع حكاية أسود ألبوما الحمر لإخافة الناس وتبرير عمليات التطهير ضد أحزاب المعارضة. ولكن ألسنة السوء لم تستطع تحطيم الأثر العظيم الذي أحدثته عملية الاختطاف. وبعد عقد من السنوات كان آل تورو- ماكغوفيرن قد تحولوا إلى واحدة من أكثر عائلات البلاد احتراما.

المراجع في سطور

د. محمد حسن موسى

- من مواليد ١٩٥١، الأردن.
- حاصل على الشهادة الجامعية والماجستير في الطب، ودبلوم في اللغة الإسبانية.
- يعمل أخصائي أمراض باطنية في مستشفى الصباح.
- يعمل مدرس ومشرف اللغة الإسبانية في مركز خدمة المجتمع - جامعة الكويت.

❖ له مقالات مترجمة عدة في مجالات علمية مختلفة.

المترجم في سطور

صالح علماني

- من مواليد ١٩٤٩ - حمص - سوريا.
- حاصل على الإجازة الجامعية في اللغة العربية من جامعة دمشق.
- يعمل في وزارة الثقافة السورية.
- عضو الاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين، عضو جمعية الترجمة في اتحاد الكتاب العرب في سوريا.
- له العديد من الكتب المترجمة، من: روايات ومسرحيات وأشعار وأبحاث في النقد الأدبي، جمعها وترجمها عن اللغة الإسبانية، إضافة إلى عدد كبير من القصص القصيرة والمقالات المنشورة في عدد من الصحف والمجلات العربية.

القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين

يحوي هذا العدد بين دفتيه مختارات تحاول أن ترصد نماذج وتيارات مختلفة في القصة الإسبانوأمريكية خلال القرن العشرين، وهي محاولة انتقائية أبعد ما تكون عن الإحاطة بالتاريخ الأدبي للمنطقة.

وقد سعينا جاهدين أن تضم هذه المجموعة طيفا واسعا من الأسماء البارزة في القصة الإسبانو أمريكية، وإن غابت عنها أسماء، دافعنا إلى ذلك إطلاع القارئ الكريم على تجربة الحداثة الإسبانو أمريكية، كما تجلت في القصة القصيرة وحركة التجديد فيها.

لقد كانت أمريكا الإسبانية، مثلها مثل كل المستعمرات الأخرى، مجرد مورِّد للمواد الأولية، ومستهلك للمواد المصنعة، ومن ضمنها الأدب، الذي كان يكتب على بعد آلاف الأميال عن أراضيها فلا يعبر عن مشاكلها وواقعها، إلى أن جاء الازدهار الاستثنائي للشعر الغنائي الإسبانو أمريكي في مطلع القرين العشرين، وارتبط هذا الازدهار الشعري ارتباطا وثيقا بازدهار الفن القصصي، الذي بلغ مستويات، لا تقل بحال عن تلك التي بلغها الشعر، حيث عرفت بدايات القرن العشرين قصاصين بارزين، شكلوا استمرارا لعملية التجديد.

ولكن مسيرة التجديد الحقيقية، في هذا الفن، بدأت مع هوراسيو كيروغا أحد أبرز ملهمي الروح التجديدة في الإنتاج الأدبي الإسبانو أمريكي، حيث كان أول من حاول وضع نظرية للقصة القصيرة الإسبانو أمريكية، فحدد بدقة أطر هذا الجنس الأدبي وعناصره الأسلوبية، ثم تبعه كتّاب آخرون، وأبدع كل منهم تقليدا جديدا أضاف إلى تألق هذا الفن وإلى تميزه تميزا واضحا.

ردمك ٢ - ١٤٠ - ٠ - ٩٩٩٠٦
ISBN: 99906 - 0 - 140 - 2